سلسلة أنا هي الحرب ٢

مملكة الكوابيس والضباب

سما سامي

مملكة
الكوابيس والضباب

سامي، سما
مملكة الكوابيس والضباب / سما سامي - ط١ - الدمام ١٤٤٦هـ
٤٣٢ ص، ١٤٠ سم

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١٢٧٩٦
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٤٩٩-٤٩-٨

مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع

الموقع الإلكتروني :
Www.Adab-Book.Com
مركز الأدب العربي
@Services_Book
@ServicesBook1
مركز الأدب العربي
adabarabic7
aladabcc@gmail.com

مسؤول النشر :
للتواصل
0597777444

عالم الروايات

تنفيذ الطباعة
مطبعة الكتاب العربي - الرياض

المملكة العربية السعودية- الدمام
لطلب إصدارات مركز الأدب العربي
00966597777444

دولة الإمارات العربية المتحدة مكتبة الأدب العربي 00971569787989
جمهورية مصر العربية مركز الأدب العربي 00201120102172

سلسلة أنا هي الحرب (2)
مملكة الكوابيس والضباب
سما سامي
@samasami2828
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م
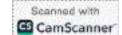
شكر وتقدير

شكر خاص لجميع القراء الذين طالبوا ببقية السلسلة ووجهوا لي رسائل لطيفة وداعمة شجعتني على مواصلة الكتابة.

جميع أعمالي أكتبها من أجلكم.

إهداء

إلى من وجد مهرباً آمناً بـ «لأنها كيارا»

حان الوقت لتعودوا إلى ملاذكم الآني..

تحذير للقارئ

قد تجعلك أحداث هذا الكتاب تضحك أحياناً وتغضب في أحيان أخرى، أو ربما تصرخ امتعاضًا كذلك.

لذا استرخِ، وابدأ بالقراءة.

N

إشراق
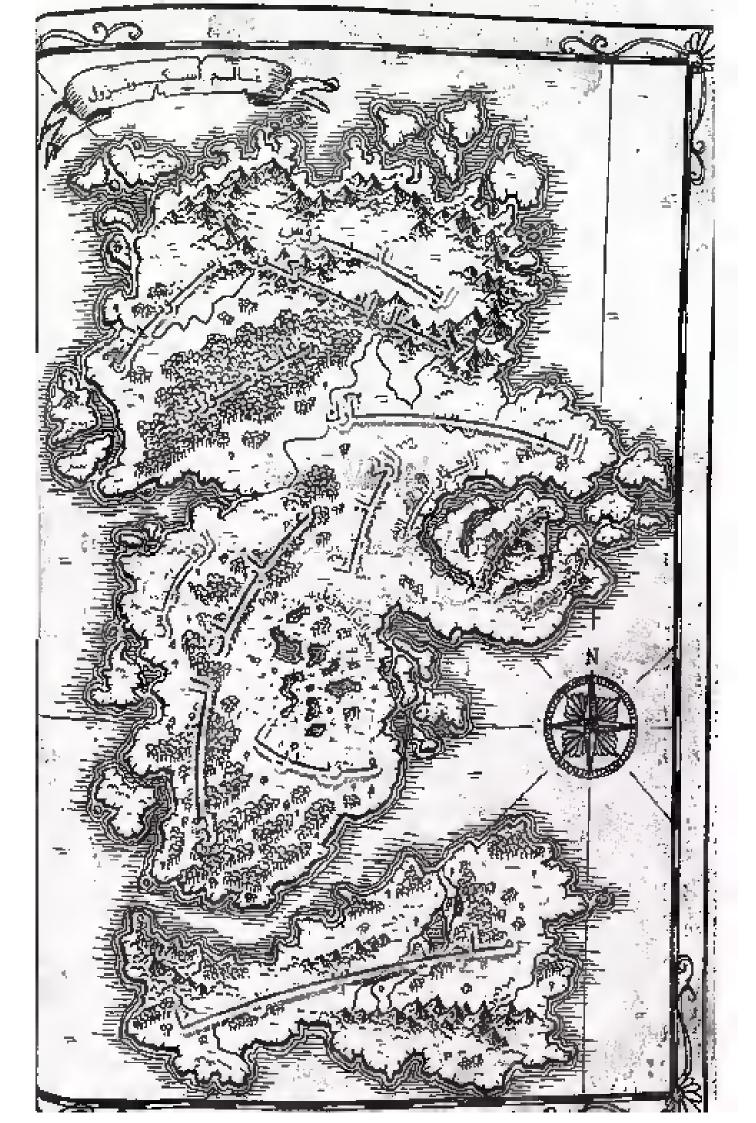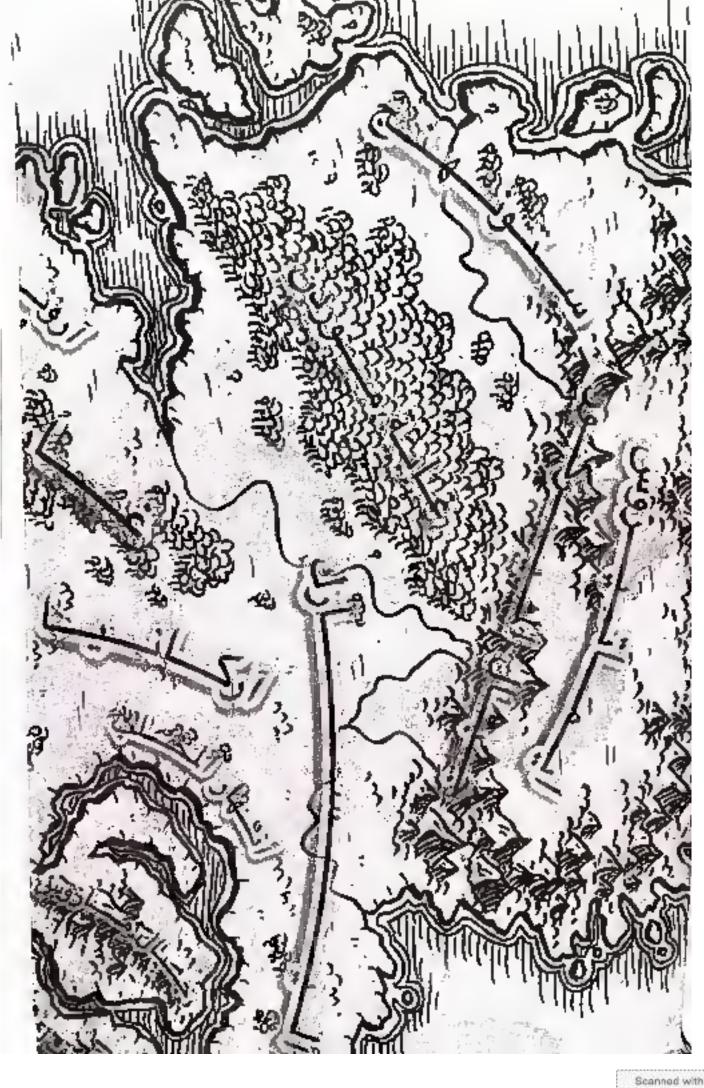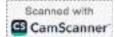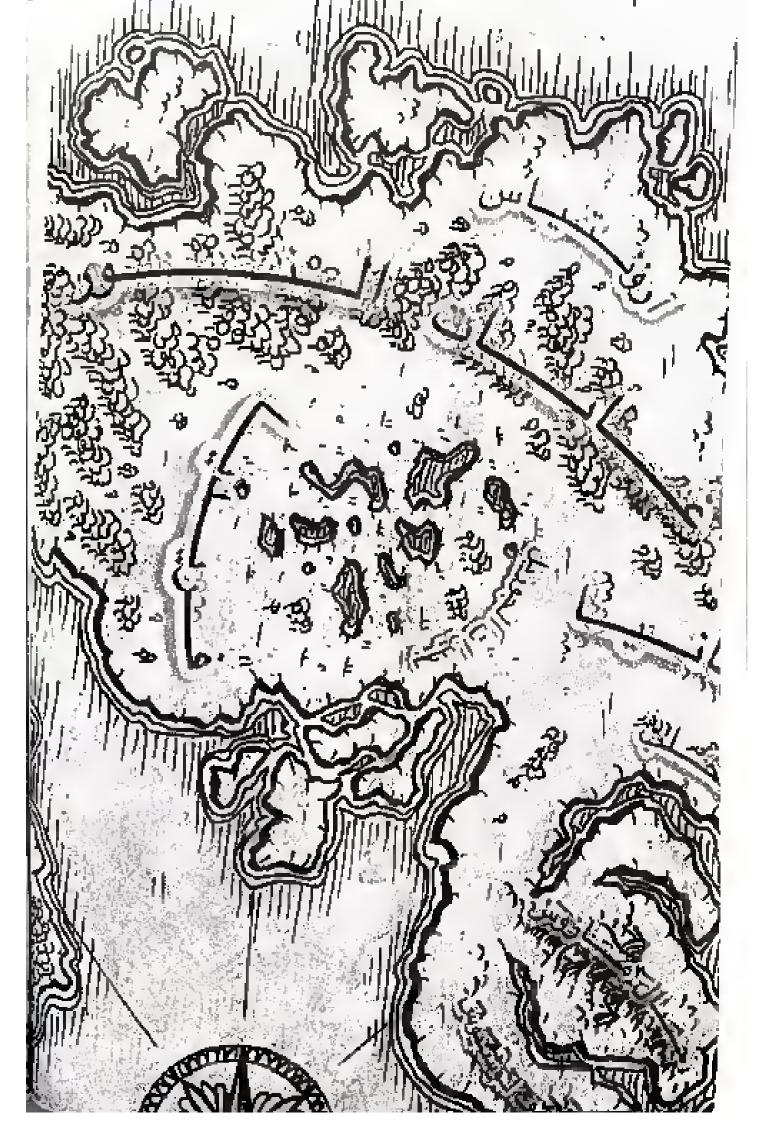
«لقد اختفت جثة آيريس[1]» قال أليكس ناقلاً نظراته بين واروريك وكيارا بتحفظ.

توقفت عن الأكل من كعكة يوم ميلادها، بينما تنهّد واروريك من دون قول شيء، كان زي[2] يستمع إلى محادثتهم من المطبخ أثناء مساعدته لرو في ترتيب لوازم الحفلة التي أقاموها لها، كانت كلمات أليكس صادمة ومفاجئة، فقد كان واروريك يتجاذب أطراف الحديث معها عن الدراسة والامتحانات وأحاديث أخرى خفيفة، لكنه قاطعها فجأة، فنظرت إليه بعينين متسعتين بينما انتظرَ صديقه تفسيره فأكمل مبرراً:

«أعلمَني زي بوجودكَ في مقبرة المملكة صباح الأمس، لذا توقعت أن هذا سبب مجيئك».

التفتتْ إلى واروريك متسائلة: «هل عدتَ إلى المملكة صباح الأمس؟»

١– حارسة كيارا الشخصية.

٢– المارشال زينارد، حارس أليكس الشخصي، كان صديقاً لآيريس.
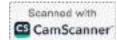
أومأ لها مبتسماً: «أجل»، التفتَ إلى أليكس باستغراب: «لكنني لم أجد أياً منكم، لذا ذهبت لزيارة قبرها لكنني لم أجده كذلك».

صمتَ لوهلة منتظراً السبب وعندما لم يجبه، أعادَ الالتفات بعينيه الزرقاوين إلى كيارا قائلاً: «قابلتُ زي حينها، وأخبرني بأنكم عدتُم إلى ريفر رينش وبأنكِ ستكملين عامكِ التاسع عشر اليوم».

التفتت إلى أليكس بنظرات محبطة خالطَها الغضب، فعلمَ أنها مستاءة لإخفائه كل ذلك عنها، وعندما همَّ بتبرير موقفهِ استدارت فوراً متجنبةً الحديث معه، ووجهت سؤالها إلى زي الذي كان يقترب منهم:

«ماذا حدث لجثة آيريس؟»

نظرَ زي إلى ملكهِ متردداً وعندما أومأ له أجابها: «اختفت بعد الحرب مباشرةً».

شهقت ونظرت إلى أليكس باستنكار: «طوال تلك المدة؟!»

بدت كلماتها للجميع وكأنها تستغرب عدم عثورهم على الجثة كل

ذلك الوقت، لكن أليكس فهمَ أنها تعني إخفاءهُ للأمر لمدة طويلة، وعندما حاولَ التبرير تفادت نظراته مرة أخرى لعدم استعدادها لسماع حجته بعد.

أكملَ زي جاذباً نظرات الجميع له: «حاولنا تتبُّع رائحتها لكننا لم نجد أي أثر، مما يدل على أنها اختفت من مكان تجمع الجثث قبل أن نبدأ بالدفن» نظر إلى وارويك: «ساحر، لا بد أنه استغل الوضع الفوضوي بعد الحرب وقام بأخذها».

أسندَ وارويك ظهره على الكرسي: «إذاً لا بد أن الخاطف ينتمي إلى عشيرة أفيتاز[1]، كونهم الوحيدين الذين بقوا للمساعدة بأمر من والدي».

عارضهُ أليكس: «ليس بالضرورة، لقد كان الوضع فوضوياً وقتها كما قال زي، لم تكن دفاعاتنا مشدّدة لانشغال الجميع، لذا لا نستطيع الجزم بأنه أحد أفراد عشيرة والدك، قد يكون ساحراً من عشيرة أخرى أو ساحراً منشقاً، لا دليل لدينا للوصول للإجابة، كل ما نعلمه هو أنه ساحر».

١- عشيرة وارويك التي انشقَّ عنها.

أخرجت تنهيدة محملة بثقل ما مضى عندما عادت إليها ذكريات الحرب التي حاولت الهرب منها خلال الأشهر الماضية، خفضت بصرها نحو قطعة الكعك متذكرة جثة آيريس وتألمت لعدم معرفتها بأمر اختفائها مبكراً، فقد كانت أحد الأسباب التي ساعدتهم بالفوز.

قال وارويك مغيّراً مجرى حديثهم بعد أن لاحظ تكدُّرها: «لنؤجل هذا الأمر ليوم آخر، لقد أتيتُ اليوم للاحتفال معكِ يا صغيرة».

رفعت نظراتها إليه بينما أكمل: «أريد أن آخذكِ إلى مكان ما».

اتسعت عيناها بحماس: «إلى أين؟»

أجابها: «من الأفضل أن تري بنفسكِ، غيّري ثيابكِ لنذهب».

قالت بتعجب: «سنذهب الآن؟»

وقفَ قائلاً: «أجل» نظرَ باتجاه المطبخ حيث وقفَ رو منشغلاً بالترتيب وقال: «والآن، هناك فتىً يحاول تجنُّبي، لذا أظن أن عليّ التصالح معه».

تتبّعت نظراته ثم ابتسمت بعطف: «لا أظن أنه يتجنّبك للسبب نفسه الذي تفكر فيه».

نظَرَ إليها بعدم فهم ثم تشتّت انتباهه بسبب الخاتم الذي رآه في إصبعها، فقال بعدم تصديق: «هل تزوجتها؟»

توجهت نظراتها إلى خاتمها كذلك، لكن أليكس كان هو من أجابه: «لا، أرادت كيارا انتظار عودتك».

ابتسمَ لها بامتنان، فقالت وهي تبادله ابتسامته: «لن يكون يوماً سعيداً من دونك».

ثم تبددت ابتسامتها متمتمةً بعدم يقينها من أمر ذلك الزواج بعد الآن، توجهت إلى الطابق العلوي لتغيير ثيابها، فوقف أليكس ولحقَ بها بهدوء، شعرت بوجوده خلفها وانتظرت وصولها إلى الطابق العلوي حتى قالت بنبرة جافة:

«لا أريد التحدث معك الآن».

فتوقفَ عن اللحاق بها وحدَّق في الباب الذي أقفلته خلفها برفق،

لكن صوت إغلاقه المنخفض جعلَ جسده يجفل وكأنها قد قامت بصرعه، حدّق فيه لعدة دقائق وهو يشعر أنها أغلقت باباً مختلفاً بينهما، باباً في علاقتهما كان هو السبب في ظهوره.

في الوقت ذاته توجّه زي إلى الخارج ليأخذ الجميع راحتهم في الحديث، بينما قصدَ واروِيك المطبخ، وقفَ أمام رو وطاولة المطبخ تفصل بينهما، لاحظ وجوده فوراً فتركَ ما بيده متنهّداً يفكر في ما عليه قوله، لكن واروِيك سبقه في التحدث بصوت هادئ:

«أظن أنني أدينُ لك باعتذار».

رفعَ رو رأسه بسرعة ناظراً إليه باستغراب: «لماذا تظن أن عليك الاعتذار مني؟»

أجابه: «لعدم الرد على رسائلك».

ابتسم ابتسامة مكسورة: «أتفهّم ما كنت تمرُّ به، ليس عليك أن تعتذر».

نظر إليه بعدم فهم: «إن لم تكن غاضباً فلماذا تقوم بتجنّبي؟»

نظرَ رو إلى يديه في خزيٍ قائلاً: «أنا حقاً سعيد بعودتك».

صمتَ قليلاً بينما انتظره ليكمل بصبر، ثم أردفَ أخيراً: «لقد ساعدتَني بعدة طرق في الماضي، تقبّلتَ عيوبي التي لم يتقبّلها قومي أبداً، وتقبّلتَ أنني سومو[1]، بل قمتَ بتدريبي على استخدام قوة كان من المفترض ألا أملكها، وأنقذتَ حياتي عدة مرات». صمتَ مرة أخرى ثم قال بعد برهة بصوتٍ منخفض متألم: «لكنني لم أستطع مساعدتكَ في لحظات ضعفكَ في المقابل».

ابتسمَ زارويك ابتسامة ممتنة كئيبة، وقد فهم أنه لم يتجنّبه لأنه غاضب، بل لأنه يشعر بالحرج لعدم قدرته على مساندته بعد فقدان أخيه وآيريس، خطا حول الطاولة ليقترب منه، ووضع يده على كتفه مواسياً:

«لكلٍّ منا طريقته الخاصة في التعامل مع حزنه، بالنسبة لي، العزلة تساعدني على السيطرة على العواصف بداخلي، لكن...».

شدَّ قبضته على كتفه فرفع رو نظراته إليه مستعلماً، ليقول بامتنان:

١- هو الهجين الذي يحمل قوتين.
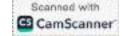
«عندما خسرتُ أخي ماغوس[1] وكالونيس[2]، انعزلتُ لعدة سنوات قبل أن أستطيع العودة إلى ما كنت عليه، ظننت أنني سأكرر الماضي، لكن الرسائل التي كانت تصلني منك بشكل دائم ساعدتني على العودة بطريقة لم أتوقع حدوثها».

قطّب وجهه غير مقتنعٍ بكلامه: «كيف ساعدتكَ رسائلي؟»

جالَ بعينيه حول المنزل مجيباً: «لقد ذكّرتني بمَن بقوا على قيد الحياة، لقد استخدمتَ مُعضِلات الأحياء في تشتيت انتباهي عن الأموات الذين فقدناهم.» أعادَ نظراته إليه: «لذا لم يأخذ الأمر وقتاً طويلاً حتى وجدتُ أنني أنتظر رسائلك، وأتساءل عما قالته آمبر[3] لتفقد كيارا السيطرة، تساءلتُ عن مشاعرك حينها، وعن ردة فعل أليكس حيالَ الأمر، وكيف تصرفت كيارا بعد ذلك، وأثناء انشغالي بتفاصيل ما يحدث معكم، لاحظتُ أن الحزن لم يعد مؤلماً كما كان، وأنني بدأت أشعر برغبة في العودة، ولم أستطع تجاهل تلك المشاعر كثيراً بسبب الرسائل، لذا عدت».

١- مات ماغوس أثناء مهمته للتخلص من كالونيس.

٢- هجينة وقع واريك في حبها، فأرسلت عشيرته جيشاً لقتلها بقيادة ماغوس.

٣- يتيمة شاركت كيارا غرفة الميتم، كما أنها حب رو الأول.

تسللت ابتسامة سعيدة إلى شفتيْ رو، اتسعت تدريجيًا بينما ترقرقت عيناه بدموع الفرحة، فاحتضنه واروِيك وربَّت على كتفيه قائلاً: «روِّح عن نفسك يا رو».

حينها عادَ أليكس إلى الطابق السفلي ولاحظ رو تكدُّره والنظرات التي تبادلها مع واروِيك فاستأذن للذهاب للبحث عن زي، وما أن خرج حتى قال الساحر:

«لم أعهدك هكذا يا أليكس» نظر إليه بعدم فهم فأردف: «لمَ تؤذيها باستمرار وأنت تعلم جيداً أنها لا تحب الأسرار؟»

زفرَ مبرراً: «لو رأيتَ كيف تعكِّر الكوابيس مرقدها لفهمت، لقد أخبرتها أنها لن تتحمل وقع الحرب وتبعاتها، لكنها أصرَّت وتماشيتُ مع رغباتها، لقد كان خطأً فادحاً من طرفي ولن أكرره مرة أخرى».

رقَّت عينا صديقه وتفكَّر في إجابته لبعض الوقت قبل أن يسأل: «لكن ماذا لو كانت تصرفاتكَ هذه تؤذيها أكثر من كوابيسها؟» هزَّ أليكس رأسه وهمَّ بإنكار ذلك، لكنه أضاف سريعاً: «كيارا ليست ضعيفة، الكوابيس أمر طبيعي بعد كل الذي مرت به، ستجتاز أمرها بطريقة أو بأخرى، لكنها لن تجتاز كذبك المستمر».
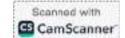
ثم تجاوزهُ ليفكر بما قاله، وخرجَ من المطبخ ليقابل كيارا عند أسفل الدرج آخذاً كفَّها بيده، ولكنه قبل أن ينتقل بها إلى وجهتهِ المقصودة توقف وتمعَّن بملامحها ملاحظاً التغيرات التي طرأت عليها، بدتْ كمن يحمل صراعاً داخلياً سبَّب لها خطوطاً غير مرئية في وجهها.

عيناها البندقيتان فقدتا رونقهما وأصبحتا أعمق وأكثر غموضاً، وكأنَّها تدسُّ ثقلاً خفيّاً خلفها، نظراتها البريئة تراءت خلف ضباب من الذكريات المؤلمة، رموشها الطويلة التي زينت عينيها تحولت إلى ستار يخفي أفكارها.

حاجباها المرسومان كانا مشدودَيْن طوال الوقت وكأنَّ هناك من يطاردها.

صعُب عليه النظر إلى وجهها الذي فقدَ نعومته السابقة، ووَدَّ لو يعانقها حتى تختفي كوابيسها، لكنها قاطعته بسؤالها:

«إلى أين سنذهب؟»

أجابها بشرود: «غابات النور».

سألت بجهل: «وأين تقع تلك تحديداً؟»

تنبّه حينها ونظر إليها باستغراب: «ألم يُرِكِ أليكس الخريطة؟»

رفعتْ كتفها مبررة: «لقد تجنّبنا جميع الموضوعات غير المتصلة بعالم البشر».

هزَّ رأسه بعدم تصديق: «أمر كهذا لا يحتمل التأخير، فقد أصبحتِ جزءاً من ذلك العالم، أقل ما يمكنكِ فعله هو دراسة خريطته تحسُّباً لأي طارئ» أضاف بعدها بعزم: «سأعلّمكِ بنفسي لاحقاً».

أومأت موافقة فنقلها إلى غابات النور.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، ولم تفهم كيارا سبب أخذها إلى ذاك المكان، فالتفتت إليه لتسأله لكنها امتنعت عندما وجدت الحزن غامراً تعابيره، راقبته للحظات ثم مسحت على ذراعه بلطف، استدار نحوها متفاجئاً وكأنه نسيَ لوهلة أنها كانت معه.

ابتسمت بعطف: «هل أنتَ بخير؟»
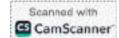
كانت الكذبة في فمه مستعدة للخروج، لكنه تراجعَ عن قراره قبل ن يزفرها، رفعَ شعره المموج بعيداً عن وجهه وأخبرها بالحقيقة: «لا، يس تماماً، لكنني سأكون بخير قريباً».

أعادَ نظراته إلى المساحة العشبية الصغيرة المختبئة بين الأشجار وقال بتنهيدة عميقة: «لقد كانت هذه بقعتنا».

علمتْ فوراً أنه يعني إخوته المتوفّين، فقالت محاولة تبديد حزنه: «لا تبدو كمكان يكفي لصنع المتاعب».

ابتسمَ بشكل خفيف: «لم نصنع المتاعب هنا، كنا نَحيكها فقط، لقد كانت هذه البقعة مقرّنا الخفي حيث مؤامراتنا وأسرارنا».

صمتَ قليلاً ثم قال بنبرة تحمل الكثير من الندم: «لقد أخبرتهم عن كالونيس هنا».

التفت إليها وقد غشيَ ابتسامته ظلّ من الحزن: «ظننتُ أنهم سيتفهمون».

كان قلبه ساحة المعركة لجميع مشاعره المتناقضة، روحه عالقة بين الماضي والحاضر، حبه لعائلته جرح نازف لا يلتئم أبداً، تعود إليه

ذكرياتهم الدافئة وصدى ضحكاتهم بشكل مفاجئ، فيختنق باشتياقه إليهم، ويتساءل إن كان وقوعه في حب كالونيس ذنبه الأعظم، ثم يتذكر شبحها وهي مقتولة، فيتحول الشوق إلى غضب، ثم ينقلب إلى ألم حين يتذكر نحيب والدته لمقتل ماغوس.

كان انشقاقهُ عن عشيرته هو ثأره الوحيد، لكنه شعرَ بوجع ذلك القرار يومياً، ولا يخبو صراعه الداخليّ بتاتاً، لا يستطيع كرههم، ولا يتحمل نسيانهم، ولا يقوى على الغفران لهم، وبين دفاع كالونيس عن نفسها وتنفيذ ماغوس للأوامر، وقفَ وارويك ضائعاً بين الألم والخيبة، حتى أخذ كيارا ورو أسفل جناحه، حينها شعر بوجود مغزىً عميق يحركه ويقود أيامه، لكن إدريفيار قُتل، فعاد إلى عزلته التي كان يعاقب نفسه بها.

يتساءل دائماً: ما كان سيحصل لو أنه لم يقابلها؟ ماذا لو اختار فراقها بنفسه؟ هل كان ماغ ليموت بكل الأحوال؟ وإدريفيار؟ ماذا لو منعهُ عن الانضمام إلى صفوفهم؟ هل كانت إستل لتقتله؟

أزاحَ نظراته عن كيارا ليخفي أحاسيسه الحقيقية، لكنها رأت ومضات منها وتعرفت عليها، شعرت بها من قبل وشعرت بها اليوم

مرة أخرى، وهي عندما تكون ثقتك في موضع خاطئ، وتخيب ظنونك في أقرب الناس إليك.

رأت الضياع والحيرة وتزاحُم الأسئلة خلف عينيه، لكنه حاول بعدها تصنُّع اللامبالاة بنبرة مرحة فعلمت أنه لا يريد التحدث عنهم:

«تعلمت صنع أول تعويذة حماية هنا».

لاحظَ تعابيرها المشفقة عليه، فادَّعى تشتته وانشغاله قائلاً على عجل: «علينا اجتياز البقعة وتسلق التلة خلفها للوصول إلى وجهتنا قبل فوات الأوان».

بدأت حينها باللحاق به عبر المكان السري الخاص بإخوته ثم قامت بالتسلق إلى جانبه.

انزلقت قدمها بعد بضع خطوات وكادت أن تسقط إلى الوراء، تداركت الأمر بسرعة وأكملت صعودها، لكن سرعان ما زلت قدمها مجدداً، تأففت فاسترق النظر إليها وتفادت هي عينيه فوراً، وبعد أن تعثرت مرة ثالثة سألت متذمرة:

«لمَ لا ننتقل إلى فوق التل وحسب؟» لم يستطع حبس ضحكته حينها فرمقته بنظرات مميتة حوّلت ضحكاته إلى قهقهات عالية، فقالت بانزعاج: «ما المضحك؟»

تباطأت ضحكاته حتى تنهّد واضعاً يده على معدته قائلاً: «آه كم اشتقتُ إليكِ أيتها الصغيرة!».

حاولت أن تحافظ على مظهر الاستياء أكثر، لكنها لم تستطع أن تردع ابتسامتها عن الظهور، هزّت رأسها باستسلام بينما مدَّ يده لمساعدتها، تناولتها بامتنان وأكملا تسلُّقها، وبعد وصولهما توجّه إلى إحدى الأشجار الكبيرة وأشارَ إليها بالجلوس عند جذعها، ثم جلسَ بجانبها.

امتزجت ظلمة الليل بوشاح شفاف من اللون الأزرق الناعم الذي يُوحي باستيقاظ الشمس وباقتراب قدومها، بينما انتظرت هي بصبر أن يخبرها عن سبب رحلتهما.

كادت أن تكسر الصمت بسؤالها لولا أن قال:
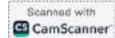
«لا تستخدمي قواكِ إن لم تكوني بحاجتها»، التفتت إليه باستغراب من الموضوع المفاجئ، لكنه أكملَ من دون أن يزيح عينيه عن الأفق: «الانتقال لكل مكان بدلاً من المشي، أو تسخين كوب الشاي بيديكِ عوضاً عن غليه، الطيران لإحضار شيء من الرف العلوي نيابةً عن إحضار السلم، كل هذه التفاصيل الصغيرة التي لا تُلقي لها بالاً ستؤثر على حياتك بطريقتين»

التفتَ إليها رافعاً سبّابته وأردفَ: «أولاً: سيفقد كل شيء رونقه، ككوب الشاي الذي لن يعود لذيذاً كالسابق، فكلما كان الوصول إلى غايتكِ أسهل، قلَّ الاستمتاع بالحصول عليها».

رفعت حاجبيها: «إذًا كان التسلق لتعليمي درساً جديداً؟»

تجاهلَ سؤالها رافعاً إصبعه الأوسط: «والأهم، ستفقدين السيطرة».

تغيرت تعابيرها إلى الجدية، ورغم أنها حاولت إخفاء خوفها إلا أنه رآه في عينيها.

فقدان السيطرة أحد الأمور التي أصبحت تلاحق كوابيسها، فلولا الإبادة التي حدثت في الغابة لما قامت الحرب، وبالرغم من أن الجميع يتجنبون التحدث عن الأمر، إلا أنها تعلم أنها فقدت السيطرة في الحرب عندما ظنت أن رو قد مات.

قد يقولون إن ذلك الموقف هو ما أنهى الحرب أخيراً، لكنها تدرك أنها تركت العنان لقوتها، ولهذا السبب بالتحديد كادت أن تقتل آمبر كذلك قبل عدة أشهر عندما أزعجتها ببضع كلمات، لأنها لم تعد تستطيع قمع غضبها كما كانت في السابق.

في السابق، كانت قواها تسير وفق نظام متزن تقوده هي في تحكم مطلق، توجّهها حيث تريد كأنها امتداد من روحها، لذلك أدركت من البداية أن اضطراب مشاعرها يقود إلى اضطراب ذلك النظام.

وفي العادة، كانت مشاعرها تنصاع إليها كذلك، لكن ليلة إعدامها أحدثت شرخاً في ذلك الدرع المنيع الذي تحيط قلبها به، أما الحرب فقد جعلته معطوباً تماماً، وأصبحت أحاسيسها كنهر جارٍ، يصبُّ خارجها كلما فاض بها أي شعور.

تابعَ مقاطعاً أفكارها: «امتناعكِ عن استخدام القوة التي تملكينها هو قوة بحدّ ذاتها، لقد حافظتِ على تعويذة آبيغايل[1] لثمانية عشر عاماً، لأنكِ منعتها من الخروج، السيطرة هي أحد جوانبكِ المميزة، لذا احذري من استخدام قواكِ بشكل مفرط».

أرادت إخباره بأنها فقدت تلك الميزة، وتسربت سيطرتها عدة مرات بالفعل، وأنها لا تعلم لِمَ لا تستطيع استملاكها كما كانت سابقاً، لكنها في قرارة نفسها تكهّنت بأنه على علم مسبق، بل قد يكون ذلك سبب عودته، وعندما أرادت التحقق وسؤاله استطردَ واقفاً:

«لقد حانَ الوقت».

ساعدها على النهوض، ثم حدّق في الأفق بانتظار أمر ما، وبعد لحظات قصيرة، بدأت خيوط الشمس الرقيقة بشق طريقها إليهما، استنتجت أنه أحضرها لمشاهدة لحظات الشروق، لكنها لم تتوقع أنه شروق من نوع سحري، ففورَ التحام أول شعاع ذهبي بالغابة بدأت بالتلألؤ.

---

١ – خالتها والدة رو التي ألقت عليها تعويذة ربط أبقتها في أمان حتى الثامنة عشرة من عمرها.

تلفّتت بدهشة وأشعة الشمس تتسلل برفق من بين الأشجار ناظرةً إلى الأعشاب التي تشع وكأنها مرصعة بالألماس، الأشجار بجذورها وبأوراقها توهجت ببريق جذاب غير طبيعي ينعكس باتجاهها بشكل خلاب لا يؤذي أعينها، وكأن الغابة تستيقظ من حلم هادئ.

قاطعَ دهشتها موضحاً: «لهذا تسمى بغابات النور».

ثم استدار وراقبها وهي ترى السحر لأول مرة، لمعت عيناها تحت ضوء الغابة الفاتن، فبدت حدقتاها عسليتيِ اللون عوضاً عن لونها القاتم.

عكست تعابيرها ذهولاً نقيّاً طفوليّاً مخالفاً لملامحها التي نضجت منذ آخر لقاء بينهما.

كانت تحاول التقاط جميع التفاصيل، قطرات الندى التي تدلّت من الأوراق كدموع من الياقوت، الضباب الرقيق الذي كان يعانق الأرض بينما اخترقته خيوط ذهبية انعكست من الأشجار.

ورغم صغر شفتيها إلا أنها اتّسعتا بابتسامة بهيّة ناعمة أسعدته.

لحظات خاطفة للأنفاس عايشتها في ساعة إشراق سريعة، لكنها شعرت أنها خارج حدود الزمن، في مكان ينبض بالجمال وبالحياة، ولم تتبدد سعادتها عندما بدأ السّحر بالانحلال والأضواء بالخفوت شيئاً فشيئاً حتى عادت الغابة إلى طبيعتها، وكأنه ترك أثره بداخلها، فقالت بتعجب:

«شروق خلاب!».

أيدها: «أجل، عليكِ رؤية الغروب كذلك، هذا المكان مذهل».

سألت بحماس: «هل هذا يعني أنكَ ستُحضرني مرة أخرى؟»

ابتسمَ لها بحنان وأجابها بصدق: «كلما رغبتِ بذلك» بادلته الابتسامة بامتنان قبل أن يعود إلى طوره قائلاً: «هيا، لنعد قبل أن تفوتكِ حافلة المدرسة التي تحبينها كثيراً».

ضربت كتفه بانزعاج طفيف فضحكَ من الدعابة التي ألقاها.

اتّسعت ابتسامتها لسماع ضحكته التي اشتاقت إليها وإلى مزاحه كذلك رغم تنمّره المتواصل، استدارت لتسبقه بالعودة لكن خطواتها

توقفت عندما توقفت ضحكاته، التفتت إليه باستغراب فوجدته يحدق أمامه بنظرات جادة، تتبّعتها حتى وقعت عيناها على ساحر ظهرَ أمامهما فجأة.

كان يواجه الشمس التي أشرقت، وقالَ بامتعاض بدون أن ينتبه إلى وجودهما خلفه:

«تباً، لقد تأخرت!».

وضعَ وارويك يدهُ على ذراعها مستعداً لدفعها خلفه عندما لاحظ كلاهما أنه لم يكن ساحراً نقياً، كان سحره الأسود منعكساً على هالته بشكل واضح، مما جعلها تتأهب للهجوم، فاستقامَ الساحر في وقفته بعد أن كان مسترخياً لشعوره بقوتها التي استحضرتها، واستدار ببطء كما لو أنه لا يريد التأكد من هوية من يقف خلفه.

وقعت عيناه على وارويك أولاً، فارتفعَ حاجباه حين تعرّف على ابن عشيرة أفيتاز، ثم نظرَ إلى كيارا ليشحب وجهه فوراً.

رفع يديه ببطء وكأنه يحاول تهدئة حيوان ضارٍ.
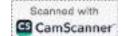
قال بهدوء لكن الخوف كان واضحاً في نبرة صوته:

«لقد أتيتُ لرؤية الشروق فقط، سأذهب، لا أريد أية مشكلات».

كانت نظراته مثبتة عليها وحدها، نظرات تحمل رعباً لم تفهمه.

حدقت فيه بتوجُّس للحظة، لكن وارويك أومأ له قائلاً بنبرة حازمة:

«اذهب».

أومأ الساحر لهما بامتنان ثم اختفى على الفور، التفتا بعضهما إلى بعض بصمت، وبينما بدت كمَن يحاول حل مسألة معقدة كان هو رافعاً حاجبه بانبهار.

لفَّ ذراعه حول كتفيها وقادها إلى الهبوط من التل والأسئلة تتراكم داخل رأسها، وفورَ وصولهما إلى البقعة وسط الأشجار فتحت فمها لطرحها لكن صوت العنقي داخلها استوقفها محذراً:

«احذري، لستما وحدكما».

نظرت إلى واروِيك لتحذيره لكنه اعتدلَ في وقفته مسبقاً متنبّهاً إلى وجود مخلوق قريب.

كان ينظر إلى بقعة معينة وسط الأشجار، فالتفتت متفحّصة ما حولها فرأت بالفعل هالة باهتة غريبة تقترب منهما ببطء، كما لو أن صاحبها يتربص بهما، مضت ثوانٍ بطيئة وسطَ ارتيابها وصوت العنقي داخل رأسها يحذّر باستمرار، ثم ظهرت من بين الأشجار كرة فرو ضخمة ذات لون كحليّ داكن يكاد يبدو أسودَ لولا أشعة الشمس المتسربة.

توسطت ذلك الفراء عينان برتقاليتان شاخصتان باتجاهها.

ذئب.

ليس ذئباً عاديّاً، بل ذئبٌ ضخمٌ للغاية، كان واقفاً على بعد خطوات كثيرة عنهما.

ومع ذلك حنى رأسه قليلاً ليتمكّن من النظر إليها لصغر حجمها مقارنة به، وقبل أن تستطيع تدارك رهبتها ظهر ذئب آخر من خلفه، أبيض كالثلج بعينين رماديتين مصوّبتين بثبات باتجاه واروِيك وحده.

مد واريك يده إليها وحاول سحبها لتقف خلفه، لكنها أبتِ الاحتماء به، فقال محذراً:

«كيارا!»

لم تكن تحذيراته ضرورية، فقد استنتجت نوع الذئبين رغم عدم تعرُّفها على حالتها.

كان الحجم الهائل دليلاً كافياً، لكن النظرات التي تحمل أحاسيسَ لا تستطيع الحيوانات أن تشعر بها أعلمتْها فوراً أن ما أمامها ليسا ذئبين عاديين، بل أنهما مستذئبان.

هجوم
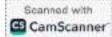
حلق المستذئبان بهما بدون كلل.

اختلفت النظرات المتجهة إليها عن تلك التي انصبَّت على واروريك، فقد كانا يرمقانها بحذر وكأنهما يحاولان معرفة تصنيفها في قائمتهما، بينما كانت نظراتهما إلى واروريك غاضبة.

ينظران إليه شزراً...

قال الصوت داخل رأسها محذراً:

«ابقي متيقّظة».

كانت متنبِّهة مسبقاً، فقد كانت واعية لسبب إبقاء الذئبين نظراتهما مثبتة باتجاهها.

كانت تلك إحدى القوى التي تميّز بها المستذئبون.

قرأت في كتاب فانكا[1] للمستذئبين أن نظراتهم تُفقد السَّحرة القوة على الاختفاء أو الانتقال.

١- الثعلب ذو الأذيال التسعة الذي أهداها الكتب في أعياد ميلادها.

وبينما كانت تحاول استرجاع ما قرأته عنهم، زمجرَ الذئب الكحليّ ناظراً إلى صديقها، ثم جاراهُ الذئب الأبيض ناظراً إليها مصدراً زمجرة أخرى، لكن زمجرتهُ اختلفت عن الآخر، كانت نبرتها مهيبة، منخفضة لكن رزينة، جعلت القشعريرة تسري في جسدها، وأعلمتها أن الذئب الأبيض أخطر من مرافقهِ بكثير، وأيّاً كانت المحادثة التي تدور بينهما، فلم تكن مبشرة بالخير.

كانت هالاتهما مروعة، رغم أنها لم ترَ هالة مستذئب قط، إلا أنها كانت واثقة من أن ما تراه ليس اعتيادياً، كانت هالة الذئب الكحليّ متأججة وهائجة، وكأنها في حالة هجومية دائمة، بينما كانت خاصّة الأبيض انسيابية وهادئة، لكنها لم تمثل السلام أبداً، بل إنها أقرب إلى الموت، ساكنة كمحيط عميق يسحبك إلى الأسفل بصمت ويقتلك ببطء، كأفعى تنتظر بهدوء اقتراب فريستها للانقضاض عليها.

مما جعل الصوت داخلها يكرر تحذيراته.

في الوقت ذاته الذي بدأت فيه الطيور حولها بالتجمع، وراحت

تزقزق وتغرد للأذن العادية، لكن بالنسبة إلى كيارا كانت مشابهة لأجراس الإنذار، مما جعلها تصاب بالتوتر والتشتت، فاعتدلت في وقفتها استعداداً لما سيحدث.

ولكن فجأة...

تحولت أصوات الطيور إلى أصوات طبول الحرب، وعادت بها ذكرياتها إلى مكان لم تعد إليه منذ خمسة أشهر.

تذكرت صوت العنقي حينها وهو يخبرها بضرورة انتهاز الفرصة والهجوم على إستل[1]، وتذكرت تردّدها الذي كان بسبب موت ليون القاسي، لذلك لم تفكر كثيراً هذه المرة ولم تتأخر، بل استدعت النار إلى يديها فوراً، استدعاءً لم يكن للتحذير، بل للهجوم الذي عجزت عن تنفيذه في الماضي، كان هجوماً لم يكن للمستذئبينِ يدٌ في أحداثهِ، بل لإستل التي زارت كوابيسها بلا انقطاع.

قذفت بكرتها النارية باتجاه الذئب الأبيض، ورغم أنها سريعة إلا أن

١- العجوز التي اختطفت كيارا وأعدمتها.

قلة خبرتها كانت عدوها، مما جعل الذئب الأبيض يتجنَّبها فوراً، وفي تلك اللحظة التفتَ الذئب الكحليّ ليطمئن عليه، فاستغل واريك تشتُّتها وابتعاد نظراتها، وبسرعة أمسكَ يدها منتقلاً إلى باحة منزل أليكس في لمح البصر.

انتشلت يدها ما أن وصلا وصاحت بغضب: «لِمَ هربنا؟»

كان غضبه مماثلاً عندما قال: «هل فقدتِ عقلك؟ لِمَ قمتِ بالهجوم؟»

تبدَّد اهتياجها أمام سخطهِ الذي فاجأها، فلم يكن من النوع الذي يُستفز بسهولة مما جعلها تسأله بعدم فهم:

«هل هما صديقاكَ؟»

ضحكَ ضحكة لم تدل على سعادته أبداً، بل ضحكة ساخرة منفعلة: «لماذا تقومين بالهجوم بدون سبب في حين أنكِ لا تعلمين من هما؟»

شدت على قبضتها محاولةً تمالك أعصابها، حينها خرجَ أليكس الى الباحة بعد أن سمعَ أصواتها، واقتربَ بقلق قائلاً:

«ما الأمر؟»

التفتت إليه بحنق وأجابت: «حاول مستذئبانِ مهاجمتنا فقرَّر وارويك الهرب خوفاً عوضاً عن الهجوم».

«خوف؟» قال وارويك باستهزاء، لكنها لاحظت اشمئزازه ولم تعلم إن كان مشمئزّاً منها أم ممَّا تقول:

«يبدو أن خمسة الأشهر الماضية أنستكِ من أكون».

سألت بنفاد صبر: «لماذا لم تهاجم معي إذاً؟»

حدَّق فيها بعدم تصديق ثم التفتَ إلى أليكس متسائلاً بعينيه عن السبب الذي غيَّرها إلى هذه الدرجة، لكنه كان منشغلاً بتفحُّصها باحثاً عن أي إصابات، فأخذَ نفساً عميقاً ثم أعادَ نظراته إليها مجيباً:

«لم أهجم لأنني أعلم مدى القوة التي أملكها وكمية الأذى التي تستطيع هذه القوة أن تسببها».

استرخت أكتافها المشدودة حين أدركت أنها فقدت السيطرة مرة أخرى، بل أصبح مفهوم السيطرة غريباً بالنسبة إليها، وتغيرت طبيعتها إلى شيءٍ آخر مختلف، شعرت بالعار لما آلت إليه قوتها، بعد

أن كانت تلك إحدى خصالها الباهرة بالنسبة إلى واروبك، باتت الآن هائجة بدون قيود.

نظر إلى أليكس منتظراً تدخُّله، لكنه بقيَ صامتاً مما أعلمهُ أن هذه الحالة ليست جديدة، بل اعتادوا عليها بالفعل.

كما أن صديقه نظر إليه وكأن عينيه تقولان:

(هل فهمتَ الآن لماذا أخفي عليها بعض الأمور؟)

عقدَ الساحر حاجبيه وتنهّدَ مبدياً غضبه الذي لم يكن إلا قلقاً عليها.

رفعَ يده ليربّت على كتفها لكنها تفادته متوجهةً إلى الداخل، وصعدت إلى غرفتها ثم اختبأت في دورة المياه بأنفاس متضاربة تعكس قوتها التي لا تعلم كيف تبقيها راكدة كالسابق.

لم تعلم كم بقيت في مكانها لكنها عندما سمعت صوتَ المنبه الذي يوقظها عادةً للذهاب إلى المدرسة، علمت أن عليها التحرك، فبدأت بأخذ حمام بارد هدأت بعده قليلاً.

خرجت ووجدت أن أليكس قد وضع لها ثياباً فوق السرير، وبعد أن ارتدتها وبدأت بتسريح شعرها البني الطويل دخلَ الغرفة.

التقتْ أعينهما في المرآة وتبادلا النظرات لبرهة قبل أن تعيد تركيزها على مهمتها.

اقتربَ منها بهدوء فقالت بحزم: «ما زلت غير راغبة بالتحدث معك».

تابعَ اقترابه حتى وقف خلفها مباشرةً.

عقدَ يديه خلف ظهره ثم قال: «سأتحدث أنا إذاً».

تجاهلته مكملةً تسريحَ شعرها لكنه جذب انتباهها حين قال: «المستذئبان هما كاستيل وكاسيان، قائدا مملكة آرونتياس».

صراع

وضعت الفرشاة واستدارت بسرعة رافعة رأسها ونظرت إليه مصدومة:

«هل قمتُ بمهاجمة قائديْ مملكة آرونتياس؟»

لاحظَ وجنتيها المحمرّتين، فعلمَ أنها كانت تبكي أثناء استحمامها.

مسحَ بظهر كفّه وجنتها برقة وهو يقول:

«من الجيد أنكِ لم تتمكني من إصابتهما».

وضع يديه على كتفيها وأدارها باتجاه المرآة، ثم التقط الفرشاة وبدأ بتسريح شعرها الناعم مكملاً: «لقد كانت غابات النور ملكاً للمستذئبين، لكن السحرة استولوا عليها بعد أن سقطت مملكتهم، ولم يتمكن المستذئبون من استرجاعها حتى أتى والد كاستيل وكاسيان، وطالب بما هو ملك لبني جنسه، علمَ والد وارويك أنها مجرد مسألة وقت حتى يتمكن من فعل ذلك فقامَ بقتله غدراً».

رفعت نظراتها والتقت أعينهما خلال المرآة حين أردف: «لقد كان غضب وارويك نابعاً من خوفه عليكِ، فهناك ثأر دموي بين العائلتين، ولم يكن أي منهما ليتوقف حتى يتمكنا من قتله».

كان الخوف بادياً على تعابير وجهها حين أدركت أن واريك لم يهرب من هجوم عشوائي، بل أنقذها من عراك مميت.

لكنها رفعت أنفها بتعنُّت قائلة:

«لقد توقفت عن الهرب منذ وقت طويل».

ضاقت عيناه قليلاً ثم أكمل مخفياً انزعاجه من عنادها: «كاستيل وكاسيان مستذئبان لا أحد يريد التعرض لهما، ناهيكِ عن شخص لا يملك أدنى فكرة عن قتال المستذئبين، أنا أعترف بأن لديكِ قوة كبيرة، لكن خبرتك في استخدامها محدودة للغاية، لو لم ينقذ واريك الموقف لكنتِ عقبة صغيرة في طريقهما للأخذ بثأرهما من عشيرة أفيتاز، فتلكِ لن يشكل أدنى صعوبة بالنسبة إليهما».

لكنها لم تستطع التنازل عن موقفها فقالت مكابرة: «وهل تظن أنني سأترك واريك ليقاتل وحده؟ لم أكن لأهرب ولو كان مصيري الموت».

توقفت يداه عن تسريح شعرها متجمداً في مكانه للحظات، أعاد

الفرشاة إلى مكانها بهدوء قبل أن يضع يديه على كتفيها ناظراً إلى عينيها في المرآة، ثم قال ببرود تعلم جيداً أنه يعكس غضبه:

«قتلكِ سيقيم حرباً جديدة، لكنها هذه المرة ستكون مع آرونتياس، ألا تدركين مكانتكِ بعد؟»

شحبَ وجهها لمجرد ذكر حرب جديدة، لكنه ضغط على كتفيها بخفة لتدرك مدى جدية الأمر حين أضاف: «أنتِ لم تعودي الفتاة اليتيمة التي لا يهتم لأمرها أحد، أنتِ الآن ملكة، تصرَّفي وفقاً لذلك، متى ستتوقفين عن اتخاذ القرارات الطائشة؟»

بالرغم من أنه أراد إخافتها إلا أنه ندم فور شعوره بجسدها المرتعش، فرقَّت تعابيره فوراً وأنزلَ يديه عن كتفيها إلى ذراعيها ليمسّدهما، لكنها وقفت على عجل والتقطت ربطة شعر ثم قامت بلفّ شعرها بها بطريقة عشوائية قبل أن تلتفت إليه.

شعرت أنها تراه لأول مرة، فقد رأت قلبه وجوهره سابقاً، لكنه عندما غضب ووجَّه إليها الكلمات الجارحة، رأت هيئته الخارجية فقط.

لم تكن ترى ما خلف عينيه العسليتين عادةً، لكنها الآن رأت كم هما عميقتان وحادّتان كما لو أنهما تستطيعان اختراق جميع حواجزها.

كرهت نظراته الصارمة والجادة التي رمقها بها، تلك النظرات التي أشعرتها بسذاجتها وبطيشها الذي تحدَّث عنه للتو.

وفي الوقت ذاته، كانت ملامحه هي سبب انجذابها إليه في البداية، شعرهُ الكثيف والداكن كحلكة أسراره كان متماشياً مع ثيابه السوداء دائماً وتعابيره الغامضة.

حاجباه الكثيفان بشكل حاد وأنفه المستقيم إضافةً إلى شفتيه النحيلتين، جميعها عبّرت عن قوة داخلية هائلة وإرادة صلبة، لكنه يحمل تعابيرَ هادئة تجعل كل ما حوله يبدو كتفاصيل تافهة.

ولم تستطع ألا تشعر أنها جزء من تلك التفاصيل في بعض الأحيان، فقالت بغصة حاولت إخفاءها:

«سأتوقف عن التصرف بطيش عندما تتوقف أنت عن إخفاء الأسرار علي».

فتحَ فمه للتحدث لكنها لم تترك له المجال: «لا تتصرف وكأنك لا تخطئ أبداً، فلم تعد عنقيّاً، أنتَ مجرد مصاص دماء الآن».

اكفهرَّ وجهه وعاد خطوة إلى الوراء وكأن كلماتها دفعته جسديّاً، لكنها لم تسمح للندم بأن يستولي عليها، فخرجت من الغرفة وتوجهت إلى المدرسة بدون انتظار أحد.

ظنَّت أنَّ غضبها سيلازمها لوقت طويل، لكن نظراته المصدومة عاودت الظهور في أفكارها.

قامت بدفعها خارج رأسها في كل مرة وتمسكت بكبريائها أكثر، ثم استسلمت عندما أدركت أن أليكس تغيَّب عن المدرسة كليّاً ذلك اليوم، فبدأ غضبها يتبدد تدريجيّاً.

ومع مضي الوقت أكثر، بدأت مشاعرها تتبدل من غضب إلى حسرة، ومن كبرياء إلى ندم.

ومع كل ساعة تمضي تغرق في كراهية نفسها أكثر والحال الذي وصلت إليه.

أرادت العودة إلى كيارا التي ظنت وقتها أنها ضعيفة، لكنها كانت متمسكة برباطة جأشها دائماً، لكنها لم تعلم طريق العودة.

حاولت المقاومة لبقية اليوم، أو التظاهر بصمودها.

كان جسدها موجوداً في المدرسة لكنها لم تسمع أي كلمة قيلت في دروسها، والمقعد الخالي بجانبها دليل على إخفاقها المتواصل.

وعندما خانتها عيناها وترقرقتا بالدموع...

استأذنت للخروج إلى دورة المياه.

أخذت وقتها بالتجول في ممرات المدرسة في محاولة لتهدئة مشاعرها التي أصبحت تستثار بسهولة كقوتها.

توقفت عندما دخلت إلى دورة المياه لملاحظتها وجود هالة منبعثة من أحد المراحيض، هالة خلابة علمت فوراً أنها تعود لتاشا[1].

تأملت تألقها لبرهة، ثم توجهت إلى مرحاض في آخر الصف، وبعد أن انتهت ذهبت لغسل يديها بينما بقيت تاشا في مكانها بدون

١- الطالبة الجديدة الغريبو (حلة الماضي).

حراك مما جعلها تقول بصوت مرتفع:

«هل أنتِ بخير؟»

قالت تاشا بارتباك: «مـ..ماذا؟» ثم تداركت نفسها بسرعة: «أجل، أنا بخير».

أكملت غسل يديها مستنتجة: «تختبئين مني إذاً».

لم تجبها لبعض الوقت، ثم فتحت قفل الباب وخرجت من مخبئها ببطء، التفتت كيارا ونظرت إليها متأملةً عينيها الخضراوين البراقتين، في تناسق خلاب مع بشرتها ذات اللون البني الفاتح، والنمش الخفيف فوق وجنتيها وأنفها، على عكس شعرها الأسود الأجعد الغجري عادةً، لكنها الآن قامت بربطه فوق رأسها بشكل كعكة صغيرة تاركةً بعض الخصل منسدلة على وجهها مما جعلها تبدو كالصورة النمطية للطالبة المدرسية، على عكس كيارا التي تبدو أكبر من عمرها بسبب كل ما مرت به.

لاحظت تاشا عينيها المحمرتين بسبب البكاء فسألت: «هل أنتِ بخير؟»

ابتسمت ابتسامة مهمومة، ثم أومأت وأشاحت بوجهها لتغسله، بينما راقبتها الغريبو من مكانها بدون حراك، ولم تتجه إلى المغسلة حتى انتهت كيارا وتوجهت إلى الخارج.
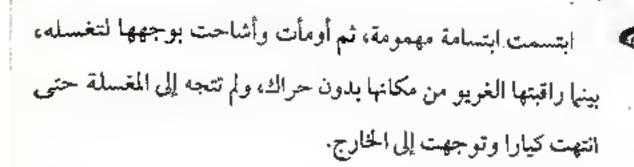
بدأت بالتوجه إلى صفها قبل أن تراودها فكرة مفاجئة جعلتها تتوقف وتعود أدراجها، دخلت إلى دورة المياه واقتربت من تاشا رافعةً يدها في إشارة تبدو لشخص عادي وكأنها تريد مصافحتها، نظرت إليها الغريبو بتوجُّس حاولت إخفاءه بفشل واضح، وفهمت أنها تعرض لها ماضيها مما جعلها ترتاب منها أكثر وتنظر إليها بعدم فهم، وعندما أبت أخذ يدها قالت كيارا مفسرة:

«ألا يرى الغريبو الماضي من خلال الاتصال المباشر للبشرة؟»

عقدت حاجبيها: «بلى، لكن لا أحد يعرض ماضيه بلا مقابل».

ابتسمت محاولة أن تبدي غرورها، لكنها بدت ابتسامة مكسورة لا أكثر: «أنا لستُ أي أحد».

لم تجبها أو تأخذ يدها فسألت: «لم أنتِ خائفة على أية حال، أليس الغريبو محميين من مملكة الجن؟»

ارتبكت وقالت بسرعة: «صحيح، أنا محمية!» تجهمت كيارا باستغراب فأكملت موضحة: «لقد رأيت لمحات من الحرب في ماضي بعض السحرة الذين حضروها، لقد رأيت ما فعلتِه بتلك الساحرة والسرعة التي قمتِ باستخدامها لقتلها، أنا فقط لا أريد مواجهة المصير ذاته، ولا أظن أن الجن سيأتون لإنقاذي في الوقت المناسب».

أنزلت يدها أخيراً بعد أن شعرت بثقل الماضي على أكتافها، شعرت بغصة تعتصر حنجرتها عندما تذكرت الدماء المتناثرة في كل مكان، والجثث التي كانوا يخطون من فوقها وكأن أصحابها لم يكونوا أرواحاً تتنفس قبلها، حمحمت منظفة حنجرتها، تحاول منع نفسها من البكاء ثم قالت بهدوء:

«أريد أن يتذكرني التاريخ».

رفعت تاشا حاجبيها وقالت: «لقد سجّل التاريخ اسمكِ في اللحظة التي ولدتِ فيها، ستتناقل الأجيال القادمة قصتك بالفعل، لا حاجة لـ..»

قاطعتها بشكل مفاجئ: «لا! أريد أن يسجل التاريخ قصتي الحقيقية، لا أريدهم أن يذكروني كالهجينة التي بدأت حرباً كبيرة، بل كالفتاة اليتيمة التي لم تطلب أيّاً مما حدث» هربت دمعة إلى وجنتها فخفضت رأسها متجنبة نظرات تاشا المتفاجئة وقالت بهمس: «أنا لم أرد قتل إستل، لم أرد الانتقام منها، لكنها واصلت سعيها لقتلي وقامت بأذية الجميع».

انفلتت شهقة من بين شفتيها، ولم تعلم إن كانت تحدّث تاشا أم تحدّث نفسها حين أردفت: «لم أرد أن أصبح بهذا الشكل، لا أعلم متى أصبحت أنا مصدر أذيتهم».

رفعت تاشا يدها وقامت بمسح وجنتها من الدموع، أجفلت كيارا من لمستها المفاجئة لشعورها بوجود كيان دخيل في رأسها، كانت تعلم أن الغريو يرون الماضي رؤية موضوعية تختلف عن رؤية العنق، فالعنق يقومون بمعايشة الماضي كما عايشه حامله للوصول إلى حكمهم العادل، أما الغريو فيرونه من دون الشعور به ليتمّ تسجيل التاريخ بطريقة سليمة، لذلك أرادت أن ترى ردة فعلها، أرادت أن تتحقق من

أنها لا تبالغ في مشاعرها، تمنت أن تجدها غاضبة مثلها لكل ما حدث، لكنها عندما رفعت نظراتها رأت ما لم تتوقعه.

رأت الشفقة...

حياة كيارا قبل حرقها لم تكن حياة سعيدة، لكنها لم تكن محفوفة بالمخاطر كذلك، لذلك تشتاق إلى تلك الأيام أحياناً، تشتاق إلى النوم بأمان، بلا خوف مما قد يأتي في اليوم التالي، تشتاق إلى كابوس فانكا الذي لم يكن كابوساً قط مقارنة بالجديد الذي يؤرقها الآن، وبعد أن شعرت بالاحتراق الحقيقي ليلة إعدامها بدأت تشتاق إلى إحساس الاحتراق الذي كان يعتريها كل سنة قبل ذلك.

كانت شفقة الغريو في مكانها الصحيح، فقد كانت كيارا تشتاق إلى معاناتها القديمة لأنها لا تُقارن بالجديدة، بدون أن تدرك أنها تقاسي في كلتا الحالتين، وأنها لم تذق طعم السلام الحقيقي قط.

بعدها تبدلت تعابير تاشا إلى أخرى مصدومة، ثم عقدت حاجبيها وكأنها ترى أمراً كريهاً، فعلمت أنها ترى ليلة إعدامها، ولسبب ما، رؤية الخوف في تعابيرها أعادت إليها غضبها النابع من القهر من الطغيان الذي تعرضت له.

سحبت تاشا يدها بهدوء، ثم اقتربت بشكل مفاجئ واحتضنتها بدفء، وقالت بصوت حنون حكيم ذكرها بتريشا[1]:

«أنتِ تعيشين في ظلمة الماضي، ولكن لا تقلقي، فعندما يحين الوقت المناسب، ستسطعين كالقمر وسط العتمة».

١ - الممرضة الجنية التي اعتنت بكيارا في الميتم مدعيةً أنها بشرية.

وداع

غادرت كيارا المدرسة متجهةً إلى البقعة التي يتجمعون فيها عادة قبل أن ينتقلوا إلى المنزل، انتظرت للحظات قبل أن تتذكر أن أليكس تغيب بسببها، شعرت بالغصة مرة أخرى فقررت المشي عوضاً عن الانتقال حتى تستطيع السيطرة على مشاعرها متذكرة كلمات وارويك بالحد من استعمال قوتها.

وبعد عدة خطوات سمعت صوت رو من خلفها منادياً:

«كيارا! انتظريني».

التفتت وراقبته يقترب منها قائلاً: «لنعد معاً».

سألت باستغراب: «ماذا عن آمبر؟»

كان رو يوصلها إلى الميتم يومياً لكن كيارا فهمت قبل أن يجيبها، فأثناء اقترابه انتبهت إلى تعابير وجهه المنهكة، وبدا مثقلَ الكاهل بالهموم حين أجاب:

«لقد تعاركنا».
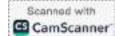
أرادت تذكيره بأنها تعاركا في اليوم السابق كذلك، لكنها فضلت الانشغال بعلاقتها مع أليكس وحل مشكلاتها قبل التطفل على مشكلات الآخرين.

توقّف بجانبها فمسحت على ذراعه بلطف قائلة:

«هل أنت بخير؟ تبدو متعباً».

أخذ نفساً عميقاً ثم أخرجه متنهداً: «أنا... في حيرة من أمري فقط».

ابتسمت بكآبة قبل أن تقول متهكمة: «وأنا كذلك».

بادلها الابتسامة الحزينة رغم أنَّ كليهما لم يشعرا بأي رغبة في الابتسام حينها، ثم قال: «هل نعود مشياً إلى المنزل؟»

أومأت مجيبة: «أجل، أودُّ ذلك».

بدأا التوجُّه إلى المنزل في خطوات بطيئة وكأنهما يتنزهان على الشاطئ، كل منهما كان واضعاً يديه في جيبي معطفه، يتأملان الطيور في السماء تارة والطريق أمامهما تارة أخرى.

وحين كانت تنظر إلى الحصى التي تدوس عليها في كل خطوة وغارقة في أفكارها، قال:

«سمعت عن هجوم اليوم من واروِيك، لا بد أن رؤية كاستيل وكاسيان أصابتكِ بالخوف».

لم تشعر بأنها قادرة على الكذب فقالت بصراحة: «هالتهما وحدها أصابتني بالقشعريرة».

زفرَ مؤيداً: «بالتأكيد هي كذلك، فهما طفرة في عالمنا، لا وجود لمستذئبين مثلهما».

نظرت إليه متسائلة: «ما الذي تعنيه بطفرة؟»

رمقها بتعجب للحظة قبل أن يدرك أنها جاهلة تماماً لقصتهما، فشرحَ لها: «كما تعلمين المستذئبون يتكاثرون بالسم الموجود أسفل أظافرهم، أما كاستيل وكاسيان فلم يتم تحويلهما، بل وُلدا من أم وأب مستذئبين، لذا يقال إنهما طفرة».

توقفت عن المشي وتوقّف معها، حدقت فيه بذهول: «هل هما الوحيدان؟»

بدأ بمتابعة سيره فلحقته بشرود، تتساءل عن قوة المستذئبين الفريدة، وما تعنيه ولادتهما.

تذكرت قول أليكس بأنَّ المهجَّنين هم من يتكاثرون بطريقة مختلفة عن بقية بني جنسهم، كما حصل لكاستيل وكاسيان تماماً، فتساءلت بصوت منخفض:

«هل يجعل ذلك منهما هجينين؟»

ظنَّ رو أنها توجّه سؤالها إليه فأجاب: «لا أحد يعلم كيف يصنّفهما، فهما أقوى بني جنسهما وأنقاهم دماً رغم ولادتهما الغريبة».

عادت إلى تأملها للطريق سارحة بجميع أسئلتها، وعندما قرَّرت سؤال أليكس لعلمها أنه يحمل جميع الإجابات، تذكرت عراكها معه، فعادت غيمة الكآبة للتخييم فوق رأسها.

«أريد استشارتك في أمر ما» قال رو فالتفتت إليه ببطء ساحبةً نفسها من مستنقع أفكارها قبل أن تجيب:

«ما الأمر؟»

تردَّد قليلاً وبقيَ صامتاً لوهلة بينما انتظرته بصبر حتى قال بتوجُّس: «لقد تلقيتُ دعوة من أبناء الغراب».

توقفت عن المشي مرة أخرى واستدارت إليه بكامل جسدها بتعابير متفاجئة متهللة: «حقّاً؟»

عقدَ حاجبيه باستغراب: «لَم أنتِ سعيدة؟»

شاركتهُ استغرابه وتعابيره: «لم أنت حزين؟»

حدَّق فيها بحيرة، ثم أغمضَ عينيه وحكَّ مؤخرة رأسه بامتعاض: «لا أعلم، أخبرتكِ أنني في حيرة من أمري».

سألت بعدم فهم: «لكن لماذا؟ أبناء الغراب هم العائلة التي لطالما تمنيتَ الحصول عليها، والآن قاموا بدعوتك، فلِمَ أنت محتار؟»

قال مبرراً: «لقد كنتُ سعيداً عندما تلقيتُ الخبر للمرة الأولى، لكنني عندما أخبرتُ آمبر بالأمر انفعلت على غير عادتها، وأخبرتني بألا أذهب الآن، ثم رفضت إخباري بالسبب مما أفقدني أعصابي».

«أهذا تعارككُما؟» سألته فاوماً بصمت، فكرت قليلاً ثم قالت بحيرة مشابهة له: «لكن آمبر لا تنفعل بسرعة».

تنهّد بتعب: «ذلك صحيح».

رفعت كتفيها مبررة: «لا بدّ أن لها أسبابها، ولا بدّ أن أسبابها مقنعة».

ابتسمَ رو مستنكراً قبل أن يقول مداعباً: «كيارا! هل تدافعين عن آمبر؟»

هزت رأسها مبتسمة واستدارت لتكمل طريقها: «لا تتعوّد على الأمر، أنا منهكة اليوم فقط».

تبعها ضاحكاً حتى أصبح محاذياً لها وبعد لحظات سألته: «ما هو قرارك؟»

لم يجبها فوراً، بل بقيَ صامتاً متفكراً، وكأنه لن يتمكن من إلغاء قراره ما أن ينطقه بصوت مرتفع، ثم أخيراً قال بشكل قاطع:

«سأذهب».

أدارت نظراتها المستغربة باتجاهه: «متجاهلاً آمبر؟»

أوما مغموماً، وفي تلك اللحظة كرهت آمبر أكثر لتسببها في جعله حزيناً ومحتاراً في أمره بتلك الطريقة.

أرادت الذهاب لرؤيتها حينها لتعطيها درساً لا ينسى، وحين بدأت بتخيل عقابها أدركت إلى أين انجرفت أفكارها، هزت رأسها لتبعد تلك الصور عن مخيلتها وتنفست ببطء لتهدئ أعصابها، مستنكرة استفزازها من أمر بسيط.

بعد لحظات طويلة أمضياها في السير بعضهما بجانب بعض، وصلا إلى المنزل أخيراً، لكن رو توقف عند بداية الممر المؤدي إليه، وبعد تقدُّمها عدة خطوات، لاحظت تأخُّره عنها، فالتفتت إليه ليقول:

«سأذهب الآن».

كيارا بتعجب: «الآن؟»

أوما: «أجل، أتتني الدعوة بتاريخ اليوم».

وقفت في مكانها محاولة إخفاء قلقها لكن صوتها كشفها حين قالت: «لكن إلى أين؟ ومتى ستعود؟»

ابتسمَ يطمئنها، لكنها لم تقتنع بسبب الحزن الذي استعمر عينيه: «إلى مملكة أليسارك[1]، ولا أعلم وقت العودة، لذا سأقوم بإرسال زاجل أزرق إن تأخرت».

حاولت إضافة شيء آخر لكنها لم تجد ما يُقال، فأومأت على مضض، ثم اقتربت منه واحتضنته ليبادلها العناق الطويل قبل أن يودعها ويختفي.

بقيت في مكانها لبعض الوقت، حتى سمعت باب المنزل يفتح من خلفها.

اضطربت نبضاتها وحاولت ألا تلتفت بسرعة لتخفي اشتياقها إلى أليكس، أخفت تعابيرها النادمة على ما حدث بينهما واستدارت بثقة، لكنّ عينيها وقعتا على عينين زرقاوين لا تشبهان عسليّتيه أبداً.

قالت بخيبة لم تكترث لإخفائها: «وارويك».

١- مملكة المتغيرين.

فغرَ فاهُ بصدمة قائلاً ببردة فعل مبالغ فيها: «أيتها الفتاة الجاحدة! بعد أن أتيتُ لأرحب بعودتكِ كما تفعل الأسر البشرية».

«آسفة، لقد ظننتُ أنك...»

تجاهلها وعادَ إلى داخل المنزل متذمراً حتى تلاشى صوته: «بعد كل الذي قدمته من أجلك هكذا تقومين بالترحيب بي؟...»

شردت بذهنها لبرهة قبل أن تدخل وتغلق الباب خلفها بهدوء.

تلفّتت باحثة بحذر لكيلا تبدو متلهفة لرؤيته، وعندما وجدت المنزل خالياً قالت باستغراب مقاطعة تذمر وارويك:

«أين أليكس؟»

توقفَ عن الكلام وتغيرت تعابير وجهه من الامتعاض إلى الجدية فوراً، ثم تداركَ نفسه وقال بشكل عابر: «عاد إلى المملكة صباح اليوم».

سألت رغم معرفتها السبب وعدم رغبتها في سماع الإجابة: «لماذا؟»

لوَّح بيده بلا مبالاة: «أمور المملكة وما إلى ذلك».
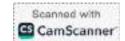
لكنها تعلم الحقيقة مسبقاً، مما جعلَ الندم يستوطن قلبها بشكل قاطع، ولم تهتم بالادعاء هذه المرة أو بتجاهل أخطائها، ثم أدركت أمراً زلزلَ ثقتها، وهو أنها قد تخسره بشكل نهائي بسبب طيشها وعنادها المستمر، لم تعلم لمَ فكرت به كحقيقة ثابتة في حياتها، وأنَّ وجوده من المسلَّمات، لكنه خالف اعتقادها الآن بعودته إلى المملكة للابتعاد عنها وتجنب مقابلتها.

نقلت نظراتها إلى الخاتم في إصبعها، وعيناها تحملان ألف سؤال بلا إجابة، تساءلت إن لم يعد الخاتم يعني له شيئاً، وإن كانت تصرفاتها أو كلماتها أو حتى صمتها عن كوابيسها قد دفعته بعيداً، لمست الخاتم بأطراف أناملها برقة وكأنها تهاب أن تترك لمساتها أثراً فيه كما تركت كلماتها لاليكس أثراً في قلبه صباح اليوم.

تفاقمَ شعور الذنب بداخلها عندما تذكرت تعابيره المصدومة، ومُزج بالحيرة والخوف من غيابه.

وقفَ وارويك أمامها واضعاً كوباً من الشاي على طاولة القهوة، فأدركت أنها تجلس على الأريكة بدون أن تعلم متى وكيف توجهت إليها.

قال بنبرة مهتمة:

«هل ترغبين في التحدث عن الأمر؟»

نظرت إليه ووجدت تعاطفه تجاهها، أومأت بعد أن شعرت أنها تدمّر حياتها التي تمنّتها لوقت طويل، جلسَ على الأريكة المقابلة لها بينما أخذت كوب الشاي وبدأت باحتسائه ببطء، ثم بدأت بإخباره بكل شيء، كما فعلت في الكهف تماماً عندما وجدها بعد هروبها منهم لتبعدهم عن تحمُّل نتيجة أخطائها.

لحظات طويلة قضتها في إفراغ ما بجعبتها له مرة أخرى، تمسح دموعها كل حين، من دون أن تخفي شيئاً، أخبرته عن كابوسها الجديد وكيف أنه ليس سوى ذكرى إعدامها تعيشها كل ليلة من جديد، تشاركه ضعفها، وتشاركه مشاعرها وكأنه سيتمكن من علاجها بطريقة ما، فقد كان التحدث معهُ مريحاً جدّاً، ولم تُرد التوقف حتى شعرت بأن الحمل قد خفَّ عنها.

قالت بعد أن هدأت قليلاً: «أشعر أن جزءاً مني مفقود منذ جريمة

الإبادة التي اقترفتها في الغابة، هناك فراغ بداخلي لا أستطيع ملأه بأي شيء، ظننت أنه انتقامي مِن إستل ثم ظننت أنه اختفاؤك، وبعد عودتك أدركت أنه جزء لن أتمكن من استعادته أبداً».

قال بعد لحظة صمت ناظراً إلى كوب الشاي الذي بيده: «لا يصبح المرء قوياً حتى يتدمر شيء ما بداخله».

رفعَ نظراته المواسية لها وأردف بابتسامة متعاطفة: «لقد تدمرت براءتكِ، لكن تمعّني في حالكِ الآن، تثيرين الرهبة في نفوسهم جميعاً».

ابتسمت رغم حزنها: «لا أظن أنني أخيف أحداً».

تذكرت آمبر وتاشا لكنها لم تجد أن كلتيهما مقياسٌ لقوتها كون الأولى بشرية والأخرى غريبو لا تستطيع البقاء حية من دون حماية مملكة الجن.

تذكرت الساحر الذي ظهرَ في غابات النور، لكنها لم تهتم بأي من الأمور المتعلقة بالقوة، مما جعل ابتسامتها تختفي سريعاً وتتبدل لتكدُّر حين قالت:

«لم أُرد أن أكون مخيفةً قط، أردتُ أن أغدو شخصاً جيداً وعطوفاً كما كنت في السابق».

لكن وارويك صعقَها بالحقيقة: «لم تكوني جيدة في السابق» نظرت إليه باستنكار فأضاف موضحاً: «لقد كنتِ ضعيفة، لا يكون الشخص جيداً بدون أن يكون قوياً، فالطيبة بدون قوة ضعف».

خفضت نظراتها إلى كوبها وأخذت تفكر ملياً، لكنها لم تُطل التفكير حتى اقتنعت لتذكرها التنمر الذي كانت تتعرض له من قِبل الجميع بدون أن تدافع عن نفسها، وكان ذلك دليلاً كافياً لإثبات صحة كلماته، لكنها لم تتخيل أنَّ القوة تعني المعاناة بهذه الطريقة، وأثناء غرقها بأفكارها وحسرتها على نفسها سأل:

«هل أخبرتِ أليكس بأن الكابوس هو ذكرى ليلة إعدامك؟»

هزت رأسها شاعرةً بمدى نفاقها، فقد غضبت من إخفائه لبعض الأسرار بينما حملت هي أسرارها الخاصة، لكن الفرق أن سبب إخفائها كان نفورها من شفقته.

أرادت أن تبدو قوية أمامه هو بالذات، أرادته أن يُعجب بقوتها كما هي معجبة بقوته فقد كانت جميع مخاوفها تبدو تافهة لها عندما تفكر به وبحياته قبلها، وبالصلابة التي يتمتع بها، أليكس يسيطر دائماً على زمام الأمور ولا تُزعزع أمور صغيرة قوته كما يحدث لها كل يوم، وجلُّ ما أرادته هو أن تكون ملكة تليق به، حتى وإن كانت قوتها بمجرد ادعاء.

قال وكأنه سمعَ أفكارها: «لا تظني أن هدوء أليكس يعكس سلامهُ الداخلي، فلكل شخص جزء بداخله يهزه ويعذبه».

لم تملك الجرأة لرفع نظراتها له، فقالت خافضةً رأسها: «ما الذي يمكنه أن يعذب أليكس؟»

أجابها بنبرة منزعجة لادّعائها عدم معرفتها: «أنتِ تعلمين الإجابة جيداً، بل قمتِ باستخدامها ضده كذلك».

تدلَّ رأسها أكثر لا شعورياً، تمنَّت لو تستطيع العودة بالوقت لإصلاح ما حدث، لكن واريك لم يعطها وقتاً للشعور بالأسى:

«لقد تماديتِ كثيراً هذه المرة، لا أظن أن أليكس سيعود إلى ريفر ريتش».

عقاب
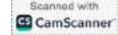
دفنت وجهها في كفيها وتركت دموعها تنهمر لبعض الوقت ثم وقفت بعزم قائلة بين شهقاتها: «سأذهب إليه».

وقفَ واضعاً يديه في جيبي بنطاله: «امنحيه بعض الوقت».

مسحت دموعها بكمّي قميصها: «لا، لا أستطيع الانتظار».

تنهَّد وصبرهُ يكاد أن ينفد: «لا تتصرفي بأنانية يا كيارا».

أجفلت لكلماته ثم ذبلت أكتافها باستسلام، لم تعلم كيف ستنتظر وغيابه يثقل على قلبها أكثر في كل لحظة، إضافةً إلى برود واورويك المفاجئ الذي جعلها تشعر بأن العائلة التي احتوتها تبتعد عنها، فمهما تقربت منه سيبقى واورويك صديقَ أليكس المقرب، الذي سيختار صف صديقه في النهاية، لم تفكر بالأمر سابقاً لكنها الآن أدركت أنها عندما تجرح أليكس فهي تجرح واورويك كذلك، وتغيُّر أسلوبه معها الآن هو الدليل.

أومأت أخيراً وقالت بصوت مكسور: «سأحضِّر العشاء».

توجهت إلى المطبخ وبدأت بتحضير الطعام، أرادت استغلال

الوقت بالتفكير باعتذارها لكن واروبك لحق بها فوراً وبدأ يساعدها بصمت، ومع كل دقيقة تنقضي كانت تشعر بقلبها يعتصر، فلم ترَ منه سوى جانبه الحيوي واللعوب منذ أن بدأ بتدريبها، لذا رؤية هذا الجانب منه كان عقاباً مؤلماً، ولم يكن قصير الأمد، بل امتدَّ صمته حتى الانتهاء من تحضير العشاء، وأثناء تناوله، وإلى تنظيف الطاولة والمطبخ، وبعد انتهائهما من كل شيء، لم تستطع التحمل أكثر فحاولت الهرب قائلةً بصوت هادئ:

«سأنهي واجباتي في الطابق العلوي».

أجابها بنبرة جادة من دون النظر إليها: «بل اذهبي إلى النوم لتستيقظي مبكراً».

«غداً عطلة، لمَ قد أستيقظ باكراً؟»

لم يُجبها لوقت طويل، فقالت بانكسار: «ليلة سعيدة».

اكتفى بإيماءة فتوجهت إلى غرفتها استعداداً للنوم، وقبل أن تستلقي على الفراش حدّقت فيه لوقت طويل، أو بمكان استلقاء أليكس على

وجه الدقة، رغم أنه لا ينام، إلا أنه يستلقي بجانبها كل ليلة وكأنه يحاول حمايتها من كوابيسها بدون جدوى.

حينها ظهرت أمامها شعلة زرقاء[1]، مدت يدها وفتحت كفّها أسفلها لتسقط الرسالة عليها وتنطفئ الشعلة فوراً، فتحت الورقة وقرأت كلمات رو القصيرة:

«سأمضي الليلة هنا، لا تقلقي فأنا بخير، بل أحظى بوقت رائع».

ابتسمت وتنهدت بسعادة، تمتمت لنفسها: «على الأقل أحدنا سعيد الليلة».

ثم اتجهت إلى سريرها واستلقت لتنام متجاهلة الغصة التي تخنقها لعدم وجود أليكس لأول مرة منذ عودتهم إلى ريفر رينش بعد الحرب، وبعد أن جافاها النوم لعدة ساعات، وذرفت الكثير من الدموع على وسادتها بصمت، استطاعت الاسترخاء أخيراً، وخلدت إلى النوم.

١- زاجل أزرق، يستخدم من قبل السحرة للتراسل.

«كيارا جرانت!!»

صدى صوت إستل الذي باتَ يشغل لياليها ويؤرقها في ذكرى تتمنى لو تستطيع نسيانها.

«تمَّ الحكم عليك بالموت حرقاً....»

ثم التهمتها النيران.

أجفلت مستيقظة، ثم غطَّت عينيها بذراعها بسرعة بسبب أشعة الشمس التي هاجمتها، وضعت يدها الأخرى على قلبها المضطرب، تتنفس بعمق لتهدئ من روعها، لم يكن هذا الكابوس مشابهاً لذلك الذي كان يرسله إليها فانكا، فبينما كان ذلك الكابوس متكرراً ولا يتغير، كان هذا الكابوس يتغير في كل مرة، يأتيها على هيئة ومضات من ذكرياتها، وفي كل مرة تشعر فيها أنها في ذلك المكان مجدداً، تستنشق رائحة الغاز الذي صبَّه دريزور[1] حولها، يعتريها الخوف والهلع كما لو أنها بالفعل مقيدة بذلك الوتد، والأهم من ذلك، تشعر بالنار وهي تلتهمها بألم لا يحتمل.

١- الموكل باختطافها، كان صديق رو الوحيد.

رفعت ذراعها عن عينيها ببطء والتفتت إلى النافذة الكبيرة التي شغلت مساحة جدار كامل، كان أليكس هو من يسدل العوازل عادة قبل أن تشرق الشمس حتى لا تضايقها أشعتها وتعكر نومها، لذا لم تتذكر أن تسدلها البتة، تنهدت بثقل وأجبرت جسدها المتعرق على النهوض، اغتسلت بالماء البارد الذي يريحها دائماً، وارتدت ثيابها، ثم توجهت إلى الطابق السفلي وبدأت بإعداد الإفطار، انضم إليها وارويك وهمّت بالترحيب به، لكنه بدأ بمساعدتها بصمت، فامتنعت عن الحديث وقد تلاشت شجاعتها، تناولا إفطارهما في صمت للحظات قبل أن تظهر شعلة زرقاء أمامها، استلمت رسالة رو التي قال فيها:

«صباح الخير، أردتُ إخبارك أنني على ما يرام، مشغول البال بآمبر بعض الشيء، لكن الأمور تجري بطريقة رائعة هنا».

أحرقت الورقة الصغيرة في كفّها ثم وقفت وارتدت معطفها بعد أن حسمت قرارها بزيارة آمبر، استوقفها وارويك:

«إلى أين؟»

توقفت والتفتت إليه متفاجئة، ثم تداركت نفسها مجيبة: «الميتم».
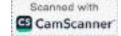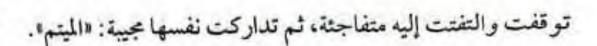
تنهَّد محذراً: «كيارا..»

قاطعته على عجل: «سأعود بسرعة».

انتقلت إلى البقعة التي تحب آمبر قضاء أوقاتها فيها، الحديقة الصغيرة في الميتم، وعلى وجه أدق، فوق الكرسي الخشبي الطويل.

وعندما رأت أنها في المكان الذي توقعته، ابتسمت بخبث لا شعوريّاً، ابتسامة لو رأت انعكاسها لحرصت على عدم تكرارها.

تجمَّدت آمبر لبرهة عندما انتبهت إليها، ثم تداركت تعابيرها ولغة جسدها مدعيةً استرخاءها، لكن كيارا لاحظت قبضتيها المشدودتين حول الكتاب، وحلقت فيها بحدة لبعض الوقت قبل أن تتقدم بهدوء وتجلس بجانبها، ولكيلا تطيل الموضوع أكثر، استدارت بكامل جسدها واضعةً ذراعها فوق ظهر الكرسي قبل أن تتكئ برأسها على كفها، بدا مظهرهما لأي شخص عابر كصديقتين تتجاذبان أطراف الحديث، بينما الحقيقة كانت أن آمبر تحاول السيطرة على مشاعرها

حتى لا يصيبها الخوف، أما كيارا فتحاول تقييد قوتها حتى لا تخرج عن السيطرة.

قالت بعد برهة: «هل تعلمين لماذا لم أقم بشيئك في منزلنا تلك الليلة؟» رفعت آمبر حاجبيها بصدمة ثم رسمت عدم اكتراثها بسرعة بينما أكملت: «لأن رو بدا وكأنه على وشك البكاء».

قالت بهدوء تدعي به لا مبالاتها: «ما الذي تريدينه؟»

ابتسمت كيارا بمكر لم تعهده منها، ثم مدّت يدها وداعبت طرف خصلة من شعر آمبر أثناء تحدثها ببرود:

«إن كان رو هو سبب بقائكِ على قيد الحياة يا آمبر، فلماذا أنتِ السبب في تكدُّره؟»

صرّت على أسنانها وقالت: «لا تتدخلي في ما لا يعنيكِ».

توقفت أصابع كيارا عن الحركة، ورفعت عينيها ببطء نحوها، ثم التقطت خصلة قريبة من وجهها بسبّابتها وإبهامها، تتبّعت آمبر تحركاتها باستغراب قبل أن يبدأ الدخان بالظهور من بين إصبعي

كيارا، وعندما استنتجت أنها تقوم بحرق شعرها لم يقلقها سوى قرب الحرارة من وجهها.

قالت جاذبةً نظراتها: «تعلمين مدى تعطش رو للحصول على عائلة، لماذا تحاولين منعه من التقرب إليهم؟»

بررت وهي تنقل نظراتها بين شعرها وعيني كيارا: «لا أحاول منعه من الذهاب بشكل كلّي».

لكنها لم تتوقف عن حرق شعرها، فرفعت آمبر يدها وأمسكت بمعصمها لكي تتوقف، لكنها ما زالت غير مكترثة، بل زادت سرعة إحراقها حتى غمغمت آمبر بامتعاض قبل أن تنطق بسرعة محاولة إنقاذ وجهها من الحرارة المتزايدة:

«لأنه موسم تزاوج الغربان!»

حينها توقفت قائلة بتعجب: «تزاوج؟»

دفعت آمبر يدها الممسكة بشعرها، وعندما حرَّرتها أخيراً أكملت قائلة: «لقد قاموا بدعوته حتى يقوموا بتزويجه، لذلك أخبرته بألا يذهب».

عقدت حاجبيها محتجة: «دعوتهم له في موسم التزاوج لا تعني أنهم يريدون تزويجه».

أجابتها وهي تتفحص الضرر الذي وقع بشعرها: «لا أظن أن دعوتهم له في موسم التزاوج بعد أن ظلوا بعيدين لخمسة أشهر بعد الحرب مجرد مصادفة».

عقدت كيارا حاجبيها أكثر لتتحرّى صدقها، لم تكن على علم بموعد تزاوج الغربان، ولم تكن لتربط الأمرين بعضهما ببعض على أية حال، لكن آمبر ذكية، رغم تفوق كيارا الدراسي إلا أن ذكاء آمبر كان مختلفاً ومميزاً، لطالما انتبهت إلى قوة ملاحظتها وسرعة بديهتها، فقد استطاعت كشف الفتاة التي تسللت للسرقة من المخزن المجاور للميتم، لمجرد أن الفتاة أصيبت بالبرد اليوم التالي، وبررت آمبر الأمر ببعد سرير تلك الفتاة عن تيار الهواء، وبالتالي لن تصاب بالبرد بسهولة، وبعد التحقيق، اتضحت صحة استنتاجها، ولم تكن تلك المرة الوحيدة التي فعلت فيها أمراً مشابهاً.

أخذت كيارا الكتاب الذي بيدها والقلم الذي تسجل به ملاحظاتها، ثم انتزعت جزءاً صغيراً من إحدى الأوراق متجاهلةً اعتراض صاحبته، وكتبت رسالة سريعة لرو:

«هل يحاولون تزويجكِ؟»

احترقت الورقة بيدها سريعاً والتفتت إلى آمبر بانزعاج من نظريتها المقنَّعة، تمنَّت أن تكون مخطئة حتى تستطيع تلقينها درساً آخرَ، لكن ردّ رو أتى بسرعة:

«كيف علمتِ بذلك؟»

زمّت شفتيها لتحققها من صحة الأمر لكن امتعاضها تبدل إلى قلق على الفور، فقلبت الورقة بسرعة وكتبت له:

«هل تحتاج المساعدة؟ هل يجبرونك على البقاء؟»

وأرسلتها ليأتيها ردّ رو فوراً:

«لا، يحاولون إقناعي بالبقاء فقط».

ثم كتب بخط صغير وكأنه يهمس الكلمات: «طقوس تزاوجهم مثيرة للاهتمام».
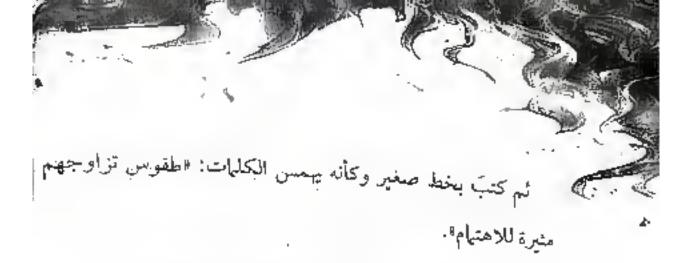
تنهّدت ثم التفتت إلى آمبر التي كانت تنظر إليها وكأنها تقول:

(أعلم أنني محقّة).

مّما دفعها إلى رمي الكتاب باتجاه يدها بطريقة فظّة قبل أن تخبرها بحقيقة مشاعرها تجاه علاقتها برو بنبرة باردة:

«ذلك لا يعطيكِ الحق بمنعه من الذهاب وبمضايقته أو بجرح مشاعره» فتحت آمبر فمها لتجيبها لكنها لم تترك لها المجال وأكملت بازدراء: «هل تظنين أنكِ تستحقين رو؟»

أطبقت آمبر شفتيها واتسعت عيناها بشكل طفيف، فقد كان السؤال يحمل معنىً أعمق مما يبدو، معنىً لن يفهمه سواهما، أو شخصٌ عاشَ حياته مثلهما، علمت كيارا أن كلماتها موجعة، فهي تعلم جيداً معنى اليتم والمشاعر التي تأتي معه، وقد عايشت كل تلك المشاعر ومازالت تتذكرها...

مكسورة، مستضعفة، مهانة...

لن تنسى أبداً أنها كانت يوماً ما يتيمة، يتيمة العائلة والأصدقاء، ولم تتخيَّل أنها ستكون من يذكّر يتيماً آخرَ بمكانته، لكنها أرادت أن ترد الصاع لها ولو لمرة واحدة، أن تُذيقها مرارة كلماتها التي تجرَّعتها لسنوات طويلة، فأردفت:

«رو فتىً ذو قلب أبيض، رغم الظلم الذي تعرَّض له، بقيَ على طيبته، لم يؤذِ شخصاً قط، بينما أنتِ....».

توقفت وكأنها لا تعلم من أين تبدأ بوصف آمبر، لكنها لم تضطر إلى أن تكمل أو أن تذكّرها بتنمُّرها، فقد كان كل ما حولها شاهداً على الماضي، ارتعشت يدا آمبر قليلاً، فشدَّت قبضتيها على الكتاب المستلقي في حجرها، وشعرت كيارا بأنها فهمت مقصدها، فوقفت وهمَّت بالانتقال عائدةً إلى المنزل.

استوقفتها آمبر قائلةً بغصَّة حاولت منعها بشدة، لكن صوتها ارتجفَ بين الكلمات بدون إرادتها:

«لطالما حصلتِ على كل شيء!» استدارت كيارا باستغراب طفيف على ملامحها بينما أكملت: «اهتمام الممرضة تريشاء المنحة المدرسية، وتلك الهدايا اللعينة كل سنة، حتى عند اختفائكِ».

أرادت إخبارها بأن اختفاءَها قادها إلى ساحة إعدام إن رأتها فلن تحسدها عليها، لكنها ما تزال متفاجئة ممَّا تسمعه، فلم تظن ولو لوهلة أن تذمُّر آمبر كان نابعاً من غيرتها، لم تتوقع أن تلك الأشياء البسيطة قد تُثير غيرة أي شخص إلى هذه الدرجة، علا الحزن تعابير آمبر مخلوطاً بالغضب، مما جعلَ نبرة صوتها ترتفع مع كل كلمة:

«أعلم أنَّ ما حدث بعد اختفائك كان مروّعاً، لكن النتيجة كانت حصولك على عائلة، أعلم أن الحرب كانت مخيفة، لكنها انتهت بانتصارك، لقد حصلتِ على نهايتكِ السعيدة، فلمَ لا تتركينني لأحصلَ على نهاية سعيدة كذلك؟»

حدّقتا ببعضهما ببعض لعدة لحظات، كانت آمبر تتنفّس بسرعة محاولةً قمع مشاعرها وإخفاءها كما تفعل دائماً، بينما كيارا تحاول انتقاء إجابة مناسبة، أرادت إخبارها بأنها مخطئة، وأنها لم تجد النهاية السعيدة،

قد تكون الحرب انتهت، لكنها لم تجد السلام أبداً، والمعاناة وإن تبدَّلت ما زالت معاناة، لكنها تذكرت الماضي وشعرت بأنَّ آمبر لا تستحق سماع ذلك، لا تستحق التفسير الذي سيريح قلبها من تلك الغيرة، بل أرادت أن تبدو سعيدة أمامها أكثر، وأن تظل مخطئةً في ظنها، فلم ترَ أن مشاعرها تبَرِّر تصرفاتها، ومع ذلك، لم تستطع إنكار أنها شعرت بقليل من الحزن تجاهها، مما جعلها تتقدَّم بهدوء إليها، أمسكت بخصلة شعرها المحترقة قائلة بنبرة منخفضة متهكمة بعض الشيء:

«بل انتهت الحرب بالجثث وبالدماء، نحن من صنعنا السعادة بعد ذلك».

ثم التفتت وعادت أدراجها أمام نظرات آمبر المصدومة للطريقة التي تغيَّرت بها، أدركت مسبقاً أنها أصبحت قوية ومخيفة منذ عودتها، لكنها لم تلاحظ أنها أصبحت قاسية بالطريقة ذاتها التي كانت عليها آمبر، رفعت يدها لا شعورياً إلى الخصلة التي أحرقتها لتتفاجأ بأنها لم تعد محترقة، فعلمت حينها أنها قامت بإصلاح شعرها قبل ذهابها، مما جعلها تتفهمها.

كيارا لم تصبح قاسية، بل أصبحت مثلها تماماً، تخفي جروحها وألمها التي لن يفهمها أحد خلف قسوة مصطنعة.

یولنور

عادت كيارا إلى المنزل ووجدت واروبك مستنداً على طاولة الطعام خلفه عاقداً ذراعيه، استقامَ في وقفته فور رؤيتها قائلاً بصرامة:

«لماذا ذهبتِ إلى الميتم؟»

ابتلعت ريقها من نبرته الجادة قبل أن تجيب: «تحدثتُ مع آمبر قليلاً».

عقدَ حاجبيه سائلاً بحدة: «هل قمتِ بأذيتها؟»

عادت خطوة إلى الوراء بصدمة، لكن تعابيرها لم تحمل سوى الألم، فقد أدانتها نبرته مسبقاً، وكأنه قد ألقى بحكمه سلفاً، كما لو أنها على ذلك الوتد مرة أخرى، تتعرض لاتهامات باطلة، تنهدت ومسحت على وجهها بإنهاك تملّكها فجأة، ولأنها تعلم أنها ارتكبت الكثير من الأخطاء، لم تستطع لومه على افتراضه ذاك، لكن خطوتها المتراجعة إلى الخلف ذكّرتها بأليكس وكيفَ عاد إلى الوراء كذلك، فتساءلت إن كانت هذه مشاعره حينها.

قالت بصوت متعب: «لا أعلم، لقد قمتُ بحرق خصلة من شعرها، لكنني أصلحتُها قبل عودتي، هل تعتبر هذه أذيّة؟»

ارتسمت الحيرة في وجهه فسألَ: «لماذا فعلتِ ذلك؟»

رفعت ذراعيها مبررة بانفعال: «لأنها حاولت منع رو من الذهاب إلى عائلته التي كان يتوق إليها، قامت بتعكير مزاجه بعراكها معه بدون تبرير، وبسبب ذلك لا يستطيع الاستمتاع بوقته معهم بشكل كامل».

رقَّت تعابيره وابتسمَ للحظة خاطفة لم تنتبه إليها، ثم أعادَ الجدية إلى وجهه مجدداً وأومأ لها متفهماً قبل أن يمدّ يده حتى تمسك بها:

«حسناً إذاً، لنذهب».

سألت: «إلى أين؟»، وعندما عادَ إلى صمته مرة أخرى بدون أن يجيبها، أردفتْ بانزعاج: «لقد أجبتُ على أسئلتك، ليس من العدل ألا تجيبني».

تنهّد مجيباً: «سنبحث عن جثة آيريس».

سألتْ باستعجاب: «هل تعلم من أين سنبدأ بالبحث؟»

ومرة أخرى لم يجبها، فعقدتْ ذراعيها معترضة على الذهاب بدون

إجابة، ليتنهد مجدداً ويجيبها بنبرة أوضحت لها أن صبره ينفد:

«اكتشفتُ أمراً عن آيريس في الماضي».

توجهت نظراته إلى مكان بعيد مسترجعاً ذكرياته.

رقَّ صوته قليلاً حين أكمل: «لم تكن مستعدة لمشاركة ذلك الجزء من حياتها، لذلك غضبت كثيراً وقامت بدفعي بعيداً كلما حاولتُ التقرب منها».

تداركَ نفسه بسرعة ونظّف حنجرته معيداً عينيه إليها، زمَّ شفتيه كما لو أنه كان يمنع نفسه عن قول أمر سيجرحُها، ثم رفعَ يده أكثر، فأخذتها بسرعة لعلمها أنها لن تتحمل أياً مما كان يريد قوله، اختفيا منتقلين إلى مساحات خضراء واسعة، تمتد على مدى بصرها، أسفل سماء زرقاء صافية، تأمّلت محيطها قائلة:

«أين نحنُ؟»

أجابها ببساطة: «أركانيا».

التفتتْ إليه بسرعة: «مملكة المستبصرين؟»، أومأ بصمت فأكملت باستغراب: «لماذا أتينا إلى مملكتهم؟»
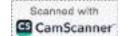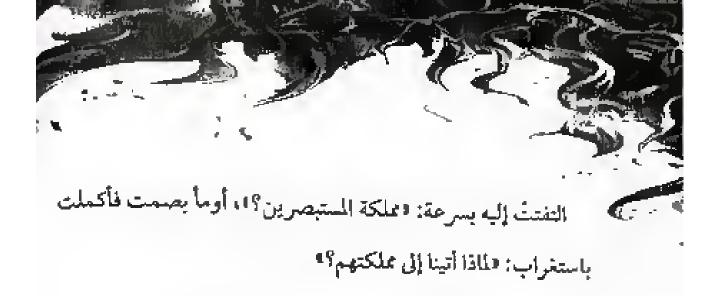
أخذَ نفساً عميقاً بسبب أسئلتها الكثيرة، ثم قال متنهداً: «كانت آيريس مستبصرة قبل أن يتمّ تحويلها إلى مصاصة دماء».

اتّسعت عيناها بصدمة بينما أضاف: «ألم تتساءلي من قبل لم كانت عيناها ذواتيْ لونٍ أحمر؟»

كانت الإجابة بلى، ولكنها لم تمتلك ذكاءً يشابه ذكاء آمبر لذا لم تربط الأمور بعضها ببعض، ظنّت أنه أمر خاص بمصاصي الدماء فقط، ولم تهتم بالتفكير في موضوعها أكثر.

تبدلت تعابيرها من مصدومة إلى أخرى متوجسة عندما تذكرت مكانها، فلم تشعر بالراحة لوجودها في مملكة المخلوقات التي حذّرت منها مراراً وتكراراً، وتلك التحذيرات هي السبب في حشد جيش ضدّها، ولو علمت بوجهتها لرفضت القدوم.

شدّت على قبضتيها قائلة بانقباض:
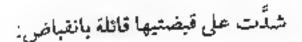
«لا أشعر بالراحة لوجودي هنا».

التفتَ ناظراً إلى مكان خلفها، ثم أشارَ بيده قائلاً: «أظنّ أن المشاعر بينكما متبادلة».

استدارت بعدم فهم حيث أشارَ لتُصاب بصدمة من نوع آخر، صدمة خالطها الرعب من المنظر الذي رأته، وقالت بهمس وهيَ غير قادرة على استحضار قوة تكفي للتحدث:

«ما هذا؟!»

وقفَا على أعتاب بلدة تبدو عادية للغاية، كريفر ريتش، ولولا معرفتها بأنها على أرض المستبصرين لظنّت أنها بلدة بشرية، لكن ما سبّب لها القشعريرة هي الرماح المغروسة في الأرض محيطة بالبلدة كجنود الحراسة، حملت تلك الرماح رؤوساً فوقها في منظر دموي مقزز، تعفّن بعضها وتحلّل بعضها الآخر، لكنها جميعها حملت تعابير خائفة ومتألمة توحي بطريقة موت أصحابها البشعة.

أجابها واضعاً يده خلف ظهرها بخفة عندما شعرَ بارتعابها، لكنها لم تلاحظ تصرُّفهُ، فقد كانت نظراتها مثبتة أمامها حين أردف:

«لدخول أي مملكة، عليكِ بطلب الإذن، وهذهِ طريقة المستبصرين في إخبارنا أننا لسنا من المرحَّب بهم في هذه البلدة، وأن مصيرنا سيكون مشابهاً لمصير هؤلاء».

صرَّت على أسنانها عالمةً أن البلدة ترفض الترحيب بها وحدها، ولو أن واروياك أتى وحيداً لما حدثَ ذلك، لكنها لم تعبِّر عمَّا بداخلها، بل قالت وهي مقطِّبة عابسة:

«ماذا الآن؟»

أمسكَ بيدها مجيباً قبل أن ينتقل إلى مكان آخر: «نجرِّب بلدة أخرى».

لكن البلدة التالية حظيتْ بالمنظر ذاته، والبلدة التي تلتها كذلك، وبعد تكرار الأمر عدة مرات، ازداد تكدُّرها وضيقها، وعندما أرادت قول إنها ستعود إلى المنزل، وجدت نفسها أمام بلدة مرحِّبة بهما، فلم

تكن هناك الرماح أو الرؤوس المعلقة فوقها، بل تربّعت البلدة وسط السهول الخضراء بشكل جميل يوحي بسكينة وبساطة مريحة.

انتبهت إلى تفاصيلها خلافاً للبلدات التي سبقتها، وكأن غيابَ الرماح جعل البلدة أكثر وضوحاً، بيوت سقوفها ملونة بالبنّي الداكن، ولم تفصل بينها أي مساحات غير ضرورية، بل التصقَ كل بيت بالذي يليه، لم تعلم إن كان عليها التنهُّد بارتياح أو البقاء حذرة، لكن العنقي داخلها لم يحذّرها، بل شعرت وكأنه في سبات مريح، مما أشعرَها بالقلق كذلك، وكأنه شعرَ بارتيابها من هدوئه، فتردّد صدى صوته داخل رأسها:

«المستبصرون غير عدائيين، هم من يهابونكِ وليس العكس».

تقدّم وارويك إلى البلدة وتبعته بتردد، ومع اقترابهما كانت تسمع أصوات السكان، ضحكات، محادثات، تجار يسوّقون لمنتجاتهم، أطفال يلعبون، بدت الأصوات كأصوات بلدة طبيعية للغاية، لكنها ما أن وصلت وبدأت بالسير بين الطرقات، حتى خفتت الأصوات وتتبّعتها النظرات بشكل واضح.

لم تكن نظرات خائفة، أو متوجسة، أو حتى كارهة، بل فضولية، وكادت تجزم أن بعض المارة نظروا إليها بانبهار لولا أنها سمعت أمر تحذيراتهم منها بشكل متواصل في الماضي، لكن الأطفال كانوا يلوّحون لها بابتسامات واسعة، والبالغون يومئون برؤوسهم لها من دون أن تفهم المغزى من تلك الإشارة.

تلافت نظراتهم بارتباك، وبدأت تتأمل المكان أثناء سيرهما، كانت جميع المباني خشبية، وتكوّن كل مبنىً من طابقين، ضُممت جميع الطوابق السفلية على شاكلة متاجر ذات أبواب مفتوحة، تعرض بعضها بضاعتها داخل المتجر، وبعضها الآخر خارجهُ، ومتاجر أخرى استغلّت المساحتين لعرض منتجاتها.

أما الطابق العلوي فبدا كمسكن، وتوقعت أنه يعود إلى أصحاب المتاجر.

برزت من بعضها شرفات صغيرة، حملت أحواض الزهور، بينما علّقت الثياب في شرفات أخرى.

وبالرغم من تلوّن السقوف والنوافذ باللون البني المتماثل، إلا أن كل مبنىً حمل لوناً مختلفاً، فكان أحدها أزرقَ كالسماء، وآخر كان وردياً كزهرة زنبق، وهناك الأصفر كالشمس والأبيض والأخضر، فبدت كصندوق ألوان متنوعة تناسقت بطريقة خلابة.

عاينت المتاجر، بداخل إحداها امرأة ترتدي فستاناً ذا تصميم بسيط وتبيع الورود المعروضة للمارة، في منظر بدا كلوحة فنية مرسومة شعرت أنها رأتها من قبل، بينما المتجر المجاور لها يبيع المخبوزات التي وصلت رائحتها إلى أنفها، فابتلعت لعابها قبل أن يسيل من فمها بتأثير الرائحة الزكية.

أما في الجهة المقابلة فيبيع أحدهم التوابل والآخر الفواكه والخضروات.

كان كل ما حولها يشعرها بأنها انتقلت إلى حقبة زمنية مختلفة، أو عالم مختلف تماماً، فلم ترَ بلدة بهذا الشكل سوى في القصص الخيالية.
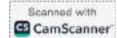
جذبَ انتباهها صوت رجل من أمامها يقول بنبرة مستضيفة:

«أهلاً بكما».

وقفَ هناك رجل في منتصف العمر، تغطي اللحية الرمادية المشذّبة وجهه، وتشارك شعره الساقط على جبينه لونَ لحيته، وعلى الرغم من عدم وجود تجاعيد في وجهه، إلا أن جانبي عينيه الزرقاوين تجعدا لكثرة تبسُّمه.

أومأ لواروبك بابتسامة مرحبة قائلاً: «أهلا بكَ يا واروبك».

ثم التفتَ إليها واختفت ابتسامته تدريجيّاً، وتبدلت إلى تعابير منبهرة متفحصة، ناظراً إليها من الأعلى إلى الأسفل، وكأنه لم يتوقع ما رآه، علمت حينها أنه يتأمل هالتها، ثم انحنى بشكل طفيف وقال أخيراً بطريقة محترمة لم تتوقعها:

«جلالة الملكة»، اتّسعت عيناها وهي متفاجئة بينما أكملَ ترحيبه: «أهلاً بكِ في أركانيا، وبالتحديد في بلدة يولنور المتواضعة».

نظرت إلى واروبك نظرة خاطفة وهي لا تعلم ماذا تفعل، ولم

تجد الإجابة لديه، فتوجهت مع غريزتها وابتسمت بلطف ثم أومأت بشكل سريع، قبل أن تقول:

«شكراً لقبول طلبنا، يا سيد...؟»

انتبهت إلى كتفيْ وارويك يرتفعان وهو يأخذ نفساً عميقاً، وظنَّت لوهلة أنه يشعر بالفخر بها لتصرفها بطريقة لائقة، لكنها لم تملك الوقت للتفكّر في ذلك، فقد رفعَ الرجل رأسه وبادلها الابتسامة قائلاً:

«أنا ماناكس».

ردَّت بلباقة: «تشرفت بمعرفتك يا سيد ماناكس».

اتَّسعت ابتسامته أكثر: «لا داعي للرسميات يا جلالة الملكة، سمِّيني ماناكس فقط».

أرادت إخباره بأن لقب جلالة الملكة من الرسميات كذلك، لكنها أومأت برأسها فقط وقالت: «كما تحب».

أشارَ بيده من حيث أتى: «والدي في انتظاركما، اتبعاني من فضلكما».
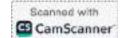
ثم التفتَ وبدأ بالسير وهما خلفه، وتابعت تأمُّلها للبلدة التي خفتت أصوات قاطنيها كلما مروا من جانبهم، ثم تعاود الارتفاع مرة أخرى بعد تجاوزهم للسكان، لكنها لم تشعر بتوجّسهم، بل بدا لها وكأن الصمت تعبيرٌ عن احترامهم لعبورها، وكل ذلك شتَّت مشاعرها تجاه المستبصرين أكثر، فهي تعلم أنها قد تركت انطباعاً سيئاً بسبب الحرب، ولم تجد سوى الخوف أو التوجس في وجه كل من قابلها، وليس الانبهار، فضلاً عن الاحترام.

اختلفت المعالم حولهم بعد السير لبعض الوقت، اختفت المتاجر ولم تعد المباني من طابقين، بل منازلُ من طابق واحد، بينما فصلت مساحة صغيرة بين البيوت صُممت كفناء خاص بها، مما جعلها تدرك أنها كانت في سوق البلدة والآن انتقلت إلى ضواحيها.

وأخيراً، وصلوا إلى المنزل في طرف البلدة، كان الوحيدَ المؤلف من طابقين بدون وجود متجر أسفله، استقرَّ على هضبة صغيرة جعلته على ارتفاع بسيط أكثر من البقية، كان ذا لون رملي بسقف بنيّ، ونمَت الأغصان على أحد جانبيه، ليتغطى أحد أركانه بأوراق الشجر وبعروقها وبالأزهار البنفسجية الجميلة.

تقدَّم ماناكس ليصعد الدرج المؤدي إلى البيت أعلى الهضبة قبل أن يلحقا به وصولاً إلى الباب البني الذي فتحه لهما مشيراً لهما بالدخول، تقدَّم واريك مما جعله يبدو كحارس شخصي لها عوضاً عن صديق، تلفَّت حوله لعدة ثوانٍ قبل أن يلتفت ويشير لها بالتقدم.

تعجبت من فعلته لوهلة ثم أدركت الصورة التي يحاول رسمها، فمنذ دخولهما البلدة لم ينبس ببنت شفة، ولم تستوعب الأمر حتى الآن.

كان يترك لها المجال لقيادة هذا اللقاء، وهو أمر وجدته منطقياً أكثر، فسؤاله عن آيريس كصديق لها يختلف عن سؤال كيارا عن آيريس كإحدى رعاياها، مما سيجعل تحقيق هدفهما أسرع وأسهل، لكنها تمنت لو أنه أخبرها عن نواياه مسبقاً لتجهز نفسها بدلاً من وضعها أمام الأمر الواقع وتركها لتدرك الأمر وحدها.

تفهمتْ أنه ما زال غاضباً منها، ولأنها ما زالت تشعر بالذنب، لم تجد الجرأة لمحاسبته حتى داخل رأسها. تقدمت من بعده ودخلت المنزل الذي شعرت وكأنه أُخذ من إحدى القصص التي قرأتها من قبل، الجدران الرملية كلون المنزل من الخارج، الأرضية الخشبية

البنية، الأريكة البرتقالية التي حملت في أحد طرفيها ملاءة صوفية بيضاء اللون، مشابهةً للون الوسادات الصغيرة المنثورة فوق الأريكة وعلى الأرض، طاولة القهوة ذات اللون البني الجوزي التي حملت فوقها بعض المخبوزات وإبريق الشاي والأكواب الفارغة الجاهزة لاستخدامها، والمدفأة في الجهة المقابلة للأريكة.

لكن الأهم من ذلك كله، والذي جذبَ انتباهها فوراً، هو عروق الشجر التي غطت ركن المنزل من الخارج، وقد تسللت إلى الداخل لتغطي أحد الجدران بالزهرات البنفسجية ذواتها، بينما تناثرت بعض الزهرات وأوراق الشجر على أرضية المنزل وانتشرت في كل مكان، وذلك التفصيل هو ما جعلها تتذكر لماذا بدا المكان مألوفاً، لأنها رأته من قبل.

رسالة
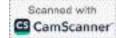
لم ترَ كيارا منزل المستبصر في لوحة فنية أو في قصة كما ظنّت، بل في كتاب فانكا للمستبصرين، كانت قد نسيت الأمر تماماً، ولم تتذكر حتى رأت الأزهار على الأرض، تذكرت إعجابها بالصورة حينها، لذلك علقت في ذهنها أكثر من البقية، لكن الأمر أثار ريبتَها الآن، فلم تفهم لَمَ وضع فانكا صورة لهذا المنزل في الكتاب على وجه الخصوص، هل كان يعلم بأنها ستأتي إليه؟ أم أنها مجرد مصادفة؟

قطعَ حبل أفكارها صوت ماناكس: «تفضلي بالجلوس يا جلالة الملكة».

لاحظت أن وارويك قد جلسَ على الأريكة بينما كانت تحدق هي في المكان، توجهت إليه وجلست على مقربة منه، لم تدرك أن تعابيرها عكست صدمتها من اكتشافها حتى انتبهت إلى تعابيره القلقة، وعندما التقت نظراتها عقدَ حاجبيه في إشارة تقول:

(ما الأمر؟)

ابتسمت وهزت رأسها وكأنها تجيبه قائلة:

سكبَ لهما ماناكس الشاي وقدَّم لهما المخبوزات التي كان طعمها لذيذاً كرائحتها، وبعد لحظات سمعوا صوت خطوات تنزل الدرج، ثم تقتربُ من مكان جلوسهم، حتى ظهر أمامهم رجل كهل محني الظهر يمشي ببطء وصعوبة، مستنداً على الحائط ليساعده على الوقوف، كانت ملامحه مشابهة لملامح ماناكس كثيراً، عدا التجاعيد التي غطت وجهه بشكل كبير، حول عينيه الغائرتين، وبين حاجبيه الكثيفين، في جبهته ويديه كذلك، شعره أبيض طويل كلحيته تماماً، وكانا مشذّبين كحال ماناكس الذي استنبطت أنه ابنه.

لم تكن ملامحهُ حادة، بل لطيفة هادئة، اقتربَ منهم يجر رجليه بضعف فاستدار ماناكس الذي كان يجهز الشاي، وما أن رآه حتى تنهّد باستسلام وترك ما بيده متجهاً إلى والده قائلاً:

«أبي، أين عكازك؟»

ابتسمَ الكهل لتظهر أسنانه المتراصة كعقد من اللؤلؤ، مجيباً بصوت مرتجف عكس شيخوخته:

«لقد نسيته في الأعلى».
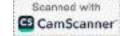
ساعده ابنه للوصول إلى الأريكة المنفردة المواجهة للتي جلسا عليها ثم ذهبَ لإحضار عكازه، نظرَ الكهل إليها لتنتبه إلى عينيه، فبينما تلونت اليمنى باللون الأزرق، إلا أن اليسرى كانت بيضاء، مما دلَّ على عجزه عن الرؤية بها، قال مرحّباً:

«أهلاً بكما، أنا دافيان، زعيم بلدة يولنور»، ثم ابتسمَ بلطف لها: «آمل أنَّ رفض البلدات الباقيات لم يزعجكِ يا جلالة الملكة».

تجهّمت قليلاً لعلمه بما يدور في خلدها، فرغم قراءتها لكتاب فانكا، إلا أن المستبصرين وقدرتهم شكلوا أمراً غامضاً في مجمله، ولأنها لم ترد الكذب تجنبت سؤاله مستطردة:

«لِمَ تدعونني بالملكة؟»

اتسعت ابتسامته أكثر حين أجابها كجدٍّ يُعلّم حفيدته: «ألستِ بملكة؟»

أرادت القول بأنها ليست ملكتهم لكن واورويك قاطعها قائلاً بحدة:

«لماذا رفضوا استقبالنا؟»

فبدا كجندي غضبَ لرفضهم طلب ملكته بالدخول، التفتت إليه لتنتبه إلى التفاصيل الصغيرة التي لم تلاحظها منَ قبل، فقد جلس واورويك على طرف الأريكة، وكأنه على استعداد للهجوم أو صد هجوم، كان ظهره مستقيماً، بينما استقرَّ رسغاه فوق ركبتيه، فلم يبدُ مسترخياً، بل آخذاً حذره متأهباً.

أتى ماناكس وناولَ والده عكازه، لكن دافيان أسند العكاز على الأريكة من الجانب وأجاب واورويك ببساطة:

«لأن من تبحثون عنها ليست لديهم».

حدقت فيه بصدمة قبل أن تذكر نفسها بأنه مستبصر وبالتأكيد سيتوقع قدومها والسبب وراءه كذلك، التفتَ إليها بدوره وتبادلا النظرات لبرهة تساءلت خلالها إن كانت عينه العمياء تؤثر على

استبصاره للمستقبل، بينما نظر إليها هو وكأنه ينتظرها أن تتجرأ لتلقي بسؤالها، لكنها في النهاية قررت التركيز على غاية زيارتها، فسألت:

«إذاً جثة آيريس هنا؟»

أومأ مجيباً: «ذلك صحيح».

اضطربت نبضاتها وفي تلك اللحظة سعدتْ لأنَّ الموجودين في ذلك المنزل لا يستطيعون سماع ضربات قلبها، لذا حافظت على هدوئها خارجياً والتفتت إلى واروبك بهدوء، قابل عينيها ورفع حاجبه مستنكراً لتفهم ما عليها قوله لاحقاً، وبالرغم من كرهها للدور الذي عليها تمثيله أمام العجوز للحصول على الأجوبة إلا أنها في النهاية دفعت نفسها للنظر إلى دافيان وقالت ببرود ادّعت من خلاله قوتها:

«ألا تظن أنكم تجاوزتم الحدود عندما سرقتم جثتها بتلك الطريقة؟»

أجاب دافيان: «لكننا لم نقم بسرقتها».

رفعت حاجبيها بتساؤل فأكمل: «لقد طلبت منا آيريس استعادة جثتها بعد الحرب ودفنها في البلدة التي ترعرعت فيها، هنا في بولنور».

بدأ قناعها يتهاوى، كانت تمتنع عن تذكر الجثث، الدماء، موت آيريس كذلك، لكن ما علمته الآن كان أسوأ، أغمضت عينيها مدركةً ما خفي بين السطور، وعندما شعرت بقلبها يثقل، تمسكت بكامل قواها لكيلا تنهار أمامهم، لكن جملة واحدة ترددت مراراً في ذهنها:

لقد كانت آيريس تعلم أنها ستموت.

لقد كانت آيريس تعلم أنها ستموت.

لقد كانت آيريس تعلم أنها ستموت.

وبعد لحظة شعرت بيدٍ فوق كتفها، لم تكن من الكتف المواجه لوارويك، ففتحت عينيها لتجد ماناكس يمد لها ظرفين، تناولتهما منه لتجد أن الأول كُتب عليه: جلالة الملكة، أما الثاني فكتب عليه: الساحر المغرور، مدت الظرف الأخير إلى وارويك ووجدت أن تعابيره تعكس مشاعرها ذواتها، تناولَ ظرفه منها بينما قال دافيان بأسى:

«لقد قامت بزيارتي قبل الحرب بفترة قصيرة وطلبت مني أن أعطيكما هاتين الرسالتين».
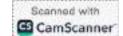
لقد كانت آيريس تعلم أنها ستموت.

كلما ترددت الكلمات أكثر، أصبحت روحها أكثر تعباً، حتى ضاقت أنفاسها، ترددت في فتح الظرف غير قادرة على دفع إحساس الذنب الذي يتملكها كلما فكرت في الحرب، لكن ذلك الإحساس الآن تضاعف، وارتجفت أصابعها أثناء محاولتها إخراج الرسالة، وأخيراً قالت بصوت مختنق:

«خذني إلى قبرها من فضلك».

التفتَ ماناكس إلى والده الذي أومأ له بالموافقة، فأشار لها باللحاق به إلى الخارج، وبعد بضع دقائق وصلا إلى مقبرة البلدة التي لم تبعد عن المنزل كثيراً، تنقلا بين القبور حتى وقفا أمام قبر آيريس ثم تركها وحدها، نظرت إلى اسمها المنقوش على شاهدها، آيريس يولنور، ثم جلست على ركبتيها بجانب القبر ومسحت بيدها فوقه قائلة بهمس:

«لم أكن ملكة جديرةً بقيادتك».

وبعد تردد دام للحظات أجبرت يديها على فتح الظرف وإخراج

الرسالة، ثم بدأت بقراءتها وهي تسمع صوت آيريس تقول:

«جلالة الملكة كيارا..

آمل ألا تحزني لموتي كثيراً، فالفترة القصيرة التي قضيتها معك أرتني مقدار تعاطفك واهتمامك وقلقك على الجميع، لذا سأخبرك بسرّين قد يريحان قلبك وضميرك..

الأول: لقد كان موتي من ثوابت المستقبل..

بالحرب أو بدونها كنت أرى نفسي أموت بطرق مختلفة، لكنني أردت أن ننتصر لذا حاربت بكل قوتي.

السر الثاني: لقد كنت أعلم بأن موت رو هو السبب في انتصارنا، لذا لم أحاول منع حدوثه..

لقد كان شرّاً لا بد منه، أطلب منك السماح جلالة الملكة، لأنني لم أحاول منع موته بصدق، بل ترددت في ذلك، ولم أجبر جسدي على النهوض، رغم أن صداقتي به غالية، إلا أن ولائي لأليكس أغلى

بالنسبة إلي، لذا أرجو منكِ أن تسامحيني، وأن تسمحي لي بالموت كجندية لمملكة منتصرة».

احتضنت الورقة وذرفت دموعها، ثم غطت فمها بكفها لكتم شهقاتها، فموت آيريس المحتوم لم يخفف عنها وقعه، بل إن ظن آيريس أن رو قد مات آلمها أكثر، فقد ماتت بقلب مثقل بالحزن وبالذنب لعدم إنقاذه، وبعد أن ذرفت دموعها حتى احمرت عيناها ووجنتاها شعرت بيد تربّت على كتفها، هذه المرة وجدت واروِيك ينظر إليها محاولاً الاطمئنان عليها، فبدأت دموع جديدة بالانهمار وناولته رسالتها قائلة بغصة:

«لم تعلم أنك استطعت إنقاذ رو».

قرأ الرسالة بحاجبين معقودين وبتعابير كئيبة، بينما كانت كيارا تبكي على ركبتيها، ثم جثا بجانبها وضمها إليه ومسح على ظهرها حتى هدأت، فمسحت دموعها عن وجنتيها ووقفت قائلة:

«سأعود إلى منزل دافيان، خذ وقتك».

ثم تركته وحده محدقاً في القبر، فتح رسالته التي قرأها مسبقاً في منزل دافيان، لكنه أعاد قراءتها الآن بعد أن فهم ما كُتب في رسالة كيارا، لأن رسالته تقول:

«إلى وارويك..

اقرأ رسالة الملكة لأخبرك أنت كذلك بسرّين..

الأول: لا تخبر كيارا بالحقيقة، لأن موتي لم يكن أحد الثوابت، دعها تتخطَّ الأمر، فهي صغيرة للغاية لتتحمل سوداوية هذا العالم، لا أحد يستحق أن يعايش ما مرت به هذه الفتاة..

السر الثاني: سأخبرك بالثابت الحقيقي، ويمكنك التحقق من دافيان إن أردت ذلك..

أنا وأنت لم نكن لننتهي معاً أبداً، حتى في العالم الذي لم أواجه فيه هذا المصير..

في المستقبل، أنت دائماً معها، ولا تستطيع الفرار من لقائها، أو الوقوع في حبها، بل أكثر من ذلك..
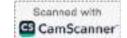
ستكون تعويضك الجميل لجميع المآسي التي عايشتها سابقاً..

ستكون القطعة الناقصة التي ستكتمل بها حياتك..

ستكون العائلة التي لم تعلم أنك تحتاجها..

ستكون أكثر شخص يفهمك، من دون أن تضطر إلى الحديث..

ذات الشعر الأحمر..»

طوى الرسالتين وأحرقهما بشعلة زرقاء ليدفن الأسرار التي كُتبت فيهما، ثم تنهد تنهيدة عميقة لفهمه أخيراً لمَ كانت آيريس تدفعه عنها دائماً.

ثوابت
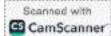
عادت كيارا إلى منزل دافيان، وما أن وصلت إلى باب المنزل حتى فتحه ماناكس قبل أن تستطيع طرقه مشيراً إليها بالدخول، وبعد أن عادت إلى مكانها على الأريكة، قدَّم لها بعض المحارم وكوباً جديداً من الشاي، لكن دموعها كانت تنهمر كلما ظنت أنها ستنتهي، في النهاية قال دافيان محاولاً تشتيتها عن حزنها بعد أن شعر بالأسى تجاهها:

«لقد زارني مرة رسول السلام».

اتسعت عيناها ونظرت إليه بتعجب، لأنها أرادت سؤاله بالفعل إن كان فانكا قد أتى إلى هذا المنزل، مسحت وجنتيها ونظفت أنفها بالمحارم قائلة بفضول:

«هل تستطيع قراءة الأفكار؟»

ضحك دافيان وماناكس معاً قبل أن يجيبها ماناكس:

«أحياناً نحاول استباق المحادثة بالنظر إلى المستقبل، كنوع من التأهب لأي موضوع قد يطرح».

التفتت إلى والده وسألت محرجة: «هل تمكَّن مني الفضول في المستقبل؟»

اتسعت ابتسامته أكثر ثم أومأ وأكمل: «لكنني لا أعلم سبب تساؤلك عن زيارته لي!».

أخذت أخيراً كوب الشاي وارتشفت منه رشفة بحذر من حرارته قبل أن تقول: «لقد رأيت صوراً لهذه البلدة في أحد كتبه» تتبّعت زخرفات الكوب بإصبعها بتردد قبل أن تحسم رأيها وتسأل مستطردة: «كيف أصبحت آيريس مصاصة دماء؟» رفعت نظراتها إلى دافيان الذي انتظرها لتكمل عالماً بأن لديها ما تقوله: «ألا يحمل المستبصرون السم في دمائهم؟ كيف استطاع مصاص دماء أن يحولها؟»

تنهّد بحسرة قائلاً: «لم يقم مصاص دماء بتحويلها، بل كانت إحدى تجارب والدها الوحشية».

ارتفعَ حاجباها بدهشة واستغراب فأكمل: «نحن لا نعيش طويلاً، أعمارنا كالبشر تقريباً، ووجودنا في هذا العالم جعل والدها متعطشاً إلى الخلود، لذا قام بتحويل جميع أبنائه عن طريق سم مستخلص من مصاص دماء».

توقف طويلاً وكأن ذلك الماضي الذي لم يعشه يثقله شخصياً، فحثتُهُ على المتابعة قائلة:

«ما الذي حدث لهم؟»

تنفّس بهدوء ثم أردف: «مات أخواها الاثنان بسبب حرارة السمان عند اندماجهما، وتحولت آيريس، وعندما علم أن تحولها لم يسلب منها قوتها في الاستبصار طمع بأن يصبح مثلها، فقام بتحويل نفسه كذلك».

ابتسمَ ابتسامة مختلفة عن جميع التي سبقتها، كانت محملة بالمرارة: «لكن جسده لم يتحمل، فلم يحمل قوة إصرار آيريس وعنادها».

سألت لتتأكد: «هل مات؟»

أومأ بالتعابير المكتئبة أنفسها، في الوقت الذي نهض فيه ماناكس وفتح الباب ليدخل واروبك ويعود إلى الجلوس بجانبها، نظرت إلى تعابيره المتكدرة التي لم ترها عليه من قبل، وعندما التفتت إلى دافيان وجدته يحمل التعابير الحزينة ذاتها مما دفعها للسؤال:

«هل آيريس من نسلك؟»

ابتسم بدفء وكأن الإجابة وحدها تُسعده حين قال: «بل أنا من نسلها» رمشت عيناها عدة مرات، التفتت إلى واروبك لتجد أنه يشاركها صدمتها بينما أكمل المستبصر: «لقد تزوجت آيريس وأنجبت ابناً قبل أن يقوم والدها بتحويلها».

صمتَ حينها لكن كيارا استنبطت بقية القصة، وهي أن مَن أمامها ينتمي إلى سلالة ذلك الابن، تدفقت التساؤلات إلى رأسها، أرادت سؤاله هل كانت آيريس تقوم بزيارتهم بشكل متكرر؟ هل هذا السبب في قبول دعوتهم؟ لأن آيريس أرادت إعطاءهم الرسالتين؟ هل كانوا سيضعون الرؤوس أمام بلدتهم إن لم تطلب منهم آيريس ذلك؟

فتحت فمها للسؤال ثم أعادت إغلاقه بينما انتظرها دافيان بصبر، مما جعل واروبك يعقد حاجبيه باستغراب، فقد لاحظَ اختلاف تعامل المستبصرين معها، وكيف يجيبون على جميع أسئلتها على الفور، وقد قابلهم في عدة مهمات سابقاً ويعلم جيداً أنهم لا يجيبون بسهولة أبداً، وفي أغلب الأحيان لا يجيبون بشكل نهائي، لكنهم اليوم لم يجيبوا على جميع أسئلتها فقط، بل كانوا ينظرون إليها كل حين وكأنهم ينتظرون أوامرها بالرغم من أنها ليست ملكة عليهم.

تنهدت كيارا فابتسمَ دافيان ابتسامة مليئة بالحنان وكأنه يعرف ما بداخلها بالفعل ثم أومأ لها مشجعاً لتسأله عما تريد، فقالت أخيراً مترددة:

«أخبرني كيف يبدو المستقبل».

اتسعت عينا وارويك لخروجها عن جميع توقعاته، لكن القلق الذي ارتسم على تعابيرها أخبره بأنها خائفة من نفسها ومما قد تحدثه في المستقبل، لذا التفت بدوره إلى دافيان منتظراً إجابته.

سألَ العجوز: «أي مستقبل منهم؟»

سألت بعدم فهم: «مستقبلي أنا؟»

وضّح لها بصوته المرتجف إثر كِبر السن: «لا يوجد مستقبل واحد، نحن نرى عدة احتمالات، فالمستقبل مبني على عدة عوامل متغيّرة».

قالت مكررة من بعده: «عوامل؟»

أكمل مسهباً: «صحيح، عوامل كالقرارات الفردية، والقرارات تتغير باستمرار».

تنهدت محبطة وأنزلت نظراتها إلى كوبها، لأن تلك الإجابة لم تخفف من خوفها من المجهول فأضاف:

«لكن...» رفعت عينيها بسرعة بتأمل فضحك مع ماناكس بخفة قبل أن يكمل: «هناك بعض الأمور التي تتكرر في جميع الاحتمالات، نسميها الثوابت».

التفتت إلى واروبك متذكرةً أن آيريس قد ذكرت تلك الكلمة في رسالتها، ثم أعادت نظراتها إلى دافيان وأومأت له ليكمل:

«هناك أمر ثابت في مستقبلك» مالت بجسدها إلى الأمام بدون أن تشعر، متلهفةً إلى سماع الإجابة، فابتسمَ لحالها، لكنه سرعان ما عاد إلى الجدية حين تابع:

«ستُحدثين تغييراً كبيراً في هذا العالم الذي يرفضك بشدة يا جلالة الملكة».

أخذت نفساً عميقاً كما لو أنها تستنشق كلماته إلى قلبها، شدّت قبضتها حول كوب الشاي ثم أرختها لكيلا تكسره، حدقت بدافيان
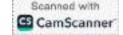
لعدة لحظات ناقلة نظراتها بين عينيه، فعادت تساؤلاتها السابقة إن كانت عينه التي فقدت رؤيتها تؤثر في رؤيته للمستقبل، شعرت أنها تجاوزت حدودها بكثرة الأسئلة بالفعل فامتنعت عن السؤال، لكنه قال:

«قوتنا تكمن بداخلنا، لا بأعيننا يا جلالة الملكة».

احمرت وجنتاها بحرج متذكرة رؤيتهم للمحادثات مستقبلاً، فوضعت كوب الشاي أخيراً والتفتت ناظرةً إلى وارويك:

«هل نذهب؟»

أومأ ونهض بدوره، أمسكَ دانيان بعكازه ووقف بصعوبة ثم قال:

«لقد تشرفتُ بزيارتكِ لي يا جلالة الملكة»، ابتسمت له بامتنان لكنه أضاف: «أريدكِ أن تعلمي أننا نرحب بك دائماً في بلدتي».

رفعَ وارويك حاجبه بينما أومأت له قائلة: «شكراً لاستضافتنا».

استدارت وتوجَّهت إلى الخارج برفقة ماناكس ووارويك من

خلفها، استوقفه دافيان قائلاً بنبرة لم تحمل أياً من اللطف الذي حمله

أثناء التحدث مع كيارا:

«لا داعي للارتياب إلى هذه الدرجة أيها المنشق».

شدّد دافيان على آخر كلمة مما جعل وارويك يلتفت إليه باستغراب، لم تكن نبرته تحمل الازدراء أبداً، بل تحمل معنىً خفيّاً لم يفهمه، وهذا كانَ أسلوبَ المستبصرين دائماً في الإجابة، رمي الدلالات والتلميحات، المراوغة حول الموضوع وكأنهم يتعمدون عدم الخوض فيه بشكل مباشر، لذلك أثارَ تعاملهم المميز مع كيارا ريبته.

أردفَ المستبصر: «نحن نتطلع إلى العالم الذي ستصنعه هذه الفتاة»، فتح وارويك فمه للسؤال لكنه سبقه بالإجابة: «لا شيء أكيد بالطبع، ولا شيء ثابت في مستقبلها، ستغير كيارا هذا العالم بكل تأكيد، لكن نوع ذلك التغيير مختلف من رؤية إلى أخرى».

حاولَ أن يقيم ظهره مستنداً على العكاز لكن العجز تمكّن منه، فتنهد وأكمل على أية حال: «إما ستقودنا لعالم أفضل، أو...»، توقّف قليلاً خافضاً عينيه إلى الأرض وكأنه يرى ذلك المستقبل الآن، ثم تابع

بصوت منخفض: «أو أنها ستهوي بنا لقاع الجحيم» رفعَ نظراته إلى الساحر حينها مؤكداً: «لا احتمال بينهما، وأنا أومن بالأول».

حدَّق فيه واروبك شاعراً بجسده يقشعر لما سمعه، المستقبل معلق بكيارا في كل الأحوال، إما للأفضل، أو...

لكنه لم يُرد تكرار ما قيل ولو بداخل رأسه، فاوما للكهل ولحق بكيارا إلى الخارج، وما أن وقفَ بجانبها حتى تذكَّر رسالة آيريس، أراد التيقن من صحة ما كتبته فقال:

«هناك أمر أريدُ التحقق منه».

لكنه يعلم أن دافيان على علم مسبق بتساؤلاته، وعدم إجابته سلفاً يعني أنه لن يجيبه أبداً، وقبل أن يبتعد بدون الحصول على إجابته، التفتت كيارا إليهما مرعيةً سمعها لحديثهما، فبدا وكأن انتباهها لما يجري قد غيَّر من قرار المستبصر، فتنهَّد ونظرَ إلى واروبك قبل أن يومئ له مرة واحدة ثم يقول مؤكداً:

«صاحبة الشعر الأحمر... تريشا».

نيران أليكس
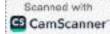
قالت كيارا باستغراب: «تريشا؟»

سألها واروِيك عاقداً حاجبيه: «من تكون؟ الجنية؟»

أومأت ونقلت نظراتها القلقة إلى دافيان: «ما بالها تريشا؟»

أخبرها واروِيك بما قالته آيريس عن تريشا وعن مستقبله المحتوم معها في رسالته، متجنباً ذكر السر الآخر المتعلق بموتها، ثم تابع دافيان موضحاً:

«لقد تغيرت بعض الأمور قبل عدة سنوات، كان المستقبل مرسوماً بطريقة مختلفة، ثم في ليلة عابرة، تغيَّر كل شيء» نظر إلى واروِيك ثم أضاف: «حينها أصبحت تريشا خليلتكَ المقدرة».

قالت بنبرة متسائلة: «عدة سنوات؟ لكن آيريس كتبت الرسالة قبل موتها، أي إنها علمت بالأمر منذ مدة طويلة كما يبدو...»

قاطعَها دافيان بهدوء: «جلالة الملكة»، وعندما قابلت عينيه، ابتسم بلطف ثم أكمل: «تحوّل آيريس إلى مصاصة دماء جعل قدرتها....».

توقفَ قليلاً وهو يبحث عن الكلمة المناسبة ثم قال: «استثنائية».

رفعت حاجبيها: «استثنائية؟»

أومأ: «هذا خاطرَ والدها بحياته، ليصبحَ مثلها».

وأثناء صدمتها التفتتْ إلى واروِيك لتسأله إن كان يعلم بتلك الحقيقة، لكن تعابير وجهه الحائرة كانت إجابتها.

كان ينظر إلى دافيان بوجه شاحب وبأعين متسعة وكأنما مرَّ شبح من أمامه، كان هو مصدر معلوماتها بعد أليكس وكتبِ فانكا، لذلك أحسّت بالقلق عندما رأتهُ بتلك الحالة.

قال أخيراً ببطء وبصوت منخفض: «خليلتي.... المقدرة؟» أومأ المستبصر فأكملَ بعدم تصديق: «لكن تلك الرابطة مقدسة».

تنهّد دافيان وكأنَّ غريزته المستبصرة تكره الإجابة على الأسئلة بدون مقابل، لكنَ كيارا بجانبه التفتت بأعين فضولية لإدراكها أخيراً ما كان يعنيه سابقاً، وباتت تنتظر إجابته كذلك، فقال:

«لا علم لي بقوانين هذا العالم، إن أردتَ الحصول على إجابات مضمونة فاسأل أحد القضاة» عقدت حاجبيها وقبل أن تسأل أكمل: «ألم يوقع أليكس اتفاقية مع أحدهم؟ سيُجيب على أسئلتكم بالتأكيد».

مبارك، لقد كان يقودهما إلى سيارك.

التفتت وأمسكت بذراع وارويك قائلة: «نحن ذاهبان إلى المملكة على أية حال، لنقم باستدعائه هناك».

صرَّ وارويك على أسنانه وأومأ على مضض قبل أن يمد يده إليها لينتقلا إلى المملكة، نظرت إلى دافيان بامتنان:

«شكراً لكَ على استقبالنا».

أجابها بابتسامة دافئة: «بكل سرور يا جلالة الملكة، بلدة يولنور ترحب بك دائماً».

بادلته الابتسامة ثم أمسكت بيد صديقها، وبسرعة رمشة العين أصبحا داخل القصر الملكي في إيماتيروس[1]، نقلت نظراتها حول

١- مملكة مصاصي الدماء.

المكان مسترجعةً تفاصيله، الطابع الفيكتوري العريق، البلاط الذي شابةَ بلونه حبات القهوة المحمصة وأعطى دفئاً للقصر رغم كبر حجمه، البساط الأحمر الملكي الممتد عبر الممرات، السلالم الواسعة الرخامية، الثريات المتدلية من الأسقف، الألوان الداكنة المتعاكسة تماماً مع منظر القصر الخارجي ذي اللون الأبيض الثلجي وكأنه صنع من الكريستال.

غرقت بتأملاتها وذكرياتها ولم تنتبه إلى المحادثة التي دارت بين وارويك وكبيرة الخدم حتى شعرت به يمسك يدها، عادت إلى الواقع لتنتبه إلى المرأة وهي تغادر بينما قال:

«أليكس يتدرب مع زي في الساحة الجنوبية، هل تريدين الذهاب إليها؟»

وللمرة الأولى منذ اليوم السابق، سمعت بعض القلق في نبرته، وعندما نظرت إليه، رأت اهتمامه الذي اعتادته، انتظرها بصبر لتؤكد له استعدادها، وما أن أومأت إليه حتى انتقل بها إلى البوابة التي تقودهما إلى الساحة الجنوبية.

سمعت أصواتهما قبل أن تتمكن من رؤيتهما.

تذكرت حضورها إلى القصر للمرة الأولى وكيف شعرت بالتوتر وبالخوف كذلك، اضطربت نبضاتها عندما أدركت تشابه اللحظتين، فقد خشيت خسارة أليكس حينها كذلك، لكن الأسباب اختلفت، ففي ذلك الوقت ظنت أنه تحت تأثير فانكا، أما الآن فقد دفعته بعيداً بيديها، شدّت قبضتيها بعزيمة متجددة بعد أن حسمت أمرها، ثم دفعت البوابة وتوجهت إلى الخارج لتختفي عزيمتها وتنسى ما أتت من أجله فوراً.

لم يكن أليكس بزي التمرين، بل كانَ يتدرَّب مرتدياً ثياباً عادية، إضافةً إلى قميصه الملقى على الأرض، بينما تعاركَ مع زي عاري الصدر، رغم برودة الجو والثلج المحيط بهما إلا أنه كان يتصبب عرقاً حتى بدا وكأنه استحمَّ لتوه.

كان ممسكاً بذراع زي بابتسامة واسعة على وشك طرحه أرضاً، بينما تقطر العرقُ من خصلات شعره المنسدلة على جبينه، انتبهَ إلى حضورها فالتفت باتجاهها، وما أن تقابلت أعينهما حتى اختفت

ابتسامته واتسعت عيناه بدهشة للحظة خاطفة قبل أن يستغل زي تشتته ويقلب الموازين.

انخفضَ بلمح البصر ورفعه من خصره وقلَبه إلى الخلف بقوة وبسرعة، كادت كيارا ألا ترى ما الذي حصل لولا تركيز نظراتها باتجاه أليكس الذي وقع على ظهره حتى صدر منه صوت مكتوم لقوة الضربة التي تلقاها، لكنه بعدها ضحك لخسارته وقبل يد زي التي ساعدته على النهوض.

ربّت على كتفه وتبادلا حديثاً لم يصل إلى أذنيها، لذا، اقتربت منهما حتى سمعت آخر ما قاله زي:

«...: هذه الجولة سأهزمك بكل تأكيد من دون أعذار».

أخذت نفساً عميقاً متأهبة، وقالت: «هل يمكنني أخذ مكانكَ هذه الجولة؟»

التقت نظرات أليكس بها، نظراته الباردة التي أعلمتها أنه غاضب منها، شعرت برغبة في البكاء، لكنها تمالكت دموعها هذه المرة فقد

استحقت غضبه وعليها إصلاح الأمر، وعندما لم تتحمل نظراته الخالية من التعابير، التفتت إلى زي بانتظار إجابته.

نظرَ زي إلى أليكس بانتظار تعليماته لكن ملكه لم يُزح عينيه عنها، فأعاد نظراته إليها وأومأ لها ثم ذهبَ للوقوف بجانب واروبك الذي بدأ بالتحدث معه وكأنه يحاول تشتيته عما سيدور بينهما.

استجمعت شجاعتها وقابلت عينيه.

نظرَ إليها لعدة ثوان ثم عاد عدة خطوات إلى الخلف بهدوء استعداداً للتدريب، تقدمت ببطء ونزعت معطفها وألقتهُ بجانب قميصه، بينما مرّرَ هو شعره بيديه ليرفعه عن جبينه، حاربت نفسها لتمنعها من النظر إلى صدره حتى تستطيع التركيز، لكنها شعرت بالحرارة تصعد إلى وجهها بسبب مظهره، انتقلت حينها نظراته إلى وجنتيها المحمرتين وتملّكها الحرج أكثر.

كان أليكس عادة يستمتع بلحظات ارتباكها هذه، لكنه زمّ عينيه الآن وبدا كما لو أنه منزعج، ولم تتمكن من تفسير موقفه، اختفى في ومضةٍ من أمامها، وقبل أن تستطيع التنبؤ بدافعه شعرت بأصابعه

حول عنقها، تجمدت مكانها حين شعرت بحرارة جسده خلفها وهو يقول ببرود:

«انتهى النزال».

وكأنه لم يُرد التدرب معها منذ البداية، لكنها رغم نبرته الباردة، شعرت بيده التي تلفّ عنقها وهي تسحبها قليلاً باتجاهه، وكأنه يحتضنها من الخلف.

كان من الواضح أن مشاعره تجاه قدومها إلى المملكة مختلطة، أيقنت غضبه منها، ودهشته من رؤيتها، وقلقه تجاهها كذلك، فهو يعلم كيف كانت تشعر لوجودها في هذا المكان، ولوهلةٍ تساءلت إن كان غضبه الحالي منها بسبب عراكها أم بسبب لحاقها به إلى المملكة من دون التفكير بما قد يعيد لها المكان من ذكريات.

تبدّل الإحراج إلى سخط لمحاولته إبعادها بإنهاء النزال سريعاً.

كانت تعلم أن قوتها المضطربة تجعل مشاعرها أكثر حدة، لذا قررت أن تعبّر عنها بالتدريب، اختفت من مكانها متنقلة إلى جانبه، ولكمته

لكمةً قوية على فكّه فتجمّد في بقعته، كان واروِيك وزي بعيدين عنهما، لكنهما لاحظت أن محادثتهما توقفت كذلك.

رفع أليكس يده إلى وجهه وفركَ مكان اللكمة بأعين متسعة، فرغم استطاعته إيقاف ما حدث إلا أنه بقيَ في مكانه لعدم توقعه تصرفها.

التفتَ إليها بصدمة فقالت بغضب صارة على أسنانها: «أنا أقرر متى سينتهي النزال».

بُهت لبرهة ثم حسمَ أمره كذلك، واستخدم سرعته مختفياً من أمامها، لكنها تدربت معه لشهور طويلة وتعرف طريقة قتاله، فلم يتمكن من الوصول إليها بسرعة كما فعل سابقاً، بل تفادت يديه قبل أن تصلا إليها، ولأنها كانت تشعر بالغضب، امتنعت عن استخدام قوتها، فلم ترد أن تؤذيه ولم تكن مشاعرها مستقرة، لكنها أرادت استخدام نارها بشدة، فغضبها المحتد بدون سبب منطقي يجعل نارها تتأجج داخلها أكثر، حتى بدأت تتعرّق بدورها.

توقّف أمامها على بعد عدة خطوات.

كانت تلتقط أنفاسها بصعوبة بينها بدا هو وكأنه لم يبذل أي جهد يذكر، انتبهت إلى عينيه وهما تتابعان قطرات العرق المنزلقة من وجنتها إلى ذقنها، ثم تتقطّر على الثلج أسفلها، نارها تشتعل وتكويها بموجات متتالية من دون أن تملك الفرصة لتهدئة مشاعرها، عادت الحرارة لتستفزها لكي تسمح لها بالخروج لكنها لا تود إيذاءه، حينها تحدّث عُنقيها من مكان بعيد داخل رأسها مقترحاً:

«تقمّصي برودته واستشعريها، ثم ألقي بضرباتك».

لم تملك الوقت للتفكير في اقتراحه، فقد اختفى أليكس من أمامها وأحسّت به خلفها.

انتقلت بسرعة إلى مكان آخر لكنه لحق بها على الفور، فكررت فعلتها لتجد النتيجة ذاتها، كان يستخدم سرعة أكبر، مما أربكها وجعل سيطرتها عرضةً للانزلاق من بين يديها، ولانشغالها بالبقاء متماسكة، لم تدرك أنه يفعل كل ذلك عمداً، يريدها أن تخرج طاقتها حتى لا تعذبها من الداخل.

كانت يده تتوجه إلى عنقها كلما اقترب منها وتتجنّبها هي باحترافية
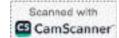
لدراستها أسلوب تدريه جيداً، لذلك لم تتكهن ولم تجد وقتاً كافياً للابتعاد عندما توجَّه إلى رسغيها...

أمسكَ بكليهما ورفع يديها فوق رأسها قائلاً ببرود أراد استفزازها به:

«هل انتهى النزال الآن؟»

شدَّت قبضتيها مدركةً أنها لن تستطيع تحريرهما من بين يديه، حتى لو استخدمت كل قوتها.

أخذت نفساً عميقاً واستمعت إلى تعليمات العنقي حينها.

استشعرت برودة أليكس وتقمّصتها حتى تخيلتها كخيوطٍ بيضاء ثلجية وسط شعلات نيرانها، وعندما شعرت برضا العنقي أخيراً، تركت نارها تخرج من يديها حيث يمسك بها.

تركها بسرعة وابتعدَ عندما انتبه إلى ضوء النار المنبعث منها، ثم توقف ونظر إلى يديه باستغراب، كان متيقناً من أن نارها لامسته، وقبل أن يتمكن من تحليل ما حدث، شعر بضربة قوية على صدره دفعته عدة

أمتار إلى الخلف ونزعت الهواء من رئتيه، رفع نظراته إليها، وانتبه إلى يديها المشتعلتين وحدقتي عينيها اللتين توهجتا بلون نارها.

ألقت ضربة أخرى وصلت إليه بسرعة البرق، علمَ أنه لن يتمكن من تجنبها فرفعَ ذراعيه لحماية رأسه عندما استنتج أن ذلك هو اتجاهها.

اصطدمت به الضربة بقوة ودفعته إلى الخلف مجدداً، لكنها لم تقم بإحراقه، بل كانت دافئة على أعلى تقدير، ورغم أنها لم تقم بلسع جلده إلا أن قوتها كانت كفيلة بالتسبب بأضرار مختلفة، فوقفَ وتفادى الضربة التي تلتها بسرعة، ثم اكتشف بعدها أن غضب كيارا جعل ردود أفعالها أبطأ من قبل، وضرباتها متزعزعة لمحاولتها إبقاء نارها باردة في الوقت ذاته، فاستغلَّ تلك الثغرة متنقلاً من بقعةٍ إلى أخرى حولها، وفي النهاية، أحاطت يده عنقها مجدداً، كان واقفاً بجانبها هذه المرة عندما قال بهدوء:

«كيارا، توقفي».

لم تكن نبرته منزعجة كالسابق، بل مضطربة، وكأن جهله بما يحدث لها يقلقه.
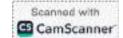
كانت قبضته حول رقبتها لطيفة، وكان إبهامه يمسح فوق العِرق النابض هناك، وكأنه يحاول تهدئة ضربات قلبها، مما أزعجها أكثر، لم تفهم لمَ يقلق بشأنها بعد أن تركها في ريفر ريتش بدون أن يعلمها بذهابه، إن كان غاضباً إلى درجة الرحيل، فلماذا يحاول مراعاتها الآن؟ لكان الأمر أبسط لو وبَّخها، لو أخبرها بمشاعره، لو عبَّر عما بداخله، لم تكن لتلومه لو صرخَ بها أيضاً، لكنه لم يفعل أياً من ذلك، بل على العكس تماماً، وهذا ما أغضبها أكثر.

شعرت أنها مليئة بالعيوب مقارنةً به.

أغمضت عينيها بقوة وأخرجت ناراً باردة من جسدها مما جعله يجفل مبعداً يده بردة فعل لا شعورية، وعندما حاول الاقتراب منها مرة أخرى عادت هي إلى الوراء وفتحت عينيها لينتبه إلى دموعها التي لم تستطع ردعها، قالت بصوت منخفض:

«ألستَ غاضباً؟»

حدق بدموعها بحاجبين معقودين وشدَّ قبضتيه ليمنع نفسه عن الذهاب ومسحَ وجنتيها، ثم أجابها بصدق:

«بلى».

شعرت بارتياح غريب لم تفهمه، تجنبت عينيه ناظرةً إلى الثلج أسفل قدميه قائلةً بهمس:

«أعلم أنني مخطئة»، ثم أكملت بغصة: «لكن ذهابك بدون إخباري خطأ آخر» فتح فمه لقول شيء لكنها تابعت: «هل صعُب عليك إخباري بمشاعرك؟ هل كان من السهل التهرب من رؤيتي أكثر من إخباري بأنني تماديت؟»

اقتربَ خطوة وقال بعدم فهم: «كيارا، أنا...»

عادت خطوة إلى الوراء مرة أخرى وقالت بصوت مرتجف وسط دموعها التي خانتها بعد أن وعدت نفسها بأنها لن تتركها تسقط:

«لم أكن لأمانع لو أنك صرخت، لو أنك أخبرتني بأن عليّ الاعتذار، لماذا ذهبت بدون أي كلمة؟ وكأنك لم تعد تطيق التحدث معي وكأنك لم تعد...»

تلاشت بقية كلماتها عندما اصطدمَ جسده بها فجأة، لفَّ ذراعه
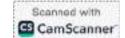
حولها ومسّد بالأخرى على رأسها قائلاً بصوت منخفض:

«كفى!».

وفي اللحظة ذاتها، تراجعت قوتها وركدت تماماً، وكأن كيانه وحده كفيل بتهذيبها، دفنت وجهها في صدره وتركت حرارة جسده تدفئ جسدها الذي اعتراه برد المملكة، بعد عدة لحظات، ابتعد قليلاً ونظر إلى وجهها برقة، رفع سبابته وتتبع خطوط دموعها على وجنتها بخفة، حتى ظنت أنه لم يقم بلمسها أبداً، ثم مسح بإبهامه دموعها المتجمعة أسفل ذقنها قبل أن يعيد نظراته إلى عينيها ويعلمها:

«لقد كتبت لكِ رسالة».

ارتفعَ حاجباها وقالت بصوتها المختنق بعد البكاء: «رسالة؟»

أومأ: «لقد تركتها فوق طاولة المطبخ».

قالت بضياع: «لكنني ذهبت إلى المطبخ عدة مرات، لم أر أي رسالة».

تشابهت تعابيرهما الحائرة للحظة قبل أن يكتشفا الفاعل، وفي الوقت ذاته التفتا باتجاه واروبك الذي ارتبك فجأة كمن قُبض عليه بالجرم المشهود، ففرّ من نظراتهما رافعاً عينيه إلى السماء مدعياً البراءة، تنهّد أليكس وتمتم بكلمات لم تسمعها، لكنها انتبهت إلى زي الذي التفتَ إلى الساحر بعدها وأخبره بأمر ما جعله متوتراً قبل أن يختفي متنقلاً إلى مكان آخر.

أعادَ أليكس انتباهها إليه حين قال بهدوء: «لقد كتبت لك أن عليَّ العودة لإنهاء بعض الأعمال وسأبيت لمقابلة سبارك اليوم، وأن علينا التحدث فور عودتي».

تردّد قليلاً ثم تابع: «لقد كتبتُ الرسالة لأنني لم أرد التحدث إليك حينها».

أنزلت نظراتها بخزي لأفعالها: «لم أعنِ أياً مما قلت».

وضعَ إصبعيه أسفل ذقنها ورفع وجهها للنظر إليه: «لم تكن كلماتك سبب غضبي يا كيارا».

وعندما رأى الحيرة على محيّاها وضّح مقصده: «لقد غضبتُ لأنك تعذبين نفسك من الداخل، ولا تنصتين في كل مرة أحاول التحدث فيها إليك، هناك أمر غريب يحدث لك ولا تكفّين عن التهرب منه، لا تريدين البحث عن الحل، بل تقضين أيامك في عناء دون فائدة».

أومأت متفهمةً، فقد أدركت قبل أن تأتي إلى المملكة أنها بالفعل تعذب نفسها كل يوم ولم تعد تستطيع البقاء على حالها المعطوب أكثر، وبات من الضرورة الآن إيجاد حل، لكنها لم تعلم ما هو الحل الصحيح وأين تجده، لذلك قررت أنها ستبدأ بالعودة إلى المملكة والتدرب، فتحت فمها لإخباره عن قرارها:

«أنا...»

لكنه قاطعها وقال بصرامة: «لكنني لن أسمح بذلك بعد الآن».

أطبقت شفتيها لدهشتها من استخدامه ذلك الجانب معها، الجانب الملكي الذي يستخدمه مع المستشارين والجنود، قال بنبرة حازمة وكأن القرار قد حُسم:

«لن أعود إلى ريفر ريتش، إن أردتِ البقاء معي فعليك العودة إلى المملكة برفقتي والبدء بالتدرب».

نظرت إليه بذهول، لم يكن أليكس يحب المملكة أكثر مما تحبها هي، بل كانت مشاعرهما تجاه المكان متشابهة، كلاهما لا يريد البقاء، لكنه سيعود من أجلها مرة أخرى، كما عاد سابقاً لحمايتها، سيعود هذه المرة لمصلحتها، لأنه يعلم أنها ستلحق به بكل تأكيد، لم تعلم كيف تعبر عما بداخلها من حب وامتنان له، فقررت أن تتحسن لتصبح شخصاً يستطيع مساعدته حين احتياجه في المقابل.

كان ينتظر إجابتها أو رد فعل من أي نوع، وعندما أدركت ذلك، رفعت حاجبها وقالت بنبرة عابثة:

«من أين أتيت بكل هذه الثقة؟ هل تظن أنني سأتبعك من دون تفكير؟»

حينها ابتسمَ ابتسامة جانبية حملت بعض الغرور، وقال بنبرة واثقة: «لقد فعلتِ ذلك سلفاً».

إيلاكاي

سبقَ واروبك الجميع إلى القاعة الملكية للاجتماعات وانتظرهم هناك، أو بالأصح، هربَ إلى القاعة بعد أن أخبره زي بأن أليكس يريد النزال معه تالياً، بينما توجهت كيارا للاستحمام سريعاً بعد يومها الطويل في جناح أليكس لعدم جاهزية جناحها، لكنها ما أن انتبهت إلى انعكاس صورتها في المرآة حتى توقفت مكانها باستغراب، تفحصت عينيها المحمرّتين لبرهة ثم انتقلت نظراتها إلى وجنتيها حيث ارتسمت عدة خطوط حمراء امتدت من عينيها حتى ذقنها، رفعت يدها ولمستها بلطف ثم أجفلت للألم الذي شعرت به.

وبعد عدة لحظات من الحيرة أدركت مصدرها، كانت تلك آثار دموعها، لكنها لم تستنبط السبب فذلك لم يحدث معها سابقاً، هل كانت بسبب استخدامها لنار باردة؟ أم بسبب امتناعها عن استخدام نارها قبلها؟ لم تملك تفسيراً، وكثرة التفكير لن توصلها إلى الإجابات، فتابعت مهمتها وخرجت لتجد أن أليكس قد جهز ثياباً لها فوق الفراش...

فستانٌ قرمزي داكن بلا أكمام، احتضنَ الجزء العلوي من جسدها من الكتف حتى الخصر، ثم انسدل الجزء السفلي من الفستان حتى
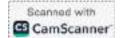
الأرض، مخفياً أسفله الحذاء الحربي الذي تفضله، سرّحت شعرها بأخذ الجزء العلوي منه وربطه خلف رأسها لتبعده عن وجهها ثم تركت الجزء السفلي منساباً، وبعد ذلك توجهت إلى قاعة الاجتماعات حيث انتظرها ثلاثتهم.

كان أليكس، واورِيك وزي يقفون بجانب الطاولة الدائرية الضخمة التي عادة ما تكون مغطاة بخرائط ووثائق ملكية عديدة، لكنها الآن كانت نظيفة ومجهزة للجلوس، فقد صفّت أربعة كراسيٍّ حولها، لكنهم لم يستخدموها، بل تبادلوا أطراف الحديث واقفين، وما أن دخلت كيارا حتى التفتوا جميعاً باتجاهها وذهبت نظرات كل من زي وواوريك إلى وجهها فعلمت أن أليكس قد انتبه إلى الأمر مسبقاً وأخبرهما به، مما فسّر لها لمسته الخفيفة لوجنتها في ساحة التدريب، كانت لمساته رقيقة دائماً لكن تلك كانت أشبه بالنسمة.

تجنبت نظراتهما والتفتت إلى أليكس الذي كان يمتّع ناظريه بتأمل الفستان الذي اختاره لها، لم تعتد على ارتداء هذا النوع من الثياب رغم أنها أُعجبت بها سرّاً، فلم تكن مناسبة للتدريب أو القتال، لكنها الآن لم تملك الطاقة الكافية للذهاب والبحث عن بديل، لذلك سمحت

لنفسها بارتدائه هذه المرة فقط، شاعرةً بالامتنان لأليكس لاختياره لها، وكأنه يخبرها بأنها بسلام ولا تحتاج إلى القتال حين تكون برفقته، بل جل ما عليها فعله هو الاسترخاء والاستمتاع بوقتها.

وبعد أن طال تحديقه فيها مسّدت فستانها بتوتر، فرفع عينيه إلى وجهها وانتبه إلى الحمرة التي لونت وجنتيها، ابتسمَ وفتح فمه لقول شيء يربكها أكثر، لكن وارويك نظفَ حنجرته لجذب انتباههم له، ثم قال بجدية ناظراً إلى كيارا:

«هناك أمر مهم علينا التحدث به».

تقدمت باتجاههم وما أن اقتربت حتى أمسك أليكس بيدها، وقرّبها إليه حتى التصق كتفها بصدره، قال هامساً في أذنها:

«تبدين جميلة للغاية».

كان يعلم أن زي يستطيع سماعه ولم يكترث له، بينما حاولت هي منع قلبها من الاضطراب أكثر ولكن من دون جدوى.

ابتعدَ عنها مقداراً بسيطاً وسأل:

«كيف حالكِ الآن؟»
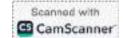
رفعت رأسها لتقابل عينيه، فقد يبدو سؤاله غريباً كونهما كانا معاً قبل لحظات...

لكنها فهمت مقصده، فهمت أنه يريد التحقق من أن قوتها راكدة ولا تضايقها.

أومأت له لتطمئنه، إيماءة طفيفة تكاد ألا تُرى لعدم رغبتها في إبعاد نظراتها عنه، فقد شهدت توقه إلى الإبصار بداخلها، ليسكن قلبه ويتأكد من عدم تألمها ومعاناتها وحدها، ولم يعلم أن اهتمامه بها يبث الدفء في وجدانها ويشعرها بالتوازن.

لكنها لم تفهم السبب كذلك، ولم تفقه لمَ كان وجوده في حياتها أمراً جوهرياً؟ لماذا سببت لها فكرة ابتعاده عنها كل تلك التعاسة؟ لماذا كان اقترابه مريحاً للدرجة استجابة قواها له كذلك؟

التفتت إلى وارويك لسؤاله لكن تعابير وجهه المتقززة منها جعلتها تتوقف، حينها انتبهت إلى مدى اقترابها من أليكس والمدة التي

استغرقاها في النظر بعضهما لبعض حاولت الابتعاد عنه بارتباك لكنه شدَّ قبضته حول يدها وردعها عن ذلك، ثم التفت إلى صديقه قائلاً:

«ما الأمر المهم الذي أردتَ إخبارنا به؟»

هزَّ رأسه باشمئزاز مبالغ به منهما، ثم تنهَّد بحسرة قبل أن يقول أخيراً: «الأمر معقد بعض الشيء».

أشار إلى الطاولة: «لنجلس أولاً».

تقدمت وجلست في أبعد كرسي حتى تستطيع الاستماع لما سيقوله وارويك من دون أن تتأثر بوجود أليكس بالقرب منها، لكنه جلس في أقرب مقعد لها، ثم أمسك بكرسيها من الأسفل وسحبه إليه حتى التصق المقعدان.

توقف وارويك لبرهة ناظراً إليهما ثم هز رأسه باشمئزاز مرة أخرى قبل أن يرمي بجسده فوق كرسيه بامتعاض متمتماً:

«لم أعد أطيق الوجود معكما».

فضّل زي الوقوف خلفَ كتف ملكهِ كما يفعل دائماً، وعندما توجهت أعينهم جميعاً إلى الساحر بدأ راوياً:
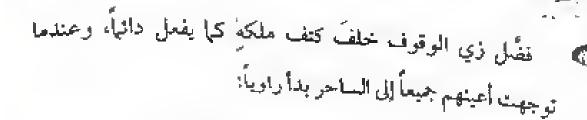
«أثناء اختفائي في الأشهر الماضية كنت أصطاد سحرة السحر الأسود الذين هربوا من ساحة المعركة بعد موت إستل، كنوع من التنفيس عن الغضب الذي يتملكني أحياناً، وقد سمعت بعض اعترافاتهم قبل أن أقتصّ منهم، ادّعى بعضهم أنه يعرف والدتك ولم يقدّم أي معلومات أخرى، بدأت أخبار سعيي خلفهم بالرواج، فبدؤوا بالإفصاح عن الحقيقة عند وقوعهم بين يدي في سبيل الخلاص، وقد سمعت بعض الأمور التي قد تهمّك».

صمتَ لبرهة وهو يسترجع تفاصيل ما حدث ثم أردف: «لم أفهم سعي إستل الضاري خلفكما، لذا، بدأت بطرح الأسئلة، والكثيرون أخبروني أنهم لم يهتموا للأمر، لكن أحدهم أخيراً قال إنه التعطش للقوة، لم أفهم الأمر في البداية، فلم تكن الأختان آيليس صاحبتيْ قوة غير اعتيادية كما قالت القصص المتداولة عنهما، لكنني استطعت ربط أطراف الخيوط بعضها ببعض عندما زلّ لسان ساحر كنت أعذبه...».

توقفَ عن الحديث لوهلة وبدا غيرَ فخورٍ بأفعاله ثم برّر: «فقدان أخي وآيريس كان يعذبني، لذا كنت...»، لكنه لم يستطع أن يكمل لاقتناعه بأن عذره واهٍ، ابتسمت له كيارا بلطف متفهمةً لما يشعر به فنظّف حنجرته ثم تابع:

«لقد ذكرَ والدتكما باسم مختلف، فقد قال: (الأختان آريش) بدلاً عن آيليس، في البداية ظننتُ أنه أخطأ في النطق، لكنه كرر ذلك عدة مرات، حينها بدأت التفاصيل تتضح أكثر».

تنفّس ببطء لتردده فيما سيقول تالياً، ثم حسمَ أمره: «إيلاكاي آريش، أحد السحرة الذين عُرفوا بقوتهم الاستثنائية، ساحر قيل إنه يستطيع إبادة عشيرة كاملة بمفرده، كان ينتمي إلى عشيرة قوية، رغم أنه كان يستطيع إقامة عشيرة خاصة به، إلا أنه بقيَ معهم من مبدأ الولاء لعائلته لا غير، لكنه في يوم من الأيام أعلنَ انشقاقه عنهم بشكل مفاجئ بدون إعطاء أي سبب واضح، كنتُ طفلاً صغيراً حينها ولا أذكر الكثير مما حدث، لكنني أذكر أن انشقاقه أحدثَ الكثير من الضجة وسبّب عدة مشكلات، مما يقودني إلى تصديق ادعاءات ذلك الساحر بأن والدتك ابنته بالفعل».

سألت متوقعة الأسوأ: «أي نوع من المشكلات؟»

توقعت أنه قد قتل أحدهم لكن واررويك فاجأها: «لقد أخذ ابنتيه معه بدون إذن العشيرة أو إذن والدتهما».

صمتت حينها تحاول استيعاب كل ما قيل، اختفى ساحر في الماضي وقام باختطاف ابنتيه معه، وهناك من يزعم الآن بأن تينكَ الفتاتين هما والدتا رو وكيارا، لكنها لم تفهم المغزى من هذه المعلومات فقد مات جميع أطراف تلك القصة، تنهدت مرة أخرى وقالت:

«ما الذي ستغيره هذه الحقيقة؟»

تبادلَ واررويك وأليكس النظرات، حينها انتبهت إلى سكوت أليكس الغريب، وكأنه متفاجئ مما سمع كذلك، وبعد صمت وجيز قال:

«إيلاكاي آريش هو...»

رفعَ واررويك يده مقاطعاً كلامه ثم التفتَ إليها وقال: «هذه الحقيقة

توضح لنا أمرين مهمين للغاية، سأخبرك بأحدهما، لكنني أريد إبقاء الآخر سراً حتى التحقق منه».

ارتفعَ حاجباها بشكل طفيف حين فهمت أنه يطلب إذنها لإخفاء حقيقة ما، لعلمه كم كانت تكره الجهل بما يدور حولها.

علمت حينها أنه سيخبرها بالحقيقة كاملة إن رفضت طلبه، لكنها وثقت به وبعلمه بما سيكون في مصلحتها، ومرة أخرى لم تستطع التعبير عما بداخلها من امتنان له، اهتمامه بها وتقديره لمشاعرها في الوقت ذاته أعطياها طمأنينة لم تدرك فقدانها سابقاً، وكأنها كانت تقاتل وحدها، تعاني وتعارك قوتها ومشاعرها وحدها، لكنها الآن شعرت بالارتياح، وتجددت ثقتها بهم وتعززت أكثر.

قاطع وارويك أفكارها: «هل تسمحين لي بفعل ذلك يا صغيرة؟»

شعرت حينها بالمعنى الحقيقي لتلك الكلمة، صغيرة، ولبرهة أرادت أن تكون كذلك بالفعل، أن تترك لهم الحمل قليلاً، أن تتخلى عن بعض الأسرار وتتركها لهم ليقوموا بحل ألغازها، أن تكون صغيرة

فقط، تنفست بعمق وزفرت بارتياح ثمّ أومأت له، فابتسم لها ابتسامة لم تستطع أن تقرر إن كانت تحمل سعادته بثقتها أم فخره بها.

حثّه أليكس على المتابعة قائلاً: «ما الأمر الآخر؟»

أسندَ واروِيك ظهره على الكرسي مجيباً: «سيتضح لنا سعي إستل خلفها».

نظرَ إلى عينيها وأكمل: «وهي القوة الكامنة في دم العائلة».

سألت بحيرة: «لم ستغيّر والدتي اسمها إن كانت عائلتها تملك القوة؟»

رفع كتفيه: «هناك الكثير من الأمور غير المفهومة، انشقاق إيلاكاي وخطفه لابنتيه بحد ذاته لغز لم يستطع أي كائن أن يحله، لكن المهم هو أن والدتك قوية للغاية إن كانت ابنته بالفعل، وكونها ابنة ساحر منشق جعلتها عرضة لأمثال إستل الذين يتغذون على قوى الآخرين، ربما قامت بتغيير اسمها لحماية نفسها، لكن إستل كشفتها كما يبدو، وقد تكون استقبلت والدتك لعشيرتها لهذا السبب».

كانت كيارا قد شعرت بالاختلاف بالفعل بعد قتل إستل، فقد كان واضحاً لها الفرق في القوة التي تكمن داخلها، لكنها لم تذكر الأمر لتهربها من الخوض في أحاديث تعيدها إلى الحرب، والآن فهمت سبب ذلك التغير، وهو ما استنتجه وارويك قبلها، لقد قتلت إستل والدتها كما فعلت بإدريفيار في الحرب، قامت بسرقة قوتها بتعويذة سوداء، ولذلك كانت تسعى خلفها، خوفاً من استعادتها لما هو حق لها، ومع تلك الإجابات ظهرت أسئلة كثيرة غيرها، لماذا لم تقم بقتل والدة رو بالطريقة ذاتها؟ لمَ أبقت رو في عشيرتها كل تلك الفترة؟ هل كانت تبقيه ليكسر تعويذة كيارا فقط؟ ألهذا السبب منعت تدريبه؟ لأنها خائفة من قوة دمه؟ أم لتتمكن من أخذ تلك القوة بسهولة بعد تحقيق هدفها؟ لكن الأهم من كل تلك الأسئلة هو حقيقة مهمة أدركتها حينها...

كان انشقاق رو ليلة إعدامها سبب نجاته.

قال أليكس مخاطباً وارويك: «ألهذا السبب عدت؟»

كانت إجابته إيماءة بسيطة، لكنها كانت كفيلة بتغيير جوهر علاقته بكيارا إلى الأبد.

كانت تعلم بأنه يهتم لأمرها، لذا لم تقم بسؤاله عن سبب إخفائه لرسالة أليكس، لقد أراد تلقينها درساً مستحقاً أدّى نتائجه على أكمل وجه، لكن عودته من أجلها تعني أكثر من ذلك، فلم يعد من أجل صديقه أو من أجل عائلته، بل من أجلها، وأكّد واروبك أفكارها حين تحدث:

«لم أكن متيقناً لذا أردتُ الاطمئنان، فإن كانت تلك المعلومات صحيحة، فكيارا قنبلة موقوتة على وشك الانفجار».

هز رأسه بتعجب متابعاً: «بل إن عدم انفجارك مسبقاً خلال الأشهر الفائتة هو دليل آخر على مدى قوة سيطرتك، الأمر أشبه بتدريبك على السباحة في حوض استحمام ثم إلقائكَ في محيط واسع، لقد قُمنا بتدريبك على استخدام جزء من قوتك، لكنها الآن تضاعفت عدة مرات».

قالت بتكدر: «لذا عليّ العودة إلى المملكة والتدرب، أنا بالكاد أسيطر عليها».

تضايقَ أليكس لحزنها فثنى ذراعيه فوق الطاولة متكئاً عليها، ونظرَ

إليها ثم قال: «هل تذكرين أول تدريب لنا؟» أمالت رأسها باستغراب فتابع: «لقد قلتِ حينها إنه جسدكِ، وإنه من الطبيعي أن تكون لكِ اليد العليا بما يجري فيه، ألا تذكرين؟»

عقدت حاجبيها لبرهة قبل أن تهز رأسها لعدم تذكرها فقال: «أنا أذكر الأمر جيداً، فقد أعجبت بكِ أكثر حينها».

اضطربت نبضاتها وتلافت عينيه شاعرةً بالخجل بينما تبسَّم هو لنجاحه في تبديد حزنها، أما واروبك فزفر بعدم تصديق ونظر إلى زي نظرات تقول:

(متى أصبحا جريئين هكذا؟)

مرَّ طيف ابتسامة على وجه زي وكأنه غير متضايق منهما أبداً، بل على العكس، وذلك لأن واروبك لم يشهد حالها بعد الحرب، لم يبق ليشهد تلك الأيام المظلمة التي لم تنبس خلالها كيارا بكلمة، ومحاولات أليكس المستميتة لإخراجها عن صمتها.

والجو المكتئب الذي عمَّ في القصر لاكتئاب كلٍّ منهما، لذا لم

يتابع المارشال حالتهما تلك، فقد أصبحا هكذا لتجاوزهما الكثير من الصعاب معاً.

لكن حرَج كيارا لم يدم طويلاً فتنهدت بأسى وقالت: «أصبحتُ أشعر أن جسدي لم يعد ملكاً لي».

كان واروبك من تحدَّث حينها بنبرة هادئة موضحاً: «أنتِ في حالة تسمى بوضعية النجاة، حالة دفاعية متواصلة للبقاء على قيد الحياة، أقل شيء يشعركِ بالخطر، جسدكِ يصارع قوته لإبقائها تحت السيطرة، وتشعرين بأنك على وشك الغرق باستمرار، أو بالأحرى، تشعرين أنك على وشك الاحتراق».

اتسعت عيناها لدقة وصفه، فقد شعرت بالفعل بأنها تتصارع مع قوتها كل يوم، أتاها صوت العنقي بداخلها منبهاً:

«سبارك».

رابطہ
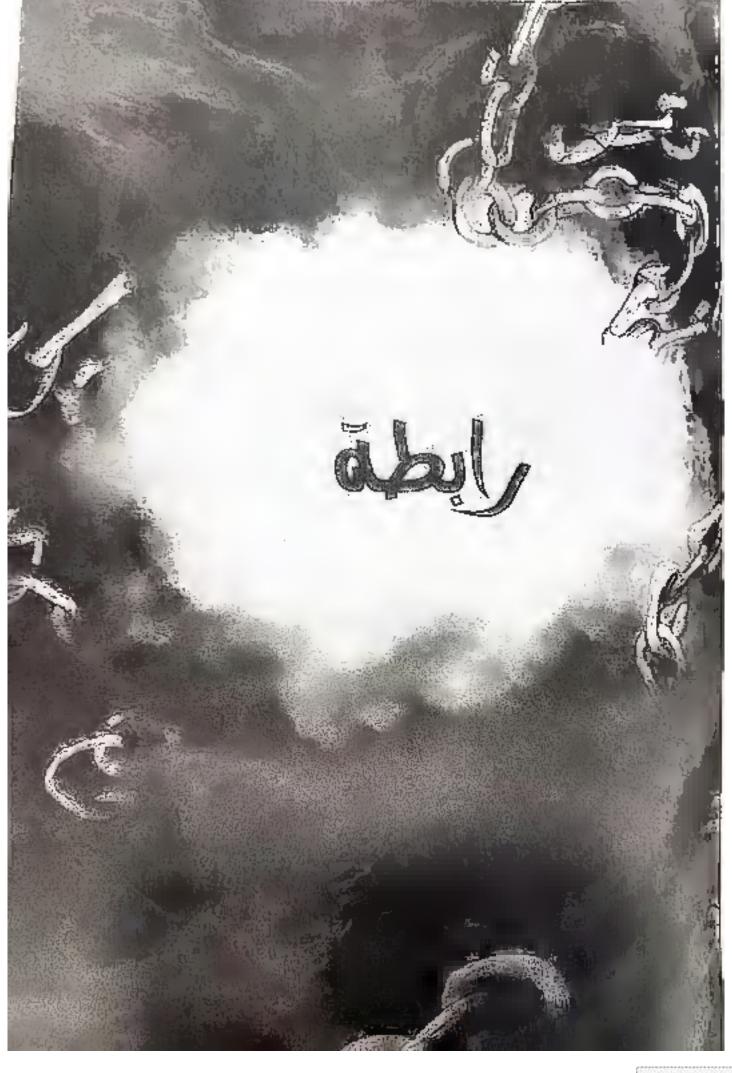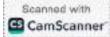
التفتَ رأسها غريزياً إلى مكان ما وكأن العنقي هو من يتحكم بجسدها، وبالفعل، ظهرَ الثقب الناري الناقل للعنق من ذلك المكان بعدها ببرهة، تموَّج الثقب قليلاً ثم بدأ بالتشكل على هيئة سبارك، تلاشى الضوء شيئاً فشيئاً حتى استطاعت رؤية وجهه الحادّ الملامح، توترت لرؤيته فقد كان آخر لقاء لهما هو خلال المحاكمة قبيل الحرب.

أرادت التقلص والاختفاء لتذكرها ذنبها والجرم الذي اقترفته، رغم أن سبارك قام بإعلان براءتها إلا أنها لم تتجاوز فعلتها، كان منظر الجثث المتفحمة يعود إليها كلما حاولت نسيان الماضي، فتقبلت حقيقة انه أمر لن يمحى من ذاكرتها في النهاية.

وضع أليكس ذراعه فوق ظهر مقعدها وداعبَ كتفها بأطراف أنامله وكأنه يذكرها بوجوده، يذكرها بمكانتها وباللقب الذي تحمله، ومع كل حركة من أصابعه فوق كتفها استقامت أكثر حتى استطاعت رفع رأسها والنظر إلى سبارك بثقة الملكة، ثم حيّته بإيماءة صغيرة، توقفَ سبارك في مكانه للحظة محدقاً فيها، ثم تتبّع بنظراته يد أليكس قبل أن يعيد انتباهه إليها، بعدها سمعت عُنقي سبارك بداخل رأسها يقول:

«أمر مثير للاهتمام».
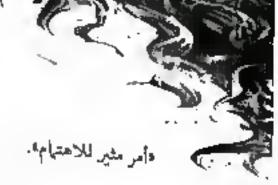
رفعت حاجبها بتساؤل صامت، بينما تقدَّم وجلس على الكرسي الفارغ، رحَّب به أليكس:

«أهلاً بك يا سبارك».

لم يكن المنقي أنيقاً في ثيابه فقط، بل في تحركاته كذلك، وهو ما يجعل كل من يوجد في حضرته يتعجب من أمره، فقد تناقضت ملامحه الجميلة الحادة مع صوته السميك المنخفض، وقد تكون تحركات جسده الهادئة مريحة للبقية إلا أنها كانت تثير الرهبة في كيارا، فقد شبَّهتها بتحركات سمك القرش، هادئة وسلسة حتى تنقض على فريستها بدون سابق إنذار، ولولا علمها بأنَّ العُتق يتم اختيارهم بناءً على نقاء قلوبهم لما جلست في مكانها بارتياح.

أومأ له سبارك ثم نظر إلى جميع الحاضرين قائلاً بصوته الغليظ:

«المكان ممتلئ، هل جميعكم بانتظاري؟»

أجابه أليكس: «كنا نحاول تفسير بعض الأمور التي لم نستطع فهمها سابقاً».

أمالَ رأسه قليلاً بفضول: «هل هناك ما أستطيع تفسيره لكم؟»

رفع كتفه بشكل طفيف: «لا أظن ذلك».

لكن كيارا لاحظت أصابع وارويك وهي تطرق على الطاولة بتردد، وعلمت ما بداخله من أسئلة فبادرت:

«في الحقيقة...»، وعندما التفتَ الجميع إليها تماسكت مدعيةً عدم توترها من سبارك: «هناك أمر أريد سؤالك عنه».

أومأ يحثها على المتابعة فقالت: «أريد سؤالك عن الرابطة المقدسة».

ابتسمَ قليلاً: «تقصدين الأزواج المقدرين؟»

شعرت بأن نبرته تحمل بعضَ السخرية، فشدت أصابعها لإخفاء انزعاجها وتابعت من أجل صديقها:

«ما أعرفه هو أنه أمرٌ نادر الحدوث، أليس كذلك؟»

أكَّد لها: «صحيح، هو نوع من توافق عالٍ بين مخلوقين، قد يكون توافقاً بين قواهما، أو هالاتهما، أمر لا يتكرر حدوثه كثيراً».

همهمت متفهمة ثم ألقت بالسؤال الأهم: «هل... هل يمكن أن تحدث الرابطة بين مخلوقين من أجناس مختلفة؟»

حينها اتسعت ابتسامته وقال بصوت منخفض ناقلاً نظراته بينها وبين أليكس: «لكنها حدثت بالفعل».

تجهّمت في ضياع لبرهة، وبعد أن استوعبت مقصده، فغرت فمها والتفتت إلى أليكس بسرعة، ثم ردّت عينيها إلى العتقي مرة أخرى بالسرعة نفسها حتى كادت أن تؤذي عنقها، قالت بصدمة وهي تشير بإصبعها بينها وبين أليكس:

«هل.. هـ.. هل تقصد.. أننا..»

حينها عقدَ حاجبيه قليلاً: «ألم تستنتجي أن ما بينكما رابطة مقدسة؟ الأمر واضح للغاية».

كانت إجابتها عبارة عن أصوات غير مفهومة وفمها ما زال مفتوحاً بعدم تصديق: «ء...ء..»

التفتت إلى أليكس ووجدته ينظر إليها بابتسامة جانبية، مستمتعاً بارتباكها وكأنه على علم مُسبق بالأمر، شهقت مغطيةً فمها بيديها، فرفع كتفه مبرراً:
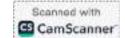
«لقد شككتُ بالأمر قبل فترة، سألتُ فانكا قبل اختفائه وتحققت منه»، همت بسؤاله عن سبب إخفائه لكل ذلك، لكنه استبقَ سؤالها مضيفاً بنبرة هادئة وجدية: «أردتُ أن تستشعري وجودها بنفسك».

كرّر مبارك: «الأمر واضح، هالتاكما تبدوان وكأنهما تتراقصان على نغم واحد، تستجيبان وتتجاوبان بعضهما مع بعض».

تحدّث واورويك موجهاً سؤاله إلى صديقه: «متى بدأت بملاحظة الرابطة؟ فلم تكن موجودة عند ذهابي».

استدارَ أليكس إلى كيارا وأجابه ناظراً إلى عينيها: «لقد حدث ذلك في تلك الليلة».

شحبت متفاجئة والتفتت إلى واورويك الذي حملَ وجهه تعابيرَ مشابهة لتعابيرها، ثم أعادت نظراتها بارتباك:

«أي ليلة؟»، لكنه قبل أن يجيب استدارت إلى واروبك مبررة: «لا توجد ليلة!»

أغمضَ عينيه زامّاً شفتيه باشمئزاز، فقالت بصوت مرتفع مرتبك: «لا توجد ليلة! أقسم لك»، نظرت إلى أليكس وأمسكت بقميصه تهزه بعنف: «أخبره، أخبره بسرعة».

لكنه كان يحاول منع نفسه من الابتسامة بدون جدوى، سأل مدعياً البراءة: «أخبره بماذا؟»

صاحت بانفعال وإحراج: «لا ليلة!!»

انفجرَ ضاحكاً بطريقة غير معتادة منه، لكنه لم يتمكن من قمعها أكثر، فألقى برأسه إلى الخلف وصدى صوت قهقهته يتعالى في القاعة الملكية، بينما أكملت هي محاولات إقناع صديقها الذي كان يهز رأسه بخيبة أمل فيها، ولولا هلعها لجزمت بأن زي كان يضحك كذلك بصوت منخفض، وبعد لحظة من الفوضى العارمة في المكان تمالكَ الملك نفسه وأوقفَ ضحكاته وتنحنح منظفاً حنجرته ثم أخيراً قال:

«قصدتُ الليلة التي طلبتُ فيها يدك للزواج يا كيارا»، فهدّؤوا جميعاً وحدّقوا فيهما بينما أكملَ ناظراً إلى الخاتم في يدها: «لقد شعرتُ بها في اللحظة التي وضعتِ فيها الخاتم بإصبعك».

سأل سبارك: «ماذا عنكِ؟ ألم تشعري بأي اختلاف حينها؟»

فكرت قليلاً ثم قالت: «كيف أميّز المشاعر التي تعني الرابطة؟»

أجابها واروِيك: «التملك، بالطبع هناك التعلق والحب وكل ذلك، لكن أهمها هو الشعور بأن ذلك الشخص ينتمي إليكِ».

وعندما وجدَ نظرات الاستغراب تبدو منها قال مفسراً: «والداي زوجان مقدَّران، ويتحدثان عن الرابطة كلما سنحت لهما الفرصة، يخبراننا بأن كلًّا منهما يملك الآخر ولا يريد تركه مهما كان الثمن».

همهمت متفهمة فكرّر العنقي سؤاله بفضول: «هل شعرتِ بالتملك تلك الليلة كذلك؟»

صمتوا جميعاً ولم ينتبه أي منهم إلى الطريقة التي مالوا بها نحوها في انتظار إجابتها، فقالت ببساطة بعد برهة:

«لا».

أبقى الصمت حضوره في القاعة للحظة، واسترق بعضهم نظرات خاطفة إلى أليكس حتى شعرت أنها ردت الصاع له صاعين لإحراجها أمامهم، ثم أكملت إجابتها ناظرةً إلى عينيه:

«لم أشعر بها تلك الليلة، فقد شعرت بذلك عندما أتيت إلى المملكة لأول مرة».

ارتفعَ حاجباه بدهشة بينما ابتسمت هي له بحب، لكن واريك قاطع نظراتهما متمتماً:

«لا عجب في أنها بدت ذابلة عندما ظننت أنك تركتها، كجسد بلا روح»، تنهّد محدثاً نفسه: «رابطة مقدسة».

قال سبارك بنبرة متسائلة: «لمَ سألتني عن الرابطة إن لم يكن الحديث عنكما؟»

حينها أخبرهم واريك بما حدث مع دافيان وكيف قادهم إلى سبارك ليجيب عن تساؤلاتهم، بينما أومأ هو له حتى انتهائه من الحديث ليقول مفسراً لهم:
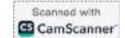
«العنق هم من وضعوا قوانين هذه الممالك، وهم المحافظون عليها، لذا عندما قام آلدريتش جرانت[1] بالزواج من تلك الساحرة وكسر تلك القوانين، سقطت جميع القواعد التي قام عليها العالم، ونحن الآن نتعرف على القوانين الجديدة، أصبحَ كل شيء جائزاً».

ابتسم ناظراً إلى كيارا باستمتاع: «من النادر رؤية أمر جديد بعد العيش لوقت طويل، لكن قصة عائلة جرانت دائماً ما تثير تعجبي».

تقوقعت حول نفسها شاعرةً وكأنها هي من قامت بكسر القوانين، قالت بصوت منخفض: «لهذا السبب ستظهر المختارة».

«لا» أجابها مصححاً: «بل عندما تعم الفوضى، ولم يعد هناك ما يمكن إصلاحه».

تخيلت شكل العالم واقعاً في فوضى لا رجعة منها، فتذكرت الجثث المتفحمة التي تركتها في الغابة وتخيلت عالماً مليئاً بها، ورغم أنها عاهدت نفسها على التحسن إلا أنها لم تستبعد أن تكون هي سبباً

---

١ – والد كيارا.

للدمار، تذكرت كلمات واروبك بأن جميع المهجنين يجلبون الدمار معهم، وتساءلت كيف ستكون هي مختلفة عمن سبقوها، قالت بصوت مكتئب مستسلم وكأنها تحدث نفسها:

«ألا يعدُّ وجود هجينة عنقية بداية لانهيار العالم؟ ألم تكن الحرب بداية للفوضى التي تتحدث عنها؟»

وعندما لم يجبها سبارك فوراً رفعت نظراتها إليه ووجدت التعجب في عينيه، نقل نظراته بين أليكس وواروبك، ثم ارتفع حاجباه كما لو أنه وجد إجابة تعجّبه في وجوههم، صمتَ قليلاً ثم تنهّد وقال:

«إن كان وجود هجين جديد سبباً لانهيار العالم، فقد قامت الفوضى قبل ولادتك بعقود طويلة».

رفعَ يده مشيراً إلى أليكس: «أول عُنقي يتحول إلى مصاص دماء، هل بدأت الفوضى منذ تحوله؟ قامت حرب حينها كذلك، لكن الحقيقة هي أن مصاصي الدماء والسحرة بينهم تاريخ حافل بالحروب، تحوّل أليكس وولادتك لم يكونا سوى شرارة لفتيل ينتظرون اشتعاله».

ابتسمَ حينها وأكمل بنبرة حملت الانبهار: «وإن كنتِ تقصدين أن أفعالكِ ستكون سببَ الفوضى، فلا أجد ما يقلقني، تحكمك بقوتك في هذا العمر الصغير قضية لا يكف العنق عن التحدث عنها».

حدقت فيه بعدم فهم: «تحكمي بـ...؟ العنق يتحدثون عني؟»

انتقلت نظراته من عينيها إلى وجنتيها حيث آثار دموعها السابقة ثم قال: «هل تظنين أن بقية العنق يبكون دموعاً حارقة عندما يقمعون قواهم لوقت طويل؟»

رفعت يدها ولمست وجنتها لا شعورياً بينما أكملَ مجيبًا عن سؤاله: «لا، بل تذوب أعضاؤهم من الداخل لعدم قدرتهم على التحكم بالنار، أما أنتِ فتبقينها مقيدة بإحكام، سيطرتك فريدة من نوعها».

نظرت إليه بضياع: «كيف سمعَ العنق بمسألة سيطرتي؟»

رفعَ كتفه وكأن ما سيقوله أمر اعتيادي: «العنق يجتمعون ويتحدثون بينهم». أشار إلى رأسها: «والعنقي الذي بداخلك يحدثهم عن قواكِ دائماً».

حينها فهمت أن الاجتماع بين الطيور وليس بين حاملي القوى،

قالت باستنكار:

«العنقي الذي بداخلي يتحدث لبقية العنق عني؟»

أجابها بإيماءة، لكنها لم تكن مستنكرة تحدّثه، بل صمته معها إلى الدرجة التي تشعرها بعدم وجوده أحياناً، قالت بتساؤل:

«ألهذا السبب أشعر أنه غائب كثيراً؟ لأنه يذهب للتحدث مع بقية العنق؟»

مال أليكسن إليها باهتمام خالطه الاستغراب: «غائب؟»

تحدّث عنقيها حينها بنبرة أقرب إلى التضجر: «أنا موجود دائماً».

تجاهلته وأكملت حديثها: «أشعرُ أنه دخل في سبات متواصل منذ انتهاء الحرب، ظننت أن السبب كان انتهاء الخطر لأنه يتحدث عند الحاجة فقط، لكنه كان يتحدث كثيراً في ما مضى، أما الآن فبالكاد أشعر بوجوده، وهو ما لا أفهمه، فقد قرأت أن العنق يكادون لا يخطئون أبداً لأن العنقي بداخلهم يقودهم دائماً، لكن العنقي الخاص بي لا يمنعني من اقتراف الأخطاء»

التفتت بأعين متسائلة إلى أليكس فقال بعدم يقين: «قواعد عالمنا لا تنطبق عليكِ، لذا من الصعب تفسير الأمر بشكل منطقي».
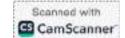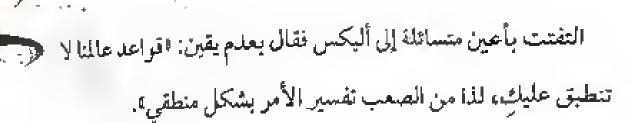
نظرت إلى سبارك الذي بدا متردداً لبرهة قبل أن يقول: «ربما العنقي الذي بداخلكِ في سبات بالفعل، وذلك لأن صاحبه في سبات».

لم تفهم مقصده، هل يقصد أن روحها في سبات؟ ضميرها؟ وعندما لم تجد تفسيراً لإجابته، شعرت أنها ستصاب بالصداع، ففركت عينيها قائلة بعدم فهم:

«لكنني مستيقظة».

أومأ بهدوء ثم قال ببطء وكأنه يحاول تخفيف الصدمة عليها: «لكنكِ لست صاحبة هذا العنقي، أنتِ هجينة، ولم تقم روح العنقاء باختيارك، وبالتالي لا تملكين عنقياً خاصّاً بك».

أنزلت يديها إلى الطاولة بنفاد صبر: «الذيّ عنقيّ، أنا متيقنة من وجوده، كما أنك سمعت صوته ســ...»

قاطعها: «هذا العنقي يعود إلى والدكِ».

طالما أنت بجانبي
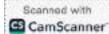
استلقت كيارا في جناح أليكس، على الجانب الأيمن من فراشه حيث يستلقي هو عادةً، أرادت الشعور بوجوده معها، فقد كانت رائحته كفيلة بجلب الدفء إلى قلبها، وبثّ إحساس بالطمأنينة بداخلها، كانت بحاجة إلى تلك المشاعر بعد الذي أخبرها به سبارك.

تخيلت حياتها ككهف مظلم طويل، تشق طريقها عبره لاكتشاف خفاياه كل يوم، لكنها كلما أنارت جزءاً منه اكتشفت ركناً مظلماً آخر، كلما ظنت أنها وصلت إلى نهايته وجدت أن نهايته أبعد بكثير مما توقعت.

الكثير من الألغاز، الكثير من الأسرار، والكثير من الأسئلة التي لن تجد إجابتها أبداً.

لم يخبرها سبارك بأي شيء آخر، فلم يعلم هو بدوره كيف حصلت على العنقي أو لماذا، كل ما كان يعلمه هو أنه كان مِلكاً لوالدها، وأن اسمه رياز، وهو أمر آخر تعلمته اليوم، العنق بداخلهم ليسوا مجرد جزء صغير منهم، بل هم كيان خارجي منفصل، يحملون أسماء خاصة بهم، يعرفون بعضهم بعضاً ويجتمعون كل فترة ويتناقشون في أمور بقية المخلوقات.

وعنقيها، أو عنقي والدها بالأصح، اسمه رياز، أما سبارك فأخبرها بأن اسم عنقيه هو مورت، وهو السبب في معرفته أن رياز كان، أو ما زال عنقي والدها، كان رأسها يضجّ بالأسئلة، أفكارها فوضوية ولا تعلم كيف ترتبها، ولكنّ هناك سؤال أهم من البقية، وآلمها كلها مرّ بها:

لماذا لم يخبرها رياز بالحقيقة؟ لماذا لم يخبرها بأنه لا ينتمي إليها؟ لماذا تركها تصدق أنها تشبه بقية العنق؟

حاولت إقناع ذاتها بأن تلك الأسئلة غير مهمة، لكنها لم تستطع منع الإحساس بالخيانة لإخفائه أمراً كهذا، وحاولت ألا تفكر كثيراً لكنها لم تستطع ذلك، ولم تتمكن من ردع أفكارها القديمة عن العودة، لطالما كانت منفصلة عن العالم، وحيدة في عالمها، فكونها يتيمة أشعرها بعدم انتمائها إلى أي مكان، وبالرغم من انتمائها إلى ميتم هاربر إلا أنها كانت معزولة عن بقية الأيتام أيضاً، ولكن عندما سمعت صوت رياز بداخلها، شعرت أنها تنتمي إلى فئة ما، وإدراكها الآن أنه ليس ملكاً لها أعاد إحساس العزلة إلى صدرها، رغم اختلاف الظروف المحيطة بها إلا أنها دائماً ما تكون الطرف المكروه، سابقاً يتيمة، والآن هجينة.

أخذت نفساً عميقاً وتنهدت بصوت مرتفع، ثم أجبرت عقلها على التوقف عن التفكير بالأمر أكثر والشفقة على نفسها، حينها سمعت صوت طرق خفيف على الباب، فابتسمت رغماً عنها.

أليكس.

كان ذلك عزاءها الوحيد، فقد كانت تنتمي إليه بقدر انتمائه إليها بكل تأكيد، سمحت له بالدخول، بالرغم من أن الجناح جناحه، إلا أنه انتظر إذنها، اقترب من الفراش حتى وقف بجانبها بصمت، وعندما أدارت نظراتها إليه أمال رأسه قائلاً:

«هذا مكاني».

هزت رأسها باستسلام مبتسمة: «أنت وهَوسك في مكانك، لا ضيرَ في المشاركة، أتعلم ذلك؟»

جثا بجانب الفراش ببطء، ثم أجابها مبتسماً بدوره: «لقد شاركتكِ قلبي، ألا يكفي ذلك؟»

انفجرت ضاحكة حتى دمعت عيناها وهي تقول: «أرجوك لا تقل كلمات مبتذلة، واروِيك يجدنا مقززين سلفاً».

ونظراً لانغماسها في الضحك، لم تنتبه إلى عينيه اللتين رقتا لسماع ضحكاتها، تأملها بحنية وكأن ذلك الصوت هو منبع سكينته، تأمل ابتسامتها وعينيها الدامعتين كمن يكتشف تفاصيل وجهها لأول مرة، وعيناه ترتشفان حباً عميقاً ودهشةً خفية.

وبعد أن انتهت من الضحك، تنهدت ومسحت دموعها، ثم التفتت نحوه مستلقية على جنبها واضعةً يديها أسفل رأسها، ترددت قليلاً، فرفعَ يده ومسح على وجهها بلطف، مبعداً خصلات الشعر التي وقعت على وجنتها، ثم قال مشجعاً:

«ما الذي يدور في خلدكِ؟»

كانت تحاول الامتناع عن الارتباك من لمسته، لكنها فشلت واضطربت نبضاتها، فتساءلت: متى سينتهي تأثيره عليها؟ وعندما انتبهت إلى ابتسامته الصغيرة التي لم يحاول منعها على الأقل، علمت أنه رأى أثر لمسته، تنهدت بامتعاض ثم استطردت:

«ما الذي قصدهُ سبارك بكلامه؟ بأن العنق يتجدثون؟ هل هناك منزل سري يجتمعون فيه؟»

أجابها ويده تداعب شعرها، بينما كانت تتعارك داخلياً لتعير انتباهها لما يقول عوضاً عن الهوس بلمساته:

«هنالك خيوط خفية تربط طيور العنق بروح العنقاء، هناك يلتقون ويتحدثون بعيداً عن أصحابهم الذين يقومون بقيادتهم».

تساءلت بعينيها عمّا يعنيه ذلك فوضّح لها أكثر: «تخيّلي الأمر بهذه الطريقة، لنقل إنَّ بداخلكِ غرفة فارغة حيث يقبع العنقي، وبداخل سيارك مكان شبيه بذلك، بين هاتين الغرفتين خيط كالممر، في ذلك الممر تستطيعان التحدث فيما بينكما من دون البقية، طيور العنق لديها خيوط تربطها بمكان آخر تجتمع وتتحدث فيه فيما بينها وبين روح العنقاء كذلك».

فكرت في الأمر قليلاً ثم سألت: «هل تظن أنهم يعلمون كيف حصلتُ على رياز؟»

تنهّد مجيباً: «لا أعلم».

صمتت لتقلّب الأمر برأسها أكثر، لكنّه أنزل يده من شعرها ومسحَ على كتفها برفق قائلاً:

كان يعلم طريقة تفكيرها، وأنها ستعود إلى كره نفسها، لكنه لم يستنتج أنها لن تصل إلى تلك المرحلة مرة أخرى لوجوده معها، قالت بدون تفكير:

«أنا بخير طالما أنت بجانبي».

أدركت انزلاق أفكارها إلى فمها متأخرة، فاحمرت وجنتاها وتمنت لو تستطيع استعادة ما قالته، أما هو فصدمَ من صراحتها واتسعت عيناه لبرهة قبل أن تلين وترق، ابتسمَ بلطف وقال مداعباً:

«لا مجالَ للهرب على أي حال، هناكَ رابطة مقدسة لن نستطيع قطعها».

زفرت بعدم تصديق، محاولةً ادعاء أن كلماته تزعجها، بينما كانت الحقيقة أنها تخجلها، كانت معرفتها بأن أليكس لن يتخلى عنها أبداً ترفرفُ بقلبها، مشاعر التملك التي يشعر بها تجاهها لم تُشعرها بالاختناق، بل بالأمان، والأهم من ذلك أن تلك المشاعر كانت متبادلة.

همّت بالنهوض، فوقفَ ومدَّ يده إليها وساعدها رغم عدم احتياجها إلى ذلك، لكنها أحبت اهتمامه بها، وقبل أن تغرق في مشاعرها وأفكارها نحوه قال بجدية:

«لقد طلبتُ من وارويك استدعاء رو، وقام بالرد معلماً بقدومه الليلة، رئيسة الخدم تقوم بتجهيز مائدة الطعام من أجلك، لذا تناولي شيئاً أولاً، ثم سأخبركما بالمستجدات بعد وصوله».

قالت بتوجس: «مستجدات؟»

تنهد: «هناك بعض الأمور التي يجب عليكِ معرفتها».

انعقدَ حاجباها وقالت ببعض القلق: «هل الأمر خطير؟»

أومأ مجيباً: «بعض الشيء، قد تختلف وجهة نظري عنك».

رمقته شاعرةً بالتوتر مما يخفيه، فمسحَ بإبهامه كفَّ يدها لتثبيتها، كرهَ اضطرابها وخوفها، لذلك كان يفضل إخفاء كل شيء عليها، فقد آثرَ تحمل الثقل كاملاً على مشاركتها ورؤية تعابيرها تلك، أخيراً، قال بصوت هادئ مبتسم:

«ما رأيك في أخذ نزهة معي بعد تناول الطعام؟»

بدا متردداً لبرهة، وتساءلت إن كان يظن أنها ستقوم بالرفض، زمّت عينيها وشفتيها محاولة منع ابتسامتها من الظهور:

«نزهة؟»

لكنها لم تتمكن من إرباكه أكثر، فقد بدأ إصبعه برسم دوائر في باطن كفها مما جعل أنفاسها ترتجف، حينها ابتسم بانتصار قبل أن يكمل:

«نزهة في المحمية».

اشتاقت إلى المحمية السحرية الخلابة التي يطل جناحها عليها، وتذكرت كم كانت تحب قضاء الوقت هناك، فأومأت بحماس مما جعله يضحك بخفة ويقول:

«حسناً إذاً، سآتي لاصطحابكِ بعد تناولك للطعام».

أبناء الغراب

قبل عدة أيام
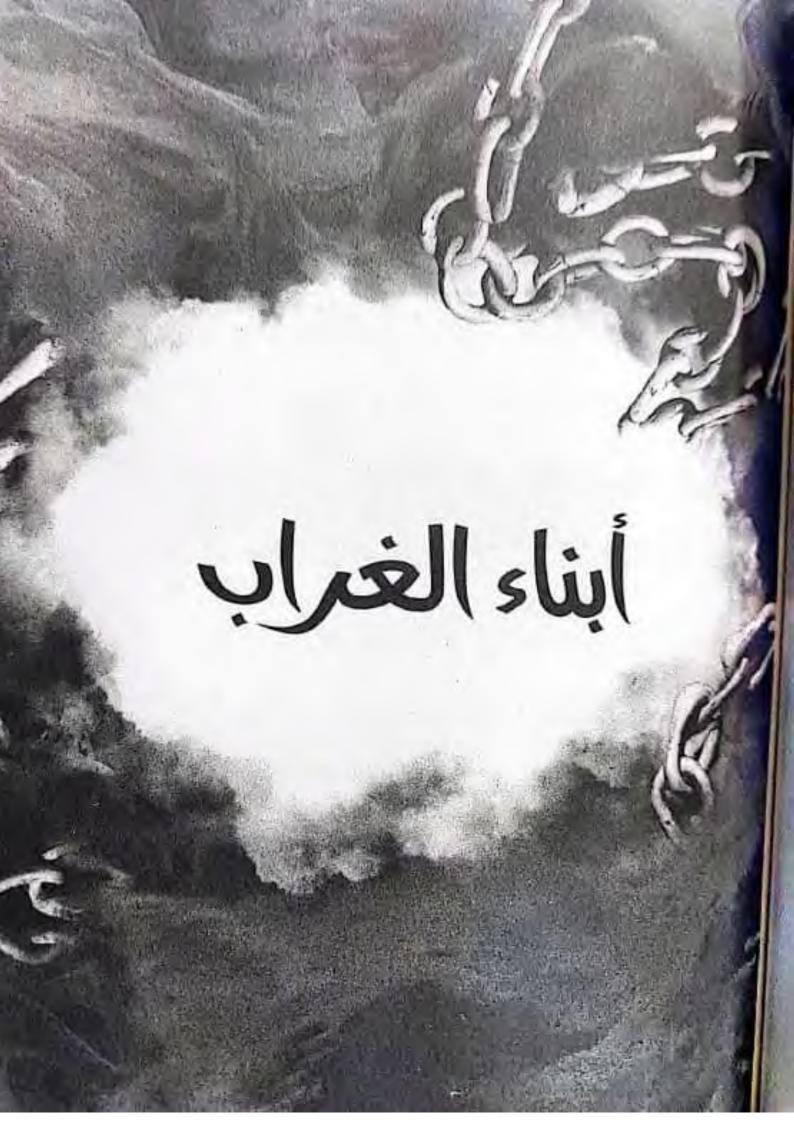
وصلَ رو إلى مكان اللقاء المتفق عليه مع عمّه سايفر، كان عمّه عاملاً مساعداً في قلب الموازين في الحرب بعد أن كانت خسارتهم محتومة، فقد كانت جيوش السحرة كبيرة بينما كان مصاصو الدماء يتدربون ويجنّدون كل من تقدّم للانضمام إليهم، وبعد أن بدأ اليأس بالتسلل إلى قلوبهم، ظهرَ عمه برفقة سرب كبير من أبناء الغراب لينضموا إليهم ويرجحوا كفتهم.

انتظره سايفر برفقة شابين يقفان على جانبيه، تمعّن رو فيه مجدداً فلم يره منذ وقت طويل، شعره طويل ناعم مسرّح إلى الخلف بعيداً عن وجهه، وتخلل سواده بعض الشيب، حاجباه كثيفان بحيث بدت عيناه غائرتين أسفلهما، أنفه حاد ووجهه هزيل، كان يشبه رو كثيراً عدا أن سايفر تغطّى وجهه بشارب ولحية خفيفين مشذبين، كما أنه كان طويل القامة كالشابين اللذين وقفا خلفه، ارتدى عمه قميصاً بسيطاً، وبالرغم من أن جسده لم يكن عريضاً إلا أنه بدا صلباً، وعند اقتراب رو منهم قال مرحباً:

«مرحباً بك في أليسارك، كيف كانت رحلتك؟»، ثم تداركَ نفسه متذكراً: «صحيح، أنت لا تسافر كبقية الغربان».

حكَّ رو عنقه من الخلف ضاحكاً بارتباك، فلم يعلم موقفهم من اختلاط دمه، كانت عشيرته السابقة تبدي تقززها منه بشكل واضح، لكنه لم يمضِ ما يكفي من الوقت مع أبناء الغراب ليعلم مشاعرهم تجاه المهجّنين.

أجابه بضحكة مرتبكة: «لقد انتقلتُ كما يفعل السحرة».

جبسَ أنفاسه بانتظار ردّهم، لكن عمّه أشار إلى الشابين وبدأ بالتعريف بهما بلا اكتراث، وكأن الأمر لا يهمه.

«أعرفكَ بابنيّ»، قال مشيراً إلى الشاب عن يمينه: «هذا لانس، ابني الأكبر»، ثم أشار إلى الذي وقف عن يساره: «وهذا رينجر، ابني الأصغر»، ثم عقدَ يديه خلف ظهره مكملاً: «بينهما ابنتي أونيكس، لم تستطع الحضور اليوم معنا لكنني سأعرفك عليها لاحقاً».

نظر رو إلى لانس الذي رمقه بنظرات باردة بدت خالية من الحياة،

كان شعره طويلاً كأبيه، وجهه هزيل وأنفه حاد وشفاهه نحيلة، كأنه نسخة مصغَّرة من سايفر، حاجباه كثيفان وعيناه لم تكونا صغيرتين، بل ناعستين، أومأ له بتحفظ فبادلهُ لانس بإيماءة خفيفة.

توجَّس منه لسبب ما، لم يعلم إن كانت نظراته التي مثلت معنى الموت، أم ملامحه الحادة، أم الغراب الذي كان على كتفه طوال الوقت، كان جسده نحيلاً كوالده، لكنّ قميصه الأسود والذي لم يتحمل عناء إغلاق أزراره، كشفَ عن عضلاته التي لا يمكن أن تُكتسب بتمارين رياضية بسيطة، بل بتدريبات قاسية.

التفتَ ناظراً إلى رينجر الذي أومأ مرحّباً بابتسامة واسعة، كان شعره لا يغطي أذنيه، وجهه عريض الفكّين، حاجباه كثيفان أكثر من الآخرين، لكنْ عيناه واسعتان ومفعمتان بالحياة.

كتفاه عريضان وجسده ضخم مفتول العضلات، وبالرغم من ارتدائه لقميص واسع، إلا أنه كان ضيّقاً فوقه، كان ثلاثتهم طوال القامة، لكن رينجر كان أطولهم، فبدا رو ضئيلاً بالقرب منهم، أشار سايفر إلى الغابة خلفه وقال:

«أهلاً بك في غابة أبناء الغراب، اتبعني».

بدأ بقيادته بين الأشجار التي عزلت ضوء الشمس بنسبة كبيرة، لم تكن الأشجار كثيرة، لكن أغصانها تفرعت إلى الأعلى، وتمايلت في عدة اتجاهات لتغطي كل شجرة أكبر مساحة ممكنة، ثم تداخلت فيما بينها حتى أصبحَ من المستحيل تمييز أي غصن ينتمي إلى أي شجرة، فشكلت سقفاً من الأوراق والأغصان فوقهم.

بعدها بدأت بيوتهم بالظهور، فبدأ برؤية الأبواب على جذوع الأشجار، ثم النوافذ، ثم السقوف حتى فغرَ فمهُ لفرط دهشته، فلم يعلم إن كانت البيوت جزءاً من الأشجار؟ أم أن الأشجار جزء من البيوت؟ فقد كانت كلتاهما مدموجةً مع الأخرى بطريقة سحرية.

أكملَ طريقه خلف عمّه وعيناه تدوران حول المكان بانبهار، كانت المنازل بحجم الأكواخ، أو أكبر منها بعض الشيء، وكان سايفر يتحدث أثناء سيره ويروي له بعضَ تاريخ أبناء الغراب، فأدرك أنه كان جاهلاً وأمامه الكثير لتعلمه.

لسبب ما، ظن أن علكة أليسارك تعود إلى أبناء الغراب، لكنه الآن فهمَ أنها لجميع المتغيرين، ويتقاسمون المناطق بينهم بودّ، فمنهم من يعيش على الساحل، ومنهم في الكهوف ومنهم في الأودية، أما أبناء الغراب فاستوطنوا الغابة.

حاولَ تحليل ما يراه حتى دعاه سايفر للدخول إلى منزله.

توقفَ متأملاً البيت الذي كان أكبر حجماً من البقية، كان هناك جذع متصل بأحد أركانه..

أو المنزل متصل بالجذع، لم يعلم أيها الأدق، لكنه تتبّع بعينيه ارتفاع الجذع حتى سقف المنزل، ثم تفرّع إلى عدة أغصان، مرتفعاً أكثر حتى أخذت أوراق تلك الشجرة مكانها من السقف العشبي الذي حجب أشعة الشمس.

أما في الداخل، فقد كان منزلاً ريفيّاً عاديّاً، كانت هناك مدفأة في منتصف حائط، وُضعت أمامه أريكتان متوسطتا الحجم، وحائط آخر مليء برفوف اكتظت بالكتب.

من الجهة الأخرى كان المطبخ الصغير وأمامه طاولة الطعام الدائرية، كانت أجواء المنزل مرحبة، وتشعره بالارتياح والألفة، فظن أنه كان يعود لوالده رونالد، لكنه علم لاحقاً أن والده لم يسكن فيه قط، وأنهم قاموا بتجهيز مسكن والده القديم ليسكن فيه خلال إقامته.

قال عمّه: «لقد قمتُ بتجهيز المكان بنفسي لحرصي على إبقاء مقتنيات أخي سليمة، أردت الحفاظ عليها من أجلك، ولك حرية التصرف بها بعد ذلك، المنزل صغير بعض الشيء، لم يكن رونالد شخصاً يحب التكلف، قد يناسبك المكان الآن لكن إن شعرت بعد الزواج أنه غير مناسب، نستطيع تدبير مكان أفضل...»

قاطعه رو بعدم فهم: «زواج؟»

تحدَّث رينجر بصوت أجش جهوري يتناسب مع هيئته بطريقة مثالية: «نحن في موسم التزاوج»، ثم فرك كفيه بعضهما ببعض: «أنت محظوظ، فهذا العام الفتيات المقبلات على الزواج أكثر مما سبق».

ابتسم وحرَّك حاجبه مداعباً: «يبدو أن هذا الموسم سيكون محموماً».

لكن أمام ابتسامة رينجر المتشوقة كان وجه رو المرتاع، قال متلعثماً:

«زوا... أنا.. الزواج هو... لا أستطيع.. لا».

هزَّ رأسه ثم قال بحزم: «لا أريد الزواج».

تبادلَ ثلاثتهم النظرات حتى تنهد سايفر: «الزواج ليس شرطاً للقيادة، لكنني أردت تزويجك حتى يكون انتقال المنصب سلساً وبلا مشكلات، لا أظن أنهم سيعارضون، لكن لضمان...»

قاطعهُ مرة أخرى بصوت هلع: «قيادة؟ قيادة ماذا؟ قيادة من؟»

أمالَ عمُّه رأسه موضحاً باستغراب: «قيادة أبناء الغراب».

قال بصوت مرتفع لذعره: «قيادة أبناء الغراب؟ لمَ سأقود أبناء الغراب؟ أنا لا أريد قيادة أبناء الغراب!»

اقتربَ رينجر منه وضربَ كتفه، مما جعله يفقد توازنه ويكاد

أن يقع، فأمسكَ به ابن عمه لافّاً ذراعه حول كتفيه قبل أن يقول ضاحكاً:

«اهدأ وتنفّس، هل تصاب بالهلع هكذا دائماً؟ إن لم تُرد الزواج فلن نقوم بتزويجك قسراً».

«حقّاً؟»

قال بتعجب ثم نظر إلى عمه الذي أومأ مؤيداً ما قاله ابنه، فأخذ نفساً عميقاً وقال بإحراج: «أعتذر لانفعالي، لم تكن عشيرتي السابقة تقبل الطعن في قراراتها، لذا ظننت أن الأمر جبري».

ابتسمَ سايفر بتعاطف: «القيادةُ حقك الشرعي من بعد والدك، لذا أردتُ إعطاءك مكانتك، لكنني لن أجبرك على أي شيء يا رو، لك كامل الحرية في البقاء أو الرحيل، لكنني سأكون مرتاح البال إن بقيت».

ابتسمَ رو ممتناً لكلماته، لكن ابتسامته لم تدم حين تحدّث لانس بصوت بارد منخفض:

«لمَ أتيتَ إذاً؟»

قال والده بنبرة حذرة: «لانس».

لكنه تابع: «ما الهدف من زيارتك؟»

تردَّد رو قليلاً ثم قال بحزن حاول إخفاءه بفشل: «أردتُ عائلة».

حلقَ به لانس والشك ما زال ينتابه: «لا أطمع في القيادة، لكنني أطمع في عائلة لأنتمي إليها».

ضاقت عينا لانس قائلاً باستغراب: «أليست تلك العنقاء الهجينة عائلتك؟»

تبدلت تعابير رو عندما سمعَ استخفافه بنبرته، وشدّ قبضتيه قبل أن تبدأ ناره القرمزية بالظهور من بين أصابعه، فتراجع رينجر مبتعداً عنه، بينما تحدَّث هو بنبرة مشحونة:

«لا يهمني كيف تتحدث إليّ، لكنك ستتحدث باحترام عندما تذكرها، إن لم تستطع تذكر اسمها، فستدعوها بجلالة الملكة».

ابتسمَ لانس بتعجب، وكأنه رأى ما يرضيه أخيراً، وبعد برهة أومأ بطريقة توحي باعتذاره عما بدرَ منه، وقبوله بأوامر رو الذي أخذ أنفاساً تعيد توازنه، استطردَ رينجر مبدداً الأجواء المشحونة التي عمّت المكان:

«لا أستطيع الانتظار حتى افتتاح موسم التزاوج».

ابتسمَ والده وهز رأسه باستسلام ثم قال: «خذ رو إلى منزل والده ليتجهّز، لم يبقَ الكثير حتى بداية الاحتفال».

اعترضَ رو قائلاً: «لا أستطيع الحضور، فأنا لم أُحضر معي ثياباً غير التي أتيتُ بها».

رفعَ سايفر سبابته باتجاهه آمراً بحزم: «لن تذهب إلى أي مكان، لقد قبلتُ كل اعتراضاتكَ، لن أقبل ذهابك مبكراً، ستُمضي الليلة هنا».

التفتَ إلى لانس موجهاً تعليماته له: «وفّر له ثياباً مناسبة بينما يأخذه رينجر إلى منزل رونالد».
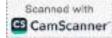
ارتدى رو ما زوَّده به لانس من ثياب في منزل والده الذي كان بالفعل كما وصفه سايفر، مساحة بسيطة احتوت سريره ومطبخاً صغيراً، أمامه طاولة تكفي لشخصين لا أكثر، ومكتبة فيها بعض الكتب التي قرَّر تصفُّحها لاحقاً، جلس بعد انتهائه فوق الفراش والتفتَ إلى المنضدة الصغيرة بجانبه، ثم التقطَ إطار الصورة الوحيدة التي كانت فوقها، كانت صورة لامرأة جميلة ذات شعر بني وملامح جذابة، كانت تبتسم بسعادة بينما تطايرَ شعرها مع الهواء.

إحدى يديها بجانب رأسها كما لو أنها تحاول السيطرة على خصلاتها، بينما مدَّت يدها الأخرى أمامها بانتظار أن يمسكها من كان يلتقط صورتها، كانت الصورة عفوية، مما جعلها أجمل، كادَ رو أن يجزم أنه يستطيع سماع ضحكات المرأة، أن يرى تلك اللحظة كما لو كان حاضراً معهما.

أفزعهُ صوت الطرقات القوية التي كادت أن تحطم الباب قبل أن يأتي صوت رينجر من خلفه:

«هيا يا بن العم، لا أريد أن يفوتني شيء من المرح».

وضعَ الصورة وخرج مسرعاً ليتبع ريشجر عبر الغابة بين البيوت، وعندما كاد أن يسأل عما ينتظرهما، بدأ برؤية الفوانيس المعلقة بأسلاك من فوق الأسطح، ممتدة بين البيوت فتبدأ من واحد وتنتهي فوق الآخر، لتتداخل الأسلاك بعضها ببعض، فتبدو كسقف من الفوانيس المتألقة.

وصلتهُ أصوات الجموع قبل أن يبدأ برؤيتهم، كان الرجال يرتدون ثياباً عادية كخاصّته، ظن أنهم قد يرتدون ثياباً سوداء لموسم التزاوج، لكنها خالفت ظنونه بألوانها وأشكالها المتنوعة، أما النساء فارتدين الفساتين بمختلف تصاميمها، فمنها البسيط ومنها المتكلف ومنها المبتذل كذلك.

وبعد اقترابهم بشكل كافٍ، انتبهَ إلى الساحة الفارغة التي تجمّعوا فيها، والشجرة الكبيرة التي توسّطتها.

كان جذعها ضخماً كما لم يرَ من قبل، ووسط ذلك الجذع باب كبير، تساءل عما أخفت الشجرة بداخلها، فمهما كبر حجم الجذع، لم يكن ليكفي لحمل الكثير بداخله.

شتَّت انتباهه عن الشجرة خفوت الأصوات من حوله، ولم ينتبه إلى أنهم بدؤوا بالتهامس بينهم وباختلاس النظرات باتجاهه حتى سمع صوت رينجر من أمامه:

«لقد ظنَّ الجميع أنك ميت، حتى قمت باستدعائنا إلى الحرب».

التفتَ إليه وتابع: «لقد كانت مفاجأة توقَّع أكثرهم أنها كذبة» ابتسمَ قبل أن يضيف: «والآن يشهدون الحقيقة جليَّة أمام أعينهم».

وعندَ وصولهم إلى مكان وقوف سايفر، نظر إليه رو بطريقة مختلفة، حملت التقدير والامتنان لمعارضتهِ شكوك البقية، وانضمامه إلى صفوف الحرب في وقت قياسي، لكن رو لم يعلم أن سايفر يحمل في داخله الكثير من الألم لعدم معرفته بأن ابن أخيه كان على قيد الحياة طوال تلك المدة، يشعر بالذنب لعدم البحث عنه أكثر، لتصديق الأقاويل التي أخبرته بموته مع والدته.

كان سايفر يقف أمام باب الشجرة الكبيرة التي تنتصف تلك الساحة الفارغة من البيوت والأشجار، وعندما انتبه إلى وصول رو، أشار إليه بالوقوف خلفه برفقة ابنيه، ثم التفتَ إلى الحضور وأعلن:

«فليبدأ الموسم على شرف ابن رونالد».

هتفَ الحضور وارتفعت كؤوسهم ثم بدأت الألحان بالتعالي، حينها انتبهَ رو إلى الفتيان والفتيات الذين كانوا يعزفون بآلات بدائية غريبة، بدت قديمة لكن الأصوات الصادرة منها كانت أجمل مما سمع طوال حياته.

سرحَ بأشكالها وبطرق العزف عليها حتى نسيَ مكانه وما الذي يحدث حوله، إلى أن قام رينجر بلكز جانبه بمرفقه ليجذب اهتمامه لما يجري في الساحة الراقصة.

لم ينتبه فوراً لما قصدَه، فقد كان البعض يتراقصون والبعض الآخر يتجاذبون أطراف الحديث، فالتفتَ إلى قريبه بنظرات متسائلة، أشارَ رينجر بسبابته إلى شاب كان يشقّ طريقه من بين الحشود الراقصة بعزيمة مثبتاً نظراته في مكان ما، تتبّع رو نظرات الشاب لتقع عيناه على مجموعة من الفتيات اللاتي كنَّ يتحدثنَ في ما بينهن، حتى قاطعهنّ الشاب بوقوفه في وسط المجموعة أمام فتاة كانت ترتدي فستاناً أنيقاً وطويلاً، ذا لون أخضر بهيّاً كالتفاح، اتسعت عيناها لبرهة لدهشتها،

استعجلت بتدارك نفسها بينما انحنى الشاب أمامها، ثم وقف وبدأ بالرقص أمام نظرات رو المتعجّبة.

لم يستطع إبعاد ناظريه عنهما، لكنّه انتبه إلى توقف البقية عن الرقص لمراقبتهما كذلك.

سكتَ جميع من في الساحة عدا صوت المعزوفة التي تغيّرت إلى لحن أكثر عمقاً وإيقاع أبطأ، فأدركَ أنه نغم المراسم، وما يحدث أمامه هو مراسم التزاوج.

حدَّق فيهم بفضول بالغ، بينما قال رينجر من جانبه:

«في العادة يطول الاحتفال قبل أن تبدأ المراسم، فالطلب الأول هو الأصعب لكن هذا الشاب شجاع».

عارضهُ لانس من جانبه الآخر: «بل متلهف».

التفتَ كلاهما إليه فوضَّح مشيراً باتجاه الفتاة: «في العادة تكون نظرات الفتاة متفحصة، لكن هذه تنظر إليه بإعجاب، وكأنها لا تطيق الانتظار حتى ينتهي من طلبه لتقوم بالموافقة، لا بدَّ أن كليهما

كانا ينتظران هذه اللحظة منذ وقت طويل، لذا هو يعلم أنها لن تقوم برفضه».

أعادَ رو نظراته إلى الفتاة، وحينها انتبهَ إلى نظراتها للشاب، وبالفعل كانت تتأمل رقصته بانجذاب، كما لو كانت تودّ مشاركته الرقص.

حينها مدَّ الشاب يده باتجاهها ولم تتردد هي في أخذها، فابتسم لها ابتسامة واسعة وبدأا بالرقص معاً.

بعدها بلحظة، توجّه شاب آخر إلى إحدى الفتيات وانحنى أمامها قبل أن يبدأ بالرقص كذلك، لكن تلك لم تنظر إليه كما فعلت السابقة، بل كانت نظراتها تحليلية ثاقبة، تحاول اكتشاف نقاط ضعف الشاب، وإن كانت هناك ثغرات لا تُرى من أول مرة، وعندما مدَّ يده إليها هزت رأسها رافضة طلبه.

بدا الحرج على ملامحِهِ لكنه سرعان ما مسحَ تلك التعابير عن وجهه وانحنى لها مرة أخرى ثم ابتعد عنها.

أثّر رفضها على شجاعة بقية الشبان بعض الشيء، فلم يتقدم شاب
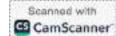
آخر لوقت طويل، خوفاً من مواجهة المصير ذاته، ولكن عندما تجرأ أحدهم أخيراً وقام بالرقص أمام إحدى الفتيات، وافقت على طلبه ورقصت معه، وبعد رؤية رو للخطوات ذواتها عدة مرات، التفت إلى رينجر متسائلاً:

«هل هذه هي مراسم التزاوج؟ الرقص؟ لا أفهم لم كنتَ متشوقاً إلى تلك الدرجة».

همَّ رينجر بقول شيء، لكنه رأى أمراً ما جعله يبتسم ابتسامة جانبية، أشارَ إلى مكان في الساحة قائلاً:

«كنتُ متشوقاً لهذا».

التفتَ رو ليجد شاباً منحنياً أمام فتاة كانت ترقص مع شاب آخر قد تقدَّم لها مسبقاً، وعندما بدأ الشاب الجديد بالرقص انتظراه كلاهما، ولم يكن ذلك ما فاجأ رو، بل موافقة الفتاة على الطلب الجديد ورقصها معه، فقال وقد تمكَّن الفضول منه:

«إذاً لا ضمانَ لبقاء الفتاة بعد قبولها؟ إن وجدتْ بديلاً أفضل، تستطيع التبديل؟»

أجابهُ زينجر بسرعة متلهفاً لإخباره بما سيحدث: «هنا يبدأ المرح! بما أنها قبلت كليهما، فعليهما القتال لاحقاً، والفائز هو من سيعدّ الطعام لها».

رفعَ حاجبيه متعجباً: «يعدّ الطعام؟!»

أومأ زينجر: «أجل، غداً سيأخذ كل شاب عروسه إلى منزله، ويعد لها أفضل أنواع الأطعمة، إن بقيت في منزله فذلك يعني موافقتها على الزواج به».

رو باستغراب: «وإن خرجت؟»

رفع زينجر كتفيه: «يعاود كل منهما المحاولة في الموسم المقبل».

عقدَ ذراعيه وهو يشاهد الساحة التي امتلأت بالراقصين وقال: «لِمَ كل هذه الخطوات؟!»

أجابه باستنكار وكأن الأمر واضح: «الرقص للاستعراض، عرض للياقة الشاب ولسلامة جسده، أما إعداد الطعام فهو إثبات لمقدرته على العناية بها، وبالنسبة إلى القتال فالأمر بسيط، الاستحقاق للأقوى».

ضحكَ، فالتفتَ إليه رينجر بنظرات متسائلة، عندها قال ساخراً:

«لقد كرهتْ آمبر قدومي إلى هذا المكان، لكنها لو رأت هذه الطقوس، لرفضت قبول أي طلب أقل من هذا».

نظم
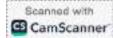
لم يُطل رو البقاء لشعوره بالإرهاق، فاستأذنَ وعاد إلى منزل والده وخلد إلى النوم باكراً، لكنه استيقظ في صباح اليوم التالي فزعاً بسبب ضجة تحدث في الخارج، فنهض من فراشه بسرعة وتوجَّه لتفقد ما يجري، ليجد الفتاة التي قبلت بالعرضين الليلة السابقة تصرخ على الشاب الذي تقدَّم لها لاحقاً، بينما شاركها هو الصراخ باستهجان وحنق.

استدار ليعود لكنه انتبه إلى رينجر وهو يسند كتفه على جذع الشجرة المتصلة بمنزله، واضعاً يديه في جيبي بنطاله، ويراقب ما يحدث باستمتاع، اقتربَ منه وهمس بخليط من الاستغراب والفضول:

«ما بال غربان الحب؟»

التفتَ إليه بابتسامة واسعة مجيباً: «لا يجيدان النعيق في تناغم كما يبدو، تقاتلَ الشابان ليلة أمس وفاز هذا».

أشارَ إلى الشاب الذي احمرّ وجهه بإحراج ممزوج بالغضب: «لكن اتضح لها أن مهاراته في الطبخ لا تعادل مهاراته في القتال».

التفتَ إليهم متسائلاً: «ولِمَ الضجة؟ هل استعراض الرفض جزءٌ من الطقوس؟»

وضعَ رينجر يده على معدته وضحك بصوت عالٍ جذبَ أنظار من حولهم لبرهة، وبعد أن تمالك نفسه قال:

«لا، لكن يبدو أن الشاب ظنَّ أنها لن تمانع طبخه الرديء»، وعندما رفضتهُ شعر بالإهانة، والآن كل منهما ساخط على ما يحدث».

هزَّ رو رأسه بسبب كل الفوضى وهمَّ بالعودة مرة أخرى، توقَّف بجانب الباب والتفتَ إلى ابن عمه سائلاً بعد أن تذكَّر أمراً ما:

«ما الذي تفعلهُ هنا على أية حال؟ منزل سايفر ليس بالقرب من هذه المنطقة».

أجابهُ مبقياً نظراته على العرض: «أولاً: أنا لا أقيم مع والدي، لديَّ منزلي الخاص، وثانياً: والدي طلب رؤيتك، لذا تجهز ورافقني».

عاد إلى الداخل واستعدَّ قبل أن يعاود الخروج ليقابل الضجة نفسها قائمة، أشار له رينجر برأسه للحاق به فتبعهُ ليبتعدا عن

الإزعاج والعراك خلفهما، وعندما انتبهَ إلى توجّههما لمسلك معاكس لمنزل سايفر، قال محاولاً مواكبة خطوات رينجر الواسعة:

«إلى أين نحنُ ذاهبان؟»

انتبهَ رينجر إلى هرولته محاولاً اللحاق به فقلَّص خطواته مجيباً:

«طلبَ والدي إحضار لانس معنا كذلك».

أكملا سيرهما جنباً إلى جنب لعدة لحظات حاولَ رو فيها مقاومة الكشف عمّا بخلده، لكن أسئلته انتصرتْ في النهاية فقال بتحفظ:

«هل شككتَ أنت ولانس بوجودي كذلك؟» التفتَ إليه رينجر بعدم فهم فقال متردداً: «أتساءل عن سبب امتناعكما عن المشاركة في الحرب».

أضافَ بسرعة رافعاً يديه أمامه: «أنا لا ألومكما لعدم المشاركة»، حاولَ إخفاء إحباطه لكنّه كان جليّاً حين أكمل متنهداً: «أتساءل عن السبب فقط».

أعادَ رينجر نظراته إلى الأمام ثم أجاب: «لم يمتنع أي من أبناء

الغراب عن الذهاب، كان على بعضنا البقاء لحماية النساء والأطفال لا غير.» التفتَ إليه وابتسم بفخر مضيفاً: «إن نوديَ للحرب من أجل العائلة، فلن يتخلف عن القتال أحد».

لم يعلم بما يجيبه، فحدّق فيه صامتاً حتى ربَّت رينجر على كتفه بقوة كادت أن تفقده توازنه.

رمشت عيناه عدة مرات لمنع مشاعره من الظهور بينما أكملا طريقهما بصمت، لم يعلم كيف يصف تلك المشاعر التي بداخله، أو إحساس الألفة الذي ينتابه هناك، فقد اكتشف أنها لا تنحصر بمنزل عمه أو والده، بل بكامل الغابة التي حلت أبناء الغراب بين أغصانها، وبعد الذي قاله رينجر، أدرك أن الألفة كانت الشعور بالانتماء، لم يستطع التعرف عليه سابقاً لغرابته عنه.

أخذ نفساً عميقاً مستنشقاً تلك الرائحة الطبيعية التي تحيط به، عالماً أنها ستعني له الكثير بعد الآن، ستذكّره بالعائلة، ورغم امتنانه لهذه البداية التي لطالما انتظرها، إلا أنه لم يستطع ألا يشعر بالذنب لعدم مشاركته هذه المشاعر مع كيارا، لحصوله على عائلة أخرى لا تتضمنها، لشعوره بسعادة يعلم أنها تتمناها كذلك، لكنها لن تحصل عليها.

سحبهُ رينجر من دوامة مشاعره معلناً: «لقد وصلنا».

انتبهَ حينها إلى محيطه، وأنهما كانا أمام الساحة التي امتلأت بالعزف والرقص الليلة السابقة، لم ينتبه فوراً لاختلاف المكان كثيراً، فلم تعد الفوانيس معلقة لتزين المكان، بل كانت مساحة فارغة فقط، تتوسطها تلك الشجرة الضخمة، تقدَّم رينجر إليها فتبعه بفضول لمعرفة ما تخفيه بداخلها، تساءلَ إن كانت الشجرة منزل لانس، لكنها لا تكفي لحمل فراش بداخلها، فضلاً عن كونها منزلاً، تساءلَ إن كان هناك سحر يخفي بُعداً آخر في الداخل، لكنه لم يفهم لماذا حصل لانس على موقع مميز من دون البقية، وبعد الكثير من التساؤلات فتح رينجر الباب ليكتشف أن ما وراءه مجرد سلالم تقود إلى مكان مظلم أسفل الأرض.

تقدَّم رينجر وبدأ بالهبوط بخطوات واثقة لكن رو تبعهُ مرتاباً مما قد يُخفيه ذلك الظلام، وبعد عدة خطوات في تلك السلالم الخشبية التي تلوّت بشكل دائري إلى الأسفل، وصلا إلى باب آخر فتحه ابن عمه بلا تردد، كان أول ما تسلَّل من خلف الباب هو أصوات غريبة، كعراك قائم في الداخل، فولجَ بفضول ليتفاجأ ويعجب بما يراه في الوقت ذاته.

وجدَ أمامه غرفة سرية كبيرة تمّ تحويلها إلى صالة تدريب مخفاة أسفل جذع الشجرة العملاقة، تشابكت حولها الجذور الضخمة على الجدران وكأنها السبب في إبقائها ثابتة، تدلّت من السقف مصابيح قديمة أضاءت بشكل خافت، ورُصت الأحجار على الأرض بشكل غير متساوٍ، لكنها تغطت بحصيرة تحمي أجساد المتدربين أثناء مبارزاتهم، فوق الحصيرة رُسمت مربعات كبيرة شابهت حلبات القتال، عدا أن ما أمام رو لم تلفها الحبال أو الحواجز، وكان هناك بالفعل شابان يتعاركان داخل إحداها، كانت جميع أنواع الأسلحة معلقة بالجدران، رماح، سيوف، خناجر، سهام وأقواسها، وأسلحة لم يعلم طريقة استخدامها، وأكياس رملية معلقة من السقف في أماكن أخرى.

ثم انتبهَ إلى لانس الذي كان يتدرَّب عاريَ الصدر ضد مجموعة كاملة من سبعة أشخاص، وبُهتَ أثناء مشاهدته، فلم يحمل لانس أي سلاح بيديه، بل كان يستخدم قبضتيه للهجوم، كانت تحركاته بهلوانية لسرعتها وخفتها، لكن وقع ضرباته المؤلمة سُمع عبر الصالة.

اتَّسعت عينا رو عندما تحوَّل لانس إلى غراب مبتعداً عن أحدهم، لكنه لم يطر بعيداً، بل تحول مرة أخرى في الهواء وهوى بقبضته فوق فك متدرب آخر، وما أن لامست قدماه الأرض حتى استدار في بقعته موجهاً ركلةً خلفية إلى خصر من كان يحاول مباغتته من الخلف، تقدَّم متدرب آخر كان قريباً منه كثيراً، وكما بدا لرو، كان من المستحيل تفادي ضربته، لكن لانس تحوَّل في آخر لحظة وحلَّق مبتعداً.

شعرَ رو بضعفهِ وبقلة معرفته حينها، فلم يكن يستطيع القتال بتلك الطريقة أبداً، كانت لياقته مثيرة للشفقة مقارنة بلانس ورينجر، ولولا قوته السحرية لما بقيَ على قيد الحياة يوماً آخر، لكنه مع ذلك شعر بالنقص وكرهَ ذلك الإحساس، فبالرغم من قدرته على التحول إلا أنه لا يستطيع فعلها بتلك السرعة والمهارة، أو استخدام التحول أثناء القتال بتلك البراعة، وأدرك حينها أن الطريق أمامه للتطور طويلٌ للغاية.

فقدَ رينجر صبره صارخاً: «لانس! لقد طلبَ والدنا حضورك، لن تنتهي تدريباتك حتى المساء، أنا ذاهب ولك حرية التأخر».

ثم استدارَ وبدأ يعودُ أدراجه، تبعهُ رو لكن فضوله جعله يلتفت في الوقت المناسب لرؤية لانس يرتدي قميصه بدون إغلاق الأزرار كالعادة، وعندما نظر إلى الحلبة خلفه ارتفعَ حاجباه وهو يرى أن جميع خصومه مطروحون أرضاً، كما لو أن لانس كان يجاريهم في قتاله فقط، ثم أنهى أمرهم سريعاً عندما حان موعد رحيله، مما جعل رو يستنتج السببَ في تعيين لانس للبقاء هنا وحماية المنطقة عوضاً عن المشاركة في الحرب، فقد كانت قوته الجسدية باهرة رغم أنه لم يكن بضخامة رينجر.

رفعَ لانس نظراته نحوه بينما كان يحدق فيه طويلاً، رفعَ حاجبه في سؤال صامت فأعاد رو نظراته إلى الأمام بإحراج، وحدّق في ظهر قريبه الضخم متسائلاً: إن كان لانس صاحب الجسد النحيل بتلك القوة، فكم هو مقدار قوة رينجر؟

جلسَ رو أمام مائدة الطعام التي حملت وجبة الإفطار الشهية، تناول طعامه بصمت مع عمه وابنيه وابنته أونيكس التي تعرّف عليها حينها، فتاة جميلة ذات شعر أسود متوسط الطول، لكن ما جذب انتباهه هو لون حدقتيها الحالك، فلم يرَ أحداً بسواد عينيها.

كانت صفة مميزة ومفزعة في الوقت ذاته، لكنه وجد أنها ملائمة لكينونتها كغراب، قابلَ زوجة عمه كذلك، امرأة في منتصف العمر لكن التجاعيد التي ارتسمت حول عينيها وشفتيها وخصلات شعرها المبيضّة، كشفت عن روح أكبر عمراً من الجسد الذي احتواها، قامت بتمسيد شعرها إلى الخلف وربطه بشكل كعكة صغيرة، كان التعارف بسيطاً وسريعاً، ابتسامات دافئة ومرحّبة به بينهم.

استرقت زوجة عمه النظرات نحوه كل حين، وحين قابلَ عينيها ابتسمت له بحنية، لكنه رأى مشاعرَ خفية خلف تلك الابتسامة.

وجدَ بعض الحزن بين ثناياها...

أو الذنب، لم يعلم أيّهما، ولم يعلم السبب كذلك، لذا أكمل طعامه بهدوء.
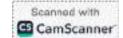
انتقلوا بعد وجبة الإفطار للجلوس أمام المدفأة واحتساء القهوة، بينما تحدثت أونيكس عن يومها واستمعَ والدها إليها باهتمام بالغ، وكأنه يستمع إلى حكاية شيّقة، يبتسم حين تبتسم ويعقد حاجبيه حين تروي لهم ما أزعجها، وعندما التفتَ إلى أخويها وجدَ أنهما يستمعان إليها بالطريقة ذاتها.

فتذكَّر كيارا، وشعرَ بالأسى عوضاً عنها، لعدم حصولها على عائلة مشابهة.

تجهَّم وأنزلَ نظراته نحو كوب القهوة، شاعراً بغصة غريبة في حنجرته، كلما ضحكت أونيكس وأكملت حديثها مفعمة بالحياة تقوقعَ حول نفسه أكثر، لم يفهم سبب تأثره بالأمر إلى هذه الدرجة، لكنه لم يتمكن من تجاهل الأفكار التي تخبره بأن كيارا تستحق عائلة مماثلة.

أجفلَ رافعاً عينيه عندما شعرَ بيد على كتفه، ليجد زوجة عمّه تنظر إليه بقلق هامسة:

«ما الأمر يا بني؟»

بني.

ازدردَ ليبدد الغصة التي استقرت في حنجرته لسماع تلك الكلمة، ثم هز رأسه مجيباً: «لا شيء، القهوة مرة للغاية».

اعتذرت مرتبكة: «أنا آسفة، لم أقم بسؤالك كيف تفضّلها».

استعجلت في أخذ الكوب منه والنهوض: «سأصنع لك واحدة أخرى».

وقبل أن يستطيع الاعتراض توجهت إلى المطبخ الصغير، لم تكن هناك جدران داخل البيت، فكل الغرف تداخلت بعضها ببعض، لذا رآها تنظر حولها في حيرة بعد أن نسيت سؤاله مرة أخرى عن الطريقة التي يفضّلها، نهضَ متجهاً إليها وأخذ كوب قهوته من يدها برفق، ثم تناولَ علبة الحليب والسكر وأضافَ قدراً منهما، بينما تأملته هي بالنظرات السابقة أنفسها مما دفعه إلى السؤال:

«يبدو أنكِ كنتِ تعرفين والدي»

قالت باستغراب: «لِمَ تظن ذلك؟»
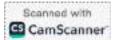
تذوّق قهوته وتقزز من مذاقها، فأضافَ المزيد من السكر وهو يجيب: «لأنكِ ترمقينني بنظرات متألمة».

لم تجبهُ، فالتفت ليجد تعابيرها المصدومة التي حاولت تداركها، تجنبتْ عينيه بارتباك وبدأت بتجفيف يديها الجافتين مسبقاً بالمئزر الذي التفَّ حول خصرها، تلفَّتت عيناها ناظرتين في كل اتجاه عدا وجهه، وفي النهاية أغمضتهما بقوة وأخذت نفساً عميقاً حتى استرخت أكتافها باستسلام قبل أن تقول بصوت منخفض محاولةً تمالك مشاعرها:

«أجل، أنا أعرف والدتك، قابلتها مرة واحدة، وذلك عندما قرر رونالد الزواج بها، لم أرها بعد ذلك».

رفعت عينيها إليه أخيراً مضيفة بابتسامة كئيبة: «لقد كانت جميلة للغاية، هناك صورة لها بجانب فراش والدك على الدوام، هل رأيتها؟»

أومأ متناولاً كوبه، لم يضطر إلى سؤالهم عن تلك الصورة، لأنه أحس فوراً أنها تعود إلى والدته، وأكدت له زوجة عمّه ذلك حينها، لكنه علم أن الصورة ليست السبب في نظراتها المذنبة، فلم تكونا صديقتين إن تقابلتا لمرة واحدة، لماذا إذاً نظرت إليه بألم؟

رفعَ نظراته المتسائلة فأكملت: «لكنني أعرف والدك، لقد كان سايفر ورونالد لا يتفرقان أبداً، لذا عندما تعرّفت على زوجي كان التعرف على أخيه أمراً محتوماً».
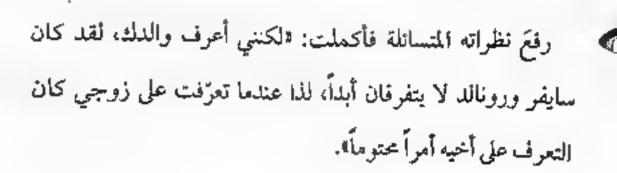
نظرت إلى مكان ما خلف رو وسرحت نظراتها في زمن آخر: «لقد كان كشقيق لي كذلك، وفقدانه كان صعباً للغاية، لذا...».

ترددت قليلاً بينما ترقرقت عيناها بالدموع ثم قالت: «كانت أياماً قاسية لسايفر، لذا أقنعتهُ بالتوقف عن البحث، لقد كان يخسر نفسه وعائلته كل يوم...»

ضاقت عيناه وأمالَ رأسه منكراً الحقيقة التي أخبرته بها: «التوقف عن البحث؟»

توقفت عن التحدث مطبقةً شفتيها والدموع تنهمر من عينيها بأسف، عبسَ وجهه: «عمَّن تتحدثين؟»، لكنها لم تتمكن من المتابعة، فسألَ بعدم تصديق: «عني أنا؟» أغلقت عينيها ممتنعةً عن النظر إليه أكثر بينما أكمل: «هل تقصدين أنه كان يبحث عني وأنتِ من ثناه عن ذلك؟»

لم يلحظ أي منهما توقف المحادثات في الجهة الأخرى من المنزل، حتى اقتربَ سايفر منهما قائلاً:

«رو، لم يعلم أيٌّ منا...»

عاد خطوة إلى الوراء مبتعداً عنه رافعاً يده لإيقافه عن الاقتراب أكثر، وقال باحتدام: «هل تعلمُ ما الذي حصل بسبب بقائي مع تلك العشيرة؟ أنا من كسرَ التعويذة! أنا السبب في عثورهم عليها! أنا السبب في الإبادة التي حدثت! في الحرب!».

التفتَ إلى زوجة عمه مضيفاً: «لو أنه وجدني لما حدث أي من ذلك!»

أجهشت حينها بالبكاء، فقال سايفر بحزم: «هذا يكفي»، التفت إلى أبنائه: «خذوا والدتكم إلى الفراش قبل أن تُنهك أكثر».

التفتَ إلى رو للتحدث إليه، لكنه كان بالفعل يشق طريقه بغضب إلى خارج المنزل، لحقَ به محاولاً إقناعه بالإنصات إليه، لكنه أبى أن يلتفت وواصل خطواته الساخطة، كان بإمكانه الانتقال حينها مبتعداً

عن ذلك المكان إلى الأبد، لكنه امتنع عن ذلك بدون أن يعلم إن كان السبب هو رغبته بأن يلحق عمه به ويقنعه بالبقاء، أم لأنه لم يرد استخدام قوته كساحر أمامه، أو كلا السببين معاً.

تحوّل سايفر وطار بسرعة باتجاهه، ثم عاد إلى هيئته البشرية وهو أمامه ليمنعه من الابتعاد أكثر، رفع يديه ممسكاً بكتفيه مبرراً على عجل:

«لقد نشروا شائعات كثيرة تدّعي موتك» توقف حينها عن محاولة التملص من بين يديه وتركه ليكمل: «لكنني تابعت البحث، ليس لاعتقادي بأنك على قيد الحياة، بل لأنني لم أستطع تقبل موت رونالد، كنت في قرارة نفسي أبحث عنه وليس عنك، وعندما أدركت زوجتي ذلك، توسلت لي أن أتوقف» أبعدَ يديه مضيفاً برجاء وحزن: «لقد فقدتكَ مرة في السابق، لا أريد أن أفقدك مرة أخرى، ابقَ معنا».

تنهّد رو محاولاً تبديد غضبه لكنه لم يستطع، فقال بحنق: «لا أستطيع، قد نكون مرتبطين بعضنا ببعض بالدم لكنكم غرباء بالنسبة لي، أنا لا أعرف عنكم شيئاً، لا أعرف عن هذا المكان شيئاً، لديّ بالفعل...»

قاطعه سايفر بسرعة: «دعني أعلّمك إذاً» فتحَ فمه للاحتجاج لكنه لم يجد ما يقوله فأكمل عمه بلا تردد: «سأعلمك كل شيء عن أبناء الغراب، عن تاريخنا وقوتنا الكامنة».

لم يجبه فوراً، وتفكَّر في الأمر جيداً، فبعد رؤية تمارين لانس كانت فكرة تدريبه هنا مغرية إلى أبعد حد، قاطعَ عمه أفكاره بأسىً:

«دعني أدرّبك كما كان سيفعل رونالد، ستتعلم كل شيء كما لو أنكَ ترعرعت بيننا».

لكنه لم يجبه بعد، فقد كان يفكّر بكيارا، بآمبر، كيف له أن يتركهما؟

أضافَ سايفر بنبرة متوسلة: «دعني أدربك ليرتاح ضميري قليلاً».

أخذَ نفساً عميقاً وزفرهُ متنهداً، ثم همَّ بالإجابة لكن شعلة زرقاء قاطعته بالظهور أمامه.

غیرۃ
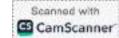
جلست كيارا فوق الكرسي الخشبي الطويل في المحمية، تتأمل الأزهار حولها، بينما جلس أليكس بجانبها يتأملها هي كعادته، كما لو أن الوقت لم يمر والشهور لم تمض منذ الحرب، فقد قضيا العديد من الأيام داخل المحمية حين لم تتحمل البقاء في جناحها أكثر، لكن الاختلاف أنها لم تعلم بوجوده معها حينها.

كان مدركاً أنها تحاول التهرب منه لإخفاء ضعفها وتأثرها بالحرب كما حذّرها، لذا تبعها إلى المحمية وراقبها من مسافة بعيدة تبقي هالته مخفاة عليها، كان يمضي معها اليوم بطوله تاركاً أعماله ومسؤولياته تجاه المملكة لينجزها أثناء نومها، ولم يفارقها أبداً.

أما كيارا فقد كانت تمضي يومها تنظر حولها بنظرات فارغة لا تحمل أي تعبير أو شعور، لا تتبصر بمكان محدد، بل بدت وكأنها غارقة في أفكارها وكوابيسها، لذا شعرَ أليكس بالامتنان لهذه الأوقات، بالرغم من أنها ما زالت تعاني من قوتها، لكنها على الأقل أفضل من السابق وليست في حالة من التخدّر.

كرهَ تلك الأيام التي حاولَ فيها حثها على التحدث، على إخراج

ما بداخلها من ألم، على التنفيس عن مشاعرها، لينتهي به اليوم خاليَ الوفاض، حتى أعادها إلى ريفر ريتش، فبدأت تُبدي ردود فعل بسيطة بعد أيام، ثم بدأت تتحدث شيئاً فشيئاً، حتى عادت إلى طبيعتها، ليس بشكل كامل، ولكن بما يكفي لتهدأ أفكاره القلقة.

لذا عندما تأملت الأزهار حولها اليوم بابتسامة صغيرة، تأملها هو بنظرات ساكنة سعيدة، لمقاومتها مصاعب حياتها يوماً آخرَ بدون أن تفقد نفسها مرة أخرى، رفعتْ عينيها إلى سرب من الطيور يغادر شجرة مرتفعة بدون أن تلتفت إليه، فقد اعتادت مشاهدتهُ لها، بل أحبَّتها، كانت نظراته المتواصلة تجاهها تشعرها وكأنه يقوم بحراستها، ليس من الأخطار الخارجية فقط، بل من أفكارها المدمّرة لها، ينتظر أن يمر ظل في عينيها، أو تعبير متألم في ملامحها، فيقوم بمواساتها أو بتشتيتها فوراً.

كان مرساتها التي اعتمدت على ثباتها أثناء مواجهة أمواج ماضيها، ولم تعلم ما الذي فعلته لتستحق شخصاً مثله في حياتها.

قطعَ حبل أفكارها صوت صرخة آتية من بين الأشجار في الجهة

المقابلة لهما، لم تكن صرخة ألم أو خوف، بل بدت صرخة حماسية لشخص مجنون يقول كلمات غير مفهومة.

التفتتْ إلى أليكس بنظرات متعجبة بينما هز رأسه باستسلام، سمعت صوت تحرك الأغصان فأعادت نظراتها إلى الأمام لتجد غزالاً هارباً من بين الجذوع، قفز من فوق الجدول برشاقة ثم هرع إلى مكان آخر، تتَبّعتهُ بعينيها بعدم فهم، ثم استقامت في جلستها والتفتت إلى مكان الصرخات الغريبة على استعداد لردع أيِّ شخصٍ يضايق حيوانات المحمية.

لكن وارويك هو من ظهر حينها، انثنى إلى الأمام مسنداً يديه على ركبتيه محاولاً استجماع بعض الهواء، قبل أن يقول بأنفاس متقطعة:

«تباً! لم أستطع اللحاق بها».

تنهدت وأسندت ظهرها على الكرسي قبل أن تعيد نظراتها إلى أليكس الذي ضحك فوراً من تعابيرها المستاءة والمستسلمة في الوقت ذاته، حملقت به بانزعاج فقمعَ بقية ضحكاته واعتدل في جلسته بنظرات معتذرة.

توجّهت عيناه إلى مكانٍ ما خلفها وابتسم ابتسامة صغيرة ثم أشارَ لها لتلتفت، وما أن استدارت ووقعت نظراتها على رو حتى وقفت وبدأت بالركض باتجاهه، فتحَ ذراعيه لها واستقبلها في أحضانه.

أمالَ أليكس رأسه محاولاً التذكر أنهما ابنا عائلة واحدة وأن غيرته حينها كانت غير مبررة، لكنه لم يستطع منع تلك المشاعر من التسلل إليه، قال واروِيك الذي ظهر بجانبه:

«كما لو أنهما يتقابلان للمرة الأولى، هل تذكر؟»

لم يكن لينسى لقاءهما الأول، فقد أزعجتهُ ثقتها العمياء برو، والعلاقة الودية التي ظهرت من العدم، والأكثر من ذلك احتضانها له رغم أنها لم تقابله سوى مرة واحدة قبلها، لكنه لم يفهم لمَ أزعجه احتضانها هذه المرة أيضاً.

التفتَ واروِيك إليه ثم انفجر ضاحكاً قبل أن يقول: «يا لك من شخص تافه!»

ضيّق عينيه بانزعاج مبرراً: «لكنها لم تحتضنّي هكذا من قبل»
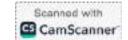
قال ضاحكاً بعدم تصديق: «وماذا في ذلك؟ لم تقم باحتضاني من قبل كذلك، وقد أمضيت عدة أشهر في البحث عنها، بل حاولت طردي من الكهف عدة مرات!»

وقفَ أليكس وبدأ بالتوجه إليهما وواروبك يلحق به وهو يسخر منه، فقال منزعجاً أكثر: «علاقتكما مختلفة، ستتفهم مشاعري حين تقابل تلك الجنية».

توقفَ واروبك عن المشي وتلاشت ابتسامته، فالتفتَ أليكس ليرى تعابيره التي أصبحت جادة، ولمعرفته به لعقود طويلة، رأى الخوف في عينيه كذلك، لم يكن الخوف من المجهول، بل الخوف من الفقدان، وكأنه يخاف من تلك الرابطة، لأن فقدان رفيقٍ مقدر ليس كفقدان أي رفيق، بل فقدان تلك الجنية سينهي ما تبقى من قلبه المحطم مسبقاً، وعندما همَّ أليكس بقول أمر ما، قال واروبك بسرعة مكملاً سيره بنظرات ساخرة:

«لا تحاول تشبيهي بكَ أيها العجوز الخرف».

أما رو فقد احتضنَ كيارا بمشاعر مضطربة، احتضنها باشتياق

وسعادة لرؤيتها، وبحزن وتأنيب في الوقت نفسه، أخذ نفساً عميقاً وزفره متنهداً محاولاً استجماع شجاعته، لكنها ابتعدت عنه ونظرت إلى عينيه لوهلة بحاجبين معقودين قبل أن تقول:

«سترحل؟»

كانت الرابطة التي تجمعهما عميقة، أعمق من علاقة العنق ببقية الطيور، أعمق من رابطة الدم التي بينهما، لم يفهمها كلاهما بشكل كامل، فعندما قطعت كيارا الاتصال فيما سبق، بقي رو موالياً لها من دون الرابطة التي تجبره على مساعدتها، لذا عندما عاد الاتصال عاد بشكل مختلف وأقوى تجسيداً لولائه النقي، فأصبحت علاقتهما استثنائية من دون علم أي منهما، فلم يضطر إلى التحدث لتعلم هي بما كان يدور في خلده، شعرت بالأمر من الطريقة التي عانقها بها، وكأنه يحاول توديعها، من صوت تنهيدته التي أبدت شعوره بالذنب لتركها.

قال واريك مقترباً منهما: «سيرحل إلى أين؟»

أجابت بحزن بدلاً عنه: «إلى أبناء الغراب».

لم تستطع منع شعورها بالبؤس من الظهور في نبرة صوتها، فقد ظنت أنها ستتمكن من إقناعه بالقدوم معها إلى المملكة، وفكرت بطريقة للقائه كل يوم إن رفضَ ذلك، لكن ذهابه إلى أليسارك عقّد الأمور، فامتزجت سعادتها لبقائه بين عائلته، مع إحساسها بأنها ستفقده، انتبهَ إلى تعابيرها فقال بسرعة:

«لن أذهب».

هزت رأسها رغم تكدرها محتجة: «لكنهم أفراد العائلة التي تتمناها».

ابتسمَ بكآبة وأخبرها بما حدث قبل قدومه، بدايةً بما أخبرته به زوجة عمّه وصولاً إلى محادثته مع سايفر في الغابة:

«رفضتُ البقاء معهم، لذا عرضَ عليَّ تدريبي فحسب، أخبرتهُ أنني سأفكر في الأمر لكنني سأرفض».

تبدلت تعابيرها الحزينة إلى أخرى متأملة: «عرضَ التدريب فقط؟ ألن تبقى معهم بشكل دائم؟»

رفع كتفيه: «إن قبلتُ عرضه فسيكون عليّ البقاء هناك لمدة طويلة، لكنني لن أقبل!».

قالت باستنكار: «لم لا؟»، أمال رأسه بعدم فهم فوضحت: «حصولكَ على تدريب من أبناء الغراب فرصة لا تعوض، فمهما بلغ تدريب واروِيك لن يكون مثل التدرب مع بني جنسك».

رمقها واروِيك بامتعاض قبل أن يتنهد موافقاً على مضض: «تبّاً لها، لكنها محقة».

نقلَ رو نظراته بينهما بتردد: «لا أعلم، أنا لا أريد تركك في ريفر ريتش وحيدة».

ابتسمت بإحراج: «الحقيقة...»، حكّت رأسها ضاحكةً بتوتر قبل أن تكمل: «أنا سأعود إلى المملكة لإكمال تدريباتي كذلك».

اتّسعت عيناه بحماس: «هذا رائع! لنتدرب في الوقت ذاته، ثم نلتقي كل يوم في مكان محدد لنتشارك أحداث يومنا!»

أومأت بسرعة، لكنها قبل أن تستطيع مشاركته حماسةُ قاطعهما واروِيك:

«ربما من الأفضل لكما البقاء بعيدين بعضكما عن بعض لبعض الوقت».

التفتَ كلاهما باتجاهه بعدم فهم وباستنكار لما قال، ففركَ عينيه متنهداً قبل أن يبرر:

«أكرهُ أن أكون قاتلاً للمتعة، لكن من الأفضل لكل منكما التركيز على تدريباته» نظرَ إلى رو: «اذهب إلى الغربان وتدرَّب معهم وعش بينهم، انفصلْ عن بقية عالمك، بهذه الطريقة تستطيع التركيز على تدريباتك بشكل جاد».

نظرَ إلى كيارا بحاجب مرفوع: «هذا الكلام يشملك أنتِ كذلك، تحتاجين إلى التركيز في التدريب، أنا أفكر في إقناع سبارك بالمشاركة في تدريبك أيضاً».

تدخَّل اليكس قائلاً بشكل قاطع: «لا!»

نظرت كيارا إليه بعدم فهم: «لكن التدرب مع عنقي سيكون أكثر فاعلية من...»

قاطعها بهدوء: «أول مهارة يتدرب عليها العنق هي العودة من الرماد».

أطبقت شفتيها فوراً وشحبت ملامحها مما جعله يقول: «انظري إلى حالكِ، مجرد التفكير في الأمر يرعبك، لا أظنك مستعدة لإحراق جسدك مرة تلو الأخرى».

خفضت نظراتها نحو الأرض عائدةً إلى تلك الليلة المشؤومة، وقبل أن تعود بها ذكرياتها أكثر وضع زو يده على كتفها مواسياً:

«يوماً ما سيصبح الأمر أسهل».

رفعت رأسها وأومأت بابتسامة صغيرة رغم عدم اقتناعها بذلك، فقال واروبك مستطرداً:

«أجل، يوماً ما، هناك أمر أهم حالياً».
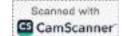
التفتَ إلى صديقه وأشار برأسه باتجاههما وكأنه يحثّه على إخبارهما بما لديه، اقتربَ أليكس منها فعلمتْ سلفاً أن الأمر لن يعجبها، لكنها لم تتوقع ما قاله حين فتح فمه أبداً:

«لقد قُتلت رايتشل».

جريمة
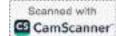
استلقت الجثة فوق الطاولة في أحد أقبية القصر، جثة رايتشل بالفعل، وكانت في حالة مرعبة، بعض أجزائها بالكاد متصلة بجسدها، أصابعها مهشمة، وبعضها مقطوع، هناك فجوة استقرت في منتصف جسدها.

استطاعت كيارا رؤية أعضائها الداخلية منها، لكن بالرغم من تشوه جسدها إلى درجة أثارت القشعريرة، إلا أن قاتلها تركَ وجهها بأضرار بسيطة، وكأنه أراد أن يُري العالم ما الذي شعرت به قبل موتها، فقد عكست ملامحها المتجمدة خوفها وألمها في لحظاتها الأخيرة.

نظرت كيارا إليها برهبة وصدمة في الوقت ذاته، متسائلةً من الذي قد يفعل فعلة شنيعة كهذه! التفتت إلى أليكس بأعين حملت استهجانها فقال:

«كل ما أعرفه هو أن الفاعل ساحر، لكن لا سبيل لتحديد هويته».

تقدَّم رو قائلاً: «كيف علمت...»، لكن رائحة الجثة المتعفنة فاجأته، فكتمَ أنفاسه بسرعة وعاد إلى الوراء مغطياً أنفه وفمه قبل أن يكمل بصوت مكتوم: «كيف علمتَ أنه ساحر؟»

شرحَ وارويك لهم بنبرة جادة: «آثار جروحها غير بشرية»، اقتربَ من الجثة مشيراً إلى أصابعها: «أصابعها لم تقطع بأداة حادة، بل بضربات سحرية».

حينها انتبهت كيارا إلى الجلد حول أصابعها المقطوعة، كانت تبدو وكأنها نُزعت من أماكنها لولا أن أطراف الجلد متفحمة، أكمل مشيراً إلى أجزاء مهشمة العظام:

«هذه آثار ضربات أقل قوة، هدفُها التعذيب وليس القتل».

ثم أشارَ إلى الفجوة التي انتصفت جسدها محركاً إصبعه بشكل دائري فوق أطرافها: «من هذه العلامات تستطيعون معرفة أن من فعلَ ذلك ليس من أصحاب السحر الأسود كذلك، فسحرهم يترك أثراً متعفّناً كالسم، لكن هذا مجرد أثر للاحتراق المصاحب للضربات المشتعلة، لقد أراد قتلها بهذه الضربة، لكن ليس بسرعة، فمن الواضح أنه أراد تعذيبها لوقت أطول».

عادت كيارا خطوة إلى الوراء بجانب رو غير قادرة على تحمل الرائحة أكثر، حاولت منع هلعها من التسلل إلى صوتها حين قالت:

«لمَ قد يفعل ساحر نقي ذلك؟ رايتشل بشرية».

التفتت إلى أليكس غير متيقنة: «أليس كذلك؟ ألم تكن بشرية؟»

أومأ مقترباً منها: «بلى، لقد كانت بشرية».

لفَّ ذراعه حول كتفيها وقرَّبها إليه متابعاً: «نقاء السحر لا يعكس نقاء القلب يا كيارا، بعضهم قد يكون أكثر تعفناً من الداخل من ساحر اختارَ السحر الأسود ومارسهُ طوال حياته».

أضافَ وارويك على كلامه: «البعض يختارون ذلك الطريق قسراً، أو لحاجة ضرورية كحماية أنفسهم وعوائلهم، ليسوا جميعهم متعطشين إلى القوة وفاسدي القلب».

أومأت متفهمة قبل أن تقول باستغراب: «لماذا أحضرتم جثتها إلى المملكة؟»

تنهّد أليكس متبادلاً النظرات مع صديقه الذي أجابها:

«جريمة كهذه ستجذب الكثير من الأنظار، قد يصنفها البشر

كجريمة غامضة غير مفهومة، لكنّ الصيادون سيستنتجون فوراً أن هذا من فعل ساحر!».

تذكرت كتاب الصيادين الذي لم تقرأه كثيراً لكنها تتذكر منه ثلاث معلومات مهمة:

الأولى: الصيادون يعيشون وسطَ البشر لحمايتهم.

الثانية: جميع المخلوقات (عدا العنق والجن) يهابونهم، إن كان هناك ما يخيف المخلوقات الأسطورية أكثر من المختارة، فهم الصيادون.

أما الثالثة والأهم: لديهم حصانة ضد الكثير من القوى الخارقة، فالمستبصرون على سبيل المثال لا يرون قدومهم، والعرّيو لا يعرفون شيئاً عن ماضيهم كذلك، ولا تؤثر قوة السحرة بهم، ولا سمّ مصاصي الدماء أو المستذئبين، بالإضافة إلى تميزهم بقوىً جسدية قد توازي قوة مصاصي الدماء.

تعاطفت مع عائلة رايتشل قائلة: «لكن عائلتها لن تعلم ما حدث لها».
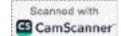
رو ويده ما تزال فوق أنفه وفمه: «أليس ذلك بأفضل من رؤيتها هكذا؟»

حاولت أخذَ نفس عميق لكن أنفاسها علقت في حنجرتها من الرائحة الكريهة، وبدأت بالسعال بقوة حتى كادت أن تتقيأ، فقال أليكس مربتاً على ظهرها برفق:

«لنكملْ حديثنا في القاعة الملكية».

انتقلوا جميعاً إلى داخل القاعة ليأخذ كل من كيارا ورو أنفاساً من الهواء النقي، قبل أن تقترح:

«لم لا نلقي على جسدها تعويذة تُبديها بمنظر أفضل؟»

هزَّ وارويك رأسه لكنه قبل أن يستطيع إخبارها بالسبب ساومته بسرعة: «حتى دفنها فقط، ثم نرفع التعويذة».

ابتسمَ لها برقة لتعاطفها مع فتاة كان الجميع على علم بأنها تنمرت عليها لوقت طويل، ثم تحدث:

«الصيادون لديهم مناعة ضد سحرنا، سيرونها بهيئتها الحقيقية».

أكملت بإصرار تحاول إقناعه: «لكن إن ألقينا عليها التعويذة، لن تجذب الجريمة اهتمام أحد من خارج ريفر ريتش، لتجعلها تبدو كما لو أنها وقعت من مكان ما».

تنهَّد واروِيك بأسى: «الصيادون في كل مكان يا صغيرة، منهم المحققون ومنهم أطباء عاديون وأطباء تشريح كذلك، موت فتاة في هذا العمر لن يمر بسلام، سيقومون بإرسال جسدها إلى المدينة للتحقق من أن موتها كان طبيعيًّا، ولا ضمان لنا بعدم وجود أي صياد هناك».

أغمضت عينيها باستسلام، لكنها ما أن فعلت ذلك حتى رأت الجثة خلف جفنيها ففركت عينيها متمتمة باستياء:

«تبًّا!».

شعرت بحرارة جسد أليكس قبل أن يلف ذراعيه حولها ويقول مبررًا: «لا أحد يريد إعادة الجثة إلى عائلتها أكثر من واروِيك».
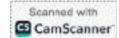
فتحت عينيها ونظرت باتجاهه لتلاحظ أن استياءه كان أكبر منها بالفعل، تنهدت كارهةً أن لا حيلة لها، فشرح لها بهدوء:

«اكتشاف الصيادين لجريمة كهذه سيقودنا إلى حرب من نوع آخر، حرب لن نستطيع الفوز بها وإن اجتمعت جيوشنا»، ابتعدت عنه قليلاً لتتمكن من النظر إلى عينيه بوجل وقلق، لكنه أكملَ رغم كرهه لتعابيرها تلك: «أخذُنا للجثة ليس كافياً، بل علينا إخفاء أي أثر لحدوث الجريمة كذلك، لمنع حرب مع الصيادين».

ابتعدت أكثر قائلةً بتعجب وأسىً: «لكنني لا أفهم، لماذا قُتلت؟ لماذا؟!»

تبادلَ أليكس وواريك النظرات مرة أخرى، وكانت تكره ذلك التصرف، لأنها باتت تدرك أنه يعني وجودَ شيء مهم، شيء يودّ أليكس لو يخفيه عليها، لكنْ واريك لن يشاركه فعلته، لذا تحدّث حينها:

«إمّا أن الساحر مضطرب عقلياً، أو جندي».

تقدّم رو وجلسَ على أحد الكراسي بإنهاك وضيق: «ما الذي تقصده؟ لم أعد أحتمل هذا الغموض، قل كل ما بجعبتك دفعة واحدة».

التفتَ واروِيك إليها وسألها بعينيه إن أرادت الحقيقة كاملة مثله، وعندما أومأت له بتعابير جادة ومتوترة أردف:

«آثار التعذيب تبدو لي كآثار استجواب» اتسعت عيناها والتفتَ رو ناظراً إليه بالتعابير ذواتها لكن واروِيك أكملَ بدون توقف: «لستُ واثقاً بشكل قاطع، لكنني كلما فكرتُ بالأمر رجَّحته أكثر، أياً كانت المعلومة التي أرادَها من فتاة تعيش في بلدة صغيرة فعلى الأرجح أن الأمر متصل بكِ، لذا أجدُ أن علينا العودة إلى المملكة فوراً وإعلان الأمر للممالك الأخرى لمنع جرائم مشابهة، هناك أمر كان يريد معرفته ذلك الساحر بشدة، ربما نمط يومكِ أو الأوقات التي تقضينها وحدكِ من دون البقية، لا أعلم بالتحديد، لكن المهم أن البقاء في ريفر ريتش أصبحَ غير آمن».

توقّفَ عن التحدُّث فخيّم الصمت لعدة لحظات، شدَّت قبضتيها

محاولةً إخضاع قوتها التي بدأت بالاضطراب كمشاعرها، لم تُنكر خوفها مما يحدث، لكنها لم تخشَ المواجهة أو القتال، بل ارتاعت من المجهول، من الأسئلة التي لا تجد لها إجابة، تنفّست ببطء ثم أومأت بهدوء قائلة:

«سأذهب الآن لآخذ مقتنياتي من المنزل».

استوقفها أليكس: «لقد تأخّر الوقت، لنذهب إلى النوم ثم نعد غداً صباحاً».

أومأت موافقة بينما قال وارويك مستنكراً: «نذهب إلى النوم؟ لكنك لا تنام!»

أسندَ رو رأسه على كفه بابتسامة هائمة ناظراً إليهما: «يستلقي أليكس بجانبها كل ليلة حتى لا تشعر بالوحدة».

ثم تنهّد وكأنه يشاهد قصةً عاطفية تتجلى أمامه، لكن وارويك لم يبادله الشعور، بل بدا مشمئزاً منها وقال باستهجان:

«هل أنا وحدي من أجد الأمر مقززًا؟ أولاً زي والآن رو؟ ما الذي حدث للجميع؟»

هزَّ أليكس رأسه لمبالغة صديقه، قبل أن يأخذ يد كيارا ويسحبها إلى الخارج باتجاه جناحه.

صرخة
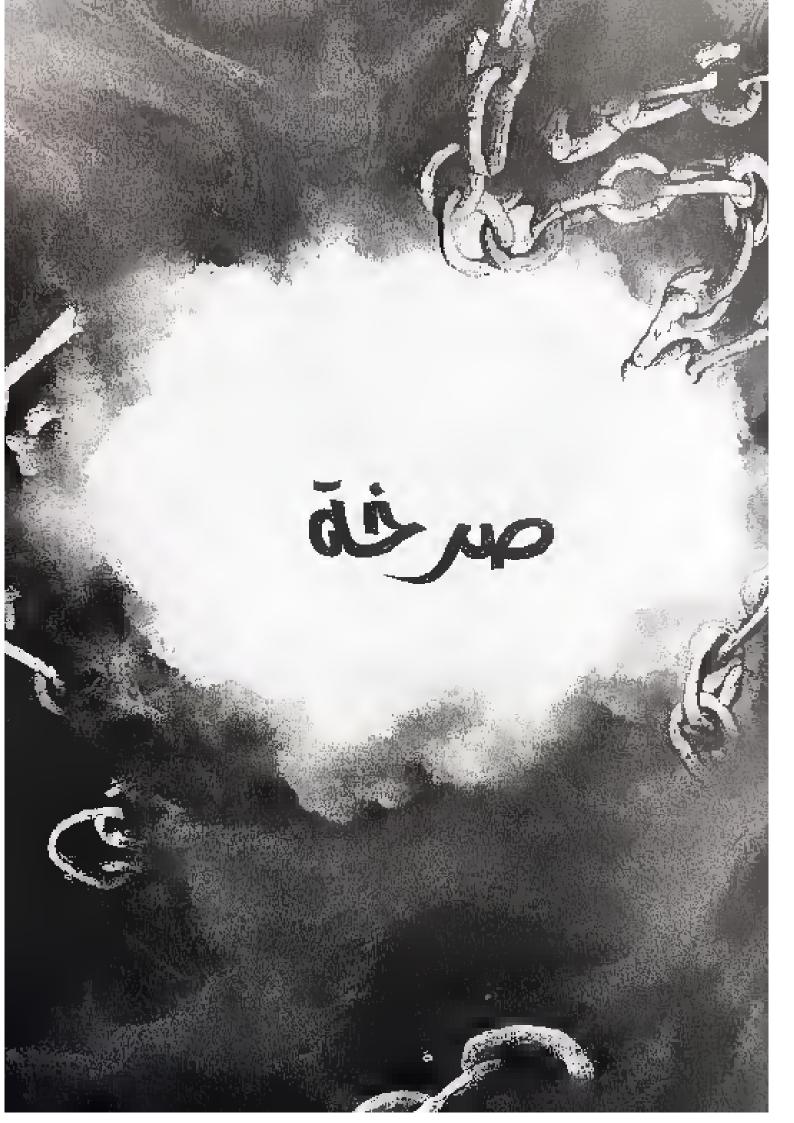
استيقظت صباح اليوم التالي وحدها، تجهزت وخرجت من الجناح ووجدت زي في انتظارها، أعلمها أن الجميع قد عادوا إلى ريفر ريتش، همّت بالعودة فوراً لكنه منعها قائلاً إن الملك شدّد على أهمية تناولها للإفطار أولاً.

تناولت وجبتها متأففة، عالمةً أنهم عادوا مبكراً للتحقيق أكثر بأمر مقتل رايتشل، لكنها لم تستطع أن تشعر بالاستياء لوقت طويل، فقد كان خطؤها أنها أخبرت أليكس الليلة السابقة بمدى إرهاقها وأنها لم تتمكن من النوم جيداً، لذلك تركها لترتاح أكثر.

بعد انتهائها، أرسلت زاجلاً أزرق إلى وارويك متسائلةً عن مكانهم، فأجابها برسالة تقول:

«أين ستكون غداً المنزل؟ تعالي إلى هنا بسرعة، أليكس يثير استفزازي!»

انتقلت بزي إلى الباحة الخلفية لمنزلهم وبدأا بالتوجُّه إلى الداخل، ثم اتسعت المساحة بينهما بسبب خطوات المارشال الواسعة، لكنها لم

تأبه باللحاق به، بل أبقت خطواتها صغيرة مستمتعة بنسيم الصباح اللطيف.

سمعت صوتاً من الجانب في الوقت نفسه الذي تحدَّث فيه رياز محذراً:

«لا تلتفتي!».

تجمدت في مكانها وسرت قشعريرة في كامل جسدها، تفجّرت قوتها بداخلها كبركان هائج، وأصبحت كل حواسها متوجسة، ثم بدأت تشعر بتأثير غريب يعتريها، بدأ الضوء حولها بالخفوت، وكأن الشمس تختبئ خلف الغيوم تفادياً لما سيحدث.

نظرها يفقد تركيزه، وكأنها ستفقد الوعي، تساءلت عن المخلوق الذي أصابَ قوتها بهذا التشوش، لكنها لم تقوَ على تحريك جسدها، شعرت بالخوف يتملكها كما لو أن الموت هو ما يقف هناك.

أتاها صوت رياز آمراً بحدة: «تابعي سيرك!».

لم تقوَ على الحراك، هناك شيء يقيّد جسدها ويثبت قدميها في مكانها.

كانت القشعريرة تسري في أوصالها كموجات كهربائية غير منقطعة، كلما انتهت واحدة تبعتها التالية فوراً.

حينها صدرَ صوت غريب مخيف، صوت صفير مكتوم، أو طائر معذب، أو طفل يتألم، لم تعلم ما كينونته بالضبط، وهذا ما أفزعها.

صدرَ الصوت مرة واحدة، لكنها كلما حاولت تذكره، سمعته بطريقة مختلفة عن سابقتها، وجميعها تدبّ الرعب في قلبها، وما أخافها أكثر هو انعدام بقية الأصوات حولها، فلم تعد العصافير تزقزق، ولم تعد تسمع حفيف الأشجار.

مجرد صمت مطبق، وكأنها تنفصل عن العالم المحيط بها رويداً رويداً، حتى باتَ صوت رياز بعيداً للغاية، بالكاد تسمعه ولا تستطيع فهم كلماته، لكنها لاحظت أن نبرته ازدادت حدة مع كل كلمة يقولها، كما لو كان يعلم بحالتها وبأنها تغرق بعيداً عن واقعها.

التفتت ببطء رغم تحذيراته السابقة، لم ترد أن تعارضه، لكن جسدها تحرك من تلقاء نفسه، وكأن هناك قوة أكبر منها تحكمها، وكأن جسدها لم يعد ملكاً لها، بل كانت تراقب ما يحدث من داخله لا غير، ثم شحب وجهها لما رأت، وبدأ جسدها بالارتعاش، شاعرة برعب لم
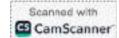
يصبها من قبل، عيناها متسعتان في مزيج من الرهبة والدهشة، فمها مفتوح قليلاً كمَن يحاول النطق لكنه عاجز عن التعبير، تأرجحت بين عدم التصديق لما تراه عيناها وبين الإنكار بشكل قاطع.

وقفَ بجانب الشجرة التي بباحتهم رجل معدوم الملامح، لا أعين، لا أنف، ولا شفاه، لا ملامح في رأسه عدا شعره الأسود الأشعث وكأنه كان يتقاتل مع أحد قبل وصوله إليها، كانت هالته وحشية لم تستطع تمييزها، رأت هالات جميع المخلوقات من قبل: السحرة، الغريو، المستبصرون، مصاصو الدماء، العنق، الجن، والثعلب ذو الأذيال التسعة، لكنها لم تر أي شيء مما أمامها فتساءلت إن كان صياداً، وإن كان هناك لقتلها.

هل كانت تلك قوة الصيادين؟ الشلل؟ أم بث الخوف؟ لم تعلم، لم تعلم ما الذي يحدث لها، وأصبحت عاجزة عن التفكير بوضوح، ازدردت محدقةً فيه شاعرةً كما لو أنها وحيدة في العالم معه، أرادت أن تهرب بيأس، لكنها تعلم أنَّ قدميها لن تحملاها إن تحركت قيد أنملة، إضافة إلى إحساس الضعف الممزوج بالعجز الذي يخنقها.

حينها رفعَ الرجل يدهُ باتجاهها وصدر صوته الغريب مرة أخرى متقدماً خطوة إليها.

سمعت صوته كرضيع يصرخ، لكنه عندما تقدَّم تلك الخطوة تحول الصوت إلى صفارة إنذار داخل رأسها يصمّ أذنيها، شعرت بتلك القشعريرة كما لو كانت تنزع جلدها من مكانه، أخذت نفساً عميقاً متعذبة، ثم صرخت بكل قوتها، مؤمنة أن أليكس سيأتي إلى جانبها فور سماع صوتها، وسينقذها من ذلك المخلوق الغريب، ضمَّت جسدها بذراعيها وتقوقعت على نفسها في ألم ورهبة مما يحدث لها.

تجمَّد كل شيء للحظة، ثم عادت الأصوات فجأة، وعاد الضوء، وعاد صوت رياز، وركدت قوتها، لكن أليكس لم يأتِ لإنقاذها، رفعت عينيها لتجد الرجل اختفى، التفتت إلى المنزل ولم تجد أثراً لأي منهم، بل كان زي يكمل طريقه إلى الداخل من دون أن يلتفت.

نظرت إليه بأعين جاحظة من صدمتها وبقايا ارتياعها، متسائلة إن كان كل ما حدث من وحي خيالها السوداوي.

ألم تصرخ بكامل صوتها؟ هل هذا كابوس آخر؟

وعندما همّت بالدخول والهرب إلى أحضان أليكس قال رياز بهدوء:

«اهدئي وتمالكي نفسكِ أولاً».

فأخذت أنفاسها ثم نهضت بهدوء، تردّدت في إغماض عينيها خوفاً من رؤية المخلوق مجدداً، لكنها عندما تشجعت وأغمضتهما لم تتذكر صورته، وقبل أن يتملّكها استغرابها أكملَ رياز: «لا تخبري أحداً بما حدث».

فتحت عينيها المندهشتين لطلبه، ثم قطبت جبينها بعدم تصديق، أرادت معارضته وإخبارهم فوراً بأمر المخلوق، انتقاماً منه لإخفائه حقائق مهمة عليها سابقاً، لكنها لسبب ما امتثلت لأوامره رغم استيائها منه، طلبت بصمت تفسيراً منه فقال:

«بعض الأمور من الأفضل إبقاؤها سرّاً عن بقية المخلوقات، حتى لو كان عنقيّاً مختاراً».

سمعت بعض الأسى في صوته عند آخر كلماته:

«حتى لو كان عنقِيّاً مختاراً».

لم تسمع تغيراً مماثلاً بنبرته من قبل، وكأنه سمح لها برؤية مشاعره قاصداً، كما لو كان يريها جزءاً حقيقياً منه، كمن يحاول مراضاتها، فأدركت أهمية الأمر بالنسبة له، لكنها لم تفهم شيئاً مما حدث أو لمَ عليها إخفاؤه، ورغم صمته حينها إلا أنها شعرت بإلحاحه في إبقاء الأمر سرّاً، بل شعرت بمواساته لها بسبب الخوف الذي اعتراها أيضاً، لم تكن مواساته لتُغنيها عن مواساة أليكس، لكنها وافقت على طلبه في النهاية.

أعادت نظراتها بتوجُّس إلى حيث كان المخلوق لكنه لم يعد موجوداً هناك، كانت السماء صافية، والعصافير تزقزق من جديد، وقوتها هادئة كأنها لم تضطرب أبداً.

تنهدت وبدأت بإكمال سيرها إلى الداخل من دون أن تلاحظ أن تلك الذكرى تتسرب من رأسها...

صورة المخلوق، وجهه الممسوح، هيئته، هالته الغريبة، صوته المفزع، ومع كل خطوة تلاشت كل تلك الأمور إلى الخلف كذكرى بعيدة من الماضي، حتى امّحت من ذاكرتها تماماً، وولجت إلى المنزل تاركةً خلفها كل ما جرى.

حماية

أغلقت كيارا آخر حقيبة لها قبل أن يحملها أليكس وينقلها إلى الطابق السفلي مع الأخريات، نظرت حول الغرفة مودعةً المكان الذي اختبأت فيه من واقعها لعدة أشهر، مسحت على الفراش كوعد صامت بعودتها بعد انتهاء كل شيء، بعد أن تستقر قوتها، وتتمكن من التحكم بها تماماً، ستعود إلى هذا المنزل الذي ألفتهُ كثيراً.

توجهت إلى الطابق السفلي بخطوات بطيئة كارهةً اضطرارها إلى الرحيل، تحاول مماطلة القرار المحتوم قدر الإمكان، تجول بعينيها حول كل ركن تمرّ بجانبه، تحاول الاحتفاظ بتفاصيله في ذاكرتها، لمست الجدار أثناء هبوطها الدرج المفتوح، كما كانت تفعل في السابق، لكنها كانت تلمسه وقتها لخوفها من استخدامه، أما الآن فكانت تحاول استرجاع تلك الذكريات واحتضانها لآخر مرة، فلم تعلم كم سيستغرق تدريبها من الزمن: عاماً؟ عامين؟ عقداً؟

لم تستطع استيعاب التدرب طوال تلك الفترة الطويلة، لكن الوقت أصبحَ ذا قواعد جديدة ومختلفة في حياتها، وقد كرر أليكس لها كم أن الوقت عامل غير مهم بالنسبة لهم، وأن السنوات والعقود تتشابه لولا انقضاؤها بأمور مهمة.

توقفت بعد وصولها إلى تلك العائلة التي لم تتوقع الحصول عليها، كان رو يقصّ على زي طقوس التزاوج التي شهدها متحمساً ومندمجاً في روايته رغمَ أنه كان يكررها للمرة الخامسة على الغالب، خفضَ زي نظراته نحوه لاختلاف الطول الكبير بينهما.

وقفَ عاقداً ذراعيه، مولياً انتباهه بصمت وكأنه يستمع إلى ما حدث لأول مرة.

وقفَ أليكس بجانبه منصتاً كذلك، يراقب قريبها وتحركات يديه أثناء وصفه لما رآه بابتسامة صغيرة، شاركه تلك التعابير واورويك الذي اتكأ على طاولة الطعام وبيده كوب من الشاي، يتأمل رو بنظرات محبة أدركت أنها تشبه نظراته نحوها.

بدا كأخ كبير يستلطف إخوته الأصغر منه سناً، عندها تذكرت أن تلك النظرات بدأت منذ أول تدريب لهم، وبالرغم من أنه صرّح بعداوته لها في البداية وبرغبته في قتلها، إلا أنها لم تعد تصدق أنه كان سيفعلها.

قد يكون أليكس هو من ردَعه أول مرة، لكن وارويك حظي بعدة فرص بعدها، ومع ذلك لم يمتنع عن قتلها فحسب، بل امتنع عن أذيتها كذلك.

كلما فكَّرت بالأمر أكثر، أدركت أنه شعر بغريزة لحمايتها ورو منذ البداية، لسبب ما، لقبّها بـ (الصغيرة) منذ أول لقاء، وعرضَ تدريب رو منذ أول لقاء معه كذلك، ابتسمت شاعرةً بتأثير الدفء الذي اعترى قلبها، فقد كانت مشاعرها نحو وارويك مختلفة عن تلك التي تحملها لأليكس.

كان أليكس شريكاً لها، لغزاً تحاول الكشف عن خفاياه يوماً بعد الآخر، تحاول مجاراة قوته وصلابته، أما وارويك فمشاعره صريحة، إن غضبَ أبدى سخطه، وإن أحبَّ غمرَ بمحبته، كانت معه تشعر بأنها فتاة صغيرة برفقة أخيها، يلفُّها أمان مطلق، لا تحاول إخفاء ضعفها أو مخاوفها، بل تلقي بها أمامه وكأن العلاج والحل لديه دائماً، فهي ليست كيارا العنفية، الهجينة أو حتى جلالة الملكة عندما تكون بصحبته، بل كيارا الصغيرة فقط، كما ينعتها دائماً.

حينها تضاربت نبضاتها شاعرة أن عليها إخباره بأمر ما، أمر مهم مرعب عليهم معرفته جميعاً، وضعت يدها فوق قلبها ليهدأ قليلاً، لكن بلا فائدة، أمر ما أفزعها، جعل تعابيرها تذبل وتشحب، لكنها لم تتذكر ما يكون.

وحده أليكس من انتبهَ إلى اضطرابها، فالتفتَ إليها وعقدَ حاجبيه فوراً، نظرت إلى عينيه بضياع وبغريزة داخلية تحثّها على تحذيره من شيء دون أن تعلم ما هو، اقتربَ منها وبدأ القلق يتسلل إليه ويظهر على وجهه، وما أن اقتربَ بما يكفي حتى بدأ بالمسح على ذراعيها ليُسكِّن اضطراب قلبها قبل أن يسألها عن سببه، واضعاً اطمئنانها في أعلى أولوياته.

بينما حاولت هي التركيز بما أرادت إخباره به، كان هناك جزء صغير من ذكرياتها محاطاً بنوع من الضباب، كحلم كانت متيقنة من رؤيته، لكنه تلاشى خارج رأسها فور استيقاظها وقبل أن تتمكن من قصّه، حينها تذكرت صوتاً ما لم تستطع تمييزه، صوتاً نحيلاً لم تعلم إن كان صفيراً أو صرخة حادة، وقبل أن تستطيع تفسير ما سمعت قال رياز بامتعاض وغضب:

«أيتها الفتاة العنيدة!».

تشتّت تركيزها وأمالت رأسها باستغراب من أمره، فأمالَ أليكس رأسه معها بتعابير حائرة، ثم جذبَ زي انتباه الجميع محذراً:

«أحدهم قادم».

تعجّلَ في الخروج عن طريق باب الباحة الخلفية، ولسرعته البالغة بدا وكأنه اختفى من مكانه كما يفعل السحرة، كان أليكس صاباً تركيزه كاملاً وحواسه باتجاه كيارا، لذا لم ينتبه إلى صوت الخطوات المقتربة من المنزل حتى أبلغهم زي الذي عادَ بعد اختفائه بثانيتين، ووقفَ أمام أليكس معلماً بما رأى بنبرة جادة وبوتيرة سريعة:

«رجل من الغريو، يتوجه إلى الباب الأمامي».

سُمِعَ صدى صوت الجرس في المنزل فور انتهاء كلامه، فالتفتوا جميعاً إلى الباب الأمامي، لكن واريك كان أول المتحركين باتجاهه، هزَّ رأسه لرو الذي حاولَ اللحاق به رافضاً تعريضه للخطر، وأشارَ له بملازمة مكانه.

كان الجميع محترسين من الضيف المفاجئ، لكن عندما فُتح الباب ورأوا من كان خلفه، تلاشت ريبتهم وتحولت إلى استغراب.
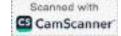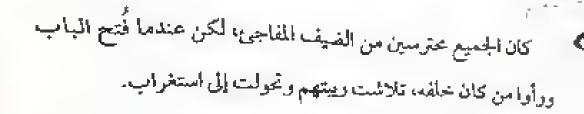
وقفَ هناك رجل بني البشرة، حليق الرأس لكنه ليس بأصلع، له لحية خفيفة بيضاء اللون، بدا جسده قوياً لكن وجهه أظهرَ عكس ذلك، لم يكن من السهل تحديد عمره، فقد حلّ وجه رجل في منتصف العمر بجسد شاب.

علمت كيارا فوراً أنّه من عائلة تاشا، فالتشابه بينهما بالغ، كلاهما يحمل هالة الغريب الخلابة التي استمدت جاذبيتها من حماية مملكة الجن، لكن الرجل شابهَ تاشا في أمر آخر كذلك، وهو أنَّ كليهما يملكان ملامح تُنافس هالته في الجاذبية.

كان شعره الحليق الأبيض في تناغم ساحر مع لون بشرته البنية، حاجباه محددانِ بشكل طبيعي، وعيناه خضراوان كعيني تاشا، ورغم أنّ عينيه واسعتان إلا أن نظراته كانت حادة مختلفة عن نظراتها اللطيفة.

كانت تعابير وجهه تعكسُ إنهاكه، وكأنه يصارع لإبقاء عينيه مفتوحتين، بينما جسده مشدود كمن يحاول منع نفسه من الالتفات

والعودة من حيث أتى، فتذكرت التعويذة المحيطة بالمنزل وتأثيرها، بينما قال الرجل لوارويك تزامناً مع أفكارها:

«أعني أن تسمح لي بالعبور».

كان صوته عميقاً، ليس غليظاً أو مهيباً، بل دافئاً يبعث الطمأنينة، ولم يقصد إذناً للعبور من الباب، بل إذناً للعبور من التعويذة، لكن صديقها أخذ وقته في التفرس به من أعلى رأسه إلى أسفل قدميه، ثم نظر حوله متفحصاً هالته، وفي النهاية التفت إلى أليكس بانتظار إجابته، فأومأ له موافقاً وهو يقترب منها أكثر ويلف ذراعه حولها لتستقر يده على خصرها، فظهرا كثنائي مقربين للغاية، لكنها شعرت من تصلب جسده وتقدمه الطفيف عنها أنه كان متوجساً من الضيف الغريب، ولم يكن اقترابه منها سوى للتأكد من جاهزيته لحمايتها في حال اتضاح أنه مصدر للخطر.

تقدّم الرجل خطوة إلى داخل المنزل ثم أخذ نفساً عميقاً كمن يستنشق هواءً نظيفاً لمرة أخرى بعد سنوات طوال من الاختناق.

اقتربَ عدة خطوات باتجاههم حتى ظهر زي أمامه واضعاً يده أمام صدره لمنعه من التقدم أكثر، لم يكترث لاقتراب يده منه وكأنه لا يأبه لكشف ماضيه للغريب، فحدَّق الرجل فيه بتعجب، قبل أن يعيد نظراته إلى أليكس وكيارا، وانحنى لهما باحترام قائلاً:

«احترامي لسعادتكما»، ثم استقامَ واقفاً بثبات يعكس ثقته ورزانته قبل أن يكمل واضعاً يدهُ فوق صدره: «أعرّفكما بنفسي: جانكو ميدا».

كان ينقل نظراته بينهما لكنه نظرَ إلى كيارا وحدها حين أضاف:

«والد تاشا».

ضيقت عينيها قليلاً، فقد توقعت قرابتهما لكنها لم تتوقع أن يكون والدها، فلم يبدُ الرجل بذلك العمر الكبير، لكن ما أثارَ استغرابها أكثر هو نظراته لها، وكأنهما يتبادلان سرّاً لا يعلمه سواهما، وكأنه يحاول إخبارها بأمر ما دون البقية، اهتزَّ ثبات زي بشكلٍ خفيفٍ لم يلحظهُ سوى جانكو، فنظرَ إليه بحاجب مرتفع.

خفضَ مصاص الدماء ذراعه وضمَّ يديه خلف ظهره وهو يتبادل النظرات الحادة مع ذلك الدخيل، يحذره بعينيه من اتّخاذ أي خطوة مفاجئة.

التفتَ جانكو إلى الأمام فالتقتْ عيناه بعينيْ أليكس الذي كان يتفحصه بتحفظ لعدم سماعه باسمه من قبل، وعندما رأى الاحترام والابتسامة الهادئة على وجهه، تيقّن أن الضيف يعرفهُ ويعرف ماضيه وربما يعرف أسراراً أخرى كذلك.
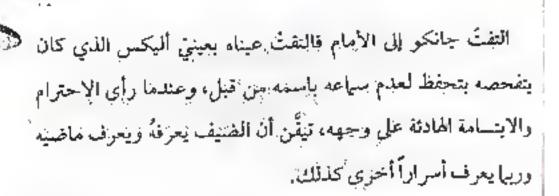
تنهّد بهدوء قبل أن يقول بصوته الملكي الرزين:

«سبب الزيارة؟»

شعرَ الغريو بالامتنان للدخول في صلب الموضوع فوراً، فقال بلا تردد: «أريد أن تكون ابنتي تاشا تحت حماية مملكة إيماتيزوس».

تجهّم أليكس: «لكنها تحت حماية مملكة الجن»، هزَّ والدها رأسه نفياً فتابع بإصرار: «لقد رأيتُ هالتها، تاشا محمية».

هزَّ رأسه مرة أخرى مما جعلَ وارويك يقترب حتى وقفَ بجانبهم، ثم قال بنبرة غير متيقنة: «لا يحمل تلك الهالة سوى اثنين، غريو محمي وغريو...».

توقف عن الكلام لكن جانكو أومأ مؤكداً وأكمل عنه: «غريو نقي، لقد كانت والدتها غريو كذلك».

تبادلَ كل من وارويك وأليكس النظرات الجادة بينما نظرَ إليهم رو بعدم فهم، اقترب من كيارا وسألها هامساً:
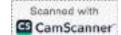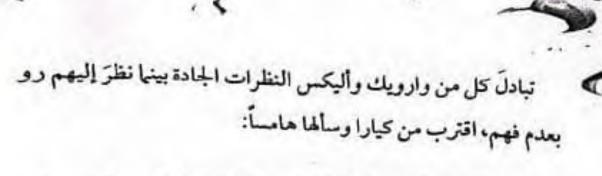
«هل ذكرت كتب فانكا الفرق بين الغريو النقي والغريو غير النقي؟»

أومأت له مجيبةً بهمس مشابه: «الغريو النقي هو الذي يرث قوته من كلا والديه، الغريو لا يتزوجون بني جنسهم ليتجنبوا هذه الحوادث».

رفعَ حاجبيه بتعجب: «إذاً ينجبون أطفالاً مهجنين بإرادتهم؟»

«أجل، لأن البديل دماء نقية مثل تاشا، ومملكة الجن ترفض وضع أمثالها تحت حمايتها».

رو بعدم فهم: «ما العيب في الدماء النقية؟»

التفتت نحوهُ بكامل جسدها ثم قالت موضحة بنبرة جادة: «رو، دماء الغريو النقي تستطيع فتح بوابة للماضي، ألا تعلم ذلك؟»

عمَّ الهدوء المكان بعد ذلك، أليكس ووارويك في محادثة صامتة، كيارا في تساؤل، زي في تأهب لتعليمات ملكه، ورو يحاولُ استيعاب المعلومات الجديدة، مما دفعه إلى كسر الصمت أخيراً:

«لِمَ ترفض مملكة الجن حماية تاشا؟»

كان سؤاله موجهاً إلى كيارا، لكن جانكو هو من أجابه:

«مملكة الجن مسالمة، والغريو النقي كنز يطمع فيه كل من يستطيع استخدامه!»

تذكرت كيارا شيئاً مهماً حينها، والتفتت إلى أليكس بسرعة جاذبةً نظراته باتجاهها وعيناها تصرخان: (جثة رايتشل)، فهِمَ مقصدها في أن سبب مقتل رايتشل هو البحث عن تاشا وليس البحث عنها، وهزَّ رأسه كونه لا يستطيع الجزم بناءً على ظنونهم فقط، لفَّ ذراعه حول كتفيها ليعيدها إلى مكانها بالقرب منه، ثم أعاد نظراته المتسائلة إلى جانكو:

«ما منبع ثقتكَ بنا؟»

أجابه: «لقد سمعتُ أنك وقعت اتفاقية عدل مع عنقي من أجل مملكتك، ملك يتعاطف مع شعبه إلى ذلك الحد يبدو جديراً بالثقة».

بزّر معترضاً: «مملكتي مسؤولية اضطررتُ إلى تحمّلها رغماً عني، أنا لستُ البطل الذي تبحث عنه».

فرّت شهقةٌ صغيرة للغاية من بين شفتيها، رغم أنها تعلم تلك الحقيقة، تعلم أن أليكس لم يعد إلى مملكتهِ إلا لحمايتها، لكنها لم تسمعه يعترف بذلك من قبل، لاحظ هو خطأه سريعاً وبدأ بالمسح على ظهرها بلطف، بينما بدأ جانكو بمخاطبتها بنبرة يائسة:

«لقد كنتُ آمل أن تتفهمي وضع ابنتي، لا ذنبَ لها لتحمل حياةً من الخوف والحرب المتواصلة، لا ذنب لها في حب والديها».

قاطعهُ أليكس: «مملكة إيباتيروس ما زالت تعاني من أضرار الحرب السابقة، لا نستطيع قبول طلبك».

التفتت إليه باستغراب وألم، شعرت بكلماته كصفعة على وجنتها، لم تفهم لمَ كان يذكّرها بما سببته؟ فهي لم تنسَ قط أنه عاد بسببها ولم تنسَ الحرب التي سببتها والأضرار التي أعقبتها.

حاولَ لمسها مرة أخرى بنظرات معتذرة، لكنها تملصت من يده، ليس لغضبها منه، بل للخزي الذي اعتراها.

حينها ألقى والد تاشا بطاقته الأخيرة: «لديَّ بعض المعلومات التي قد تهمك».

نظرت إليه بفضول فأكمل موضحاً: «معلومات عن والديك».

بدت صدمتها على تعابير وجهها، لكنها تداركتها سريعاً قائلة: «أنا أعرف قصة والديَّ مسبقاً».

جانكو: «هل تعلمين إذاً أن والدتكِ تركت ماضيها لي كما فعلتِ أنتِ مع تاشا؟»

اتسعت عيناها وهزّت رأسها بعدم تصديق لبوح تاشا بذلك الأمر، شاعرةً بأعين الجميع تتجه إليها، بينما أكملَ بنبرة معتذرة: «لم أرد فضح سرِّكِ أو استخدام ماضي والدتك هكذا، لكن لا أمل آخر لديَّ، أريد سلامة ابنتي بأية طريقة».

حينها انتبهت إلى التحدب الطفيف في ظهره، وإلى التجاعيد التي تحيط بعينيه، انتبهت إلى شعره الذي ابيضَّ سابقاً لأوانه، وفهمت في تلك اللحظة أنه قد عاش سنوات طوالاً من القلق المستمر، سنوات من الحرب المنهك الذي انعكسَ على جسده، قال راجياً:

«سأخبرك بحقيقة عائلتك...»

لكن وارويك قاطعهُ بنبرة جادة: «أنت تعلم أنكَ تنتهك قوانين التريو بعرض الماضي لنا بهذه الطريقة!»

برّر بانفعال: «سأنتهك جميع قوانين العالم لحمايتها».

لم تجد كيارا كلماتها، ولم تستطع اتخاذ قرارها، فبقيت صامتة أمام النزاع الذي كان يدور في داخلها، فقال أليكس متخذاً القرار بدلاً عنها:

«حسناً».

وتابعَ بنبرة مهددة متوعدة: «لكن إن كانت المعلومات التي تحملها غير مهمة لنا، سيكون عقابكَ شديداً لتلاعبك بمشاعرها بهذه الطريقة».

«لا»، قالت أخيراً، وعندما رأت الحيرة على ملامح وجهه أكملت متوجهةً إلى الدرج: «لنتحدث في الطابق العلوي».

ثم توجهت إلى غرفتها بدون أن تستدير خلفها.

كانت الحقيقة أنها أرادت حماية تاشا منذ البداية، لكنها لم تستطع طلب ذلك من أليكس بعد كل العناء الذي تحمَّله من أجلها، فقد قام بحمايتها في منزله، ثم عاد إلى مملكتهِ التي تركها لسنوات طويلة، وأخيراً قادَ الحرب التي سبَّبتها، وبعد أن سمعت ما قاله قبل قليل، لم تُرد أمراً آخر يثقل كاهلها.

تحدَّث بهدوء بعد أن أغلقَ الباب خلفه: «لِمَ لا؟ ألا تريدين معرفة ماضي والدتكِ؟»

قالت مواجهة النافذة: «بلى، لكن ليس بهذا الثمن، لا أريد تحميل إيباتيروس عبئاً آخر».

اقتربَ منها حتى وقف أمامها، وما أن رأى وجهها حتى فهمَ مشاعرها، فقال بنبرة عطوف:

«لا تريدين تحميل إيباتيروس عبئاً آخرَ أم لا تريدين مني تحمّل عبءٍ آخر؟»

تهربت من عينيه مجيبة: «الاثنان».
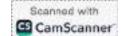
وضعَ يده على وجنتها وأعاد نظراتها إلى عينيه بلطف: «لا يوجد أي أمر يتعلق بكِ سأصنّفه كعبء».

اعترضت غير قادرة على منع مشاعرها من التسلل إلى نبرتها: «لم يكن هذا ما قلتَه في الأسفل».

حاولَ منع ابتسامته بصعوبة ثم قال: «لقد أخبرتكِ سابقاً لكنني سأكرر مرة أخرى، المملكة مسؤولية كان عليّ تحملها في كل الأحوال، كانت حمايتك دافعاً لا غير، أما الحرب بين السحرة ومصاصي الدماء، فقد كانت قادمة لا محالة، وعلى الأغلب لن تكون الأخيرة، كل ما في الأمر أنكِ استُخدمتِ كعذر لبدئها هذه المرة».

لكنها لم تستطع منع نفسها من الإحساس أنها حمل ثقيل على كتفيه، فهي لم تقدم أي شيء له مقابل كل ما فعله من أجلها، ولم تتخيل أبداً أنه يرى أن وجودها في حياته هو ثمن كافٍ لألف حرب آتية.

قال بعد أن لاحظَ ترددها: «هناك حل أوسط».

وعندما رفعت نظراتها إليه متأملة، لم يستطع منع ابتسامته لوقت أطول.

أمسكَ وجنتيها بكلتا يديه واضعاً جبينه فوق جبهتها لوهلة، وبعد أنفاس عميقة اختلطت بعضها ببعضٍ ابتعدَ مكملاً: «حارس شخصي».

قالت بعدم فهم: «حارس شخصي؟»، أومأ لها فسألت: «مصاص دماء؟»، أومأ مرة أخرى مبتسماً، وسرحَ في عينيها بينها فكرت في الأمر بجدية، ثم قالت موافقة:

«حسناً».

لكنه وجدَ نبرتها الجادة لطيفة، فاتسعت ابتسامته وقلّد نبرتها مكرراً:

«حسناً».

هزَّ رأسه لمنع نفسه عن الضحك، شعرت بالخجل فدفعت يديه عنها وبدأت بالعودة إلى الطابق السفلي ممتعضة، تبعَها فوراً وأمسك يدها ليكملا هبوطهما معاً، لكنهما وجدا زي ينتظرهما أسفل الدرج، وما أن اقتربا حتى قال:

«هل يمكنني التطوع لهذه المهمة؟»
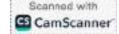
ضحكَ أليكس بخفة، وربَّت على كتفه أثناء مروره من جانبه قائلاً:

«القرار لكيارا».

وقفت قبل نهاية السلالم بأربع درجات، مما جعلها توازي المارشال في الطول، عقدت ذراعيها وضيّقت عينيها بشك قائلة:

«لِمَ تريد مهمة حارس شخصي؟»

كانت تعلم تماماً لماذا يريد المهمة، فقد أبدى زي اهتمامه بتاشا منذ رؤيتها لأول مرة، لكنها لم تستطع تفويت فرصة مضايقة جبل الجليد الذي أمامها، عقدَ زي ذراعيه مقلداً وقفتها قبل أن يجيبها بهزة صغيرة من كتفه فقط.

هزت رأسها غير موافقة: «هذه ليست إجابة».

نظر إليها بتعابير باردة للحظات، ثم تنهّد بانزعاج وتركها عائداً إلى الآخرين، لكن صوت ضحكتها لحقَ به.

تضحیات
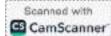
استأذنَ رو للذهاب إلى آمبر تاركاً كيارا للاستماع إلى ما وعدها به جانكو، اتّجه إلى الخارج بعد أن وعدته بإخباره بكل ما يتعلق بوالدته، وانتقلَ إلى البقعة التي يلتقون فيها عادةً منتظراً خروج آمبر، وبعد عدة لحظات، عبرت من إحدى البوابات، لكنه تفاجأ بتاشا بصحبتها.

لم يكن خروجهما معاً مفاجئاً بقدر اندماجهما في الحديث، أمالَ رأسه متعجباً من أن آمبر لم تكن مستمعة فقط كعادتها، بل كانت تشاركها النقاش كذلك.

انزوى في مكان قريب حذراً من أي عين متربصة، ثم تحوّل إلى غراب وطار إلى إحدى الأشجار مستقرّاً فوق أحد أغصانها.

انتظرَ قدومهما بفضول بالغ متسائلاً متى أصبحا بهذا القرب؟ فلم يغب عنها سوى عدة أيام، ولم تكن آمبر من النوع الذي يقبل بدخول أي أحد إلى محيطها، بل كانت انتقائية للغاية.

وبعد أن اقتربتا بما فيه الكفاية وأصبح بإمكانه التنصُّت على حديثهما، ألقى انتباهه إليهما بتركيز، كانت آمبر تتقدّم تاشا بعدة خطوات، بدت منزعجةً من النقاش القائم بشكل صريح، بينما حاولت تاشا اللحاق

بيا بإصرار قائلة:

«ربيا إن اعتذرتِ لها سينتهي النزاع بينكما و...».

توقفت عن المشي والتفتت بسرعة مقاطعة اقتراحها بانزعاج وسخط حاولت كبته:

«لماذا عليّ أنا أن أعتذر؟ لا أحد اعتذرَ عن أذيتي من قبل، لا أحد! تكررين القول بأنني وقحة في بعض الأحيان، لكن هل فكرتِ بالسبب الذي جعلني بهذه الوقاحة؟».

وأمامَ صدمة تاشا، استدارت وأكملت طريقها فقالت تاشا مبررة بأسى:

«لكن كيارا لم تكن سببَ أذيتكِ من قبل، ما ذنبها هي في ما فعله الآخرون؟».

توقفت مرة أخرى، فظنت الغريو أنها تفكر فيما قالته، وأعطتها وقتها للإجابة، لكن آمبر لم تكن تستمع إليها لملاحظتها شيئاً غريباً، فبدأت تتلفت حولها متفحصة المكان جيداً، رفعت عينيها متفقدة

أغصان الأشجار وانتبهت إلى رو فوراً، حدقت فيه للحظة قبل أن تعيد نظراتها إلى تاشا قائلة بشرود:

«لنتحدث لاحقاً».

تنهَّدت مجيبة: «حسناً».

وابتعدت متجهةً إلى المنزل بدون أن تدرك ما كان يحدث أمامها، حينها حلَّق رو منتقلاً من مكانه وهبط أمام آمبر ثم عاد إلى هيئته الآدمية، التفتَ حيث اتجهت تاشا متسائلاً:

«لَمَ تريد منكِ الطالبة الجديدة الاعتذار من كيارا؟»

حدَّقت فيه باستياء لمغادرته رغماً عنها، لكنها أجابته بعد برهة بتحفظ: «لقد تلامست أيدينا بالخطأ، ويبدو أنها رأت بعض الأمور».

أومأ متفهماً: «رأت كم تكرهينَ كيارا إذاً».

اعترضت مغتاظة: «أنا لا أكرهها!».

ضاقت عيناه بعدم تصديق، فتنهدت وقالت منزعجة: «تلك هي الحقيقة، شئتَ تصديقها أم أبيت، أنا فقط...».

صمتت لبرهة مترددة ثم قالت بنبرة منخفضة خالطتها بعض الغيرة: «أكرهُ كم هي مميزة»، ثم رفعت نظراتها إلى عينيه وأكملت بازدراء: «وأكره عدم قدرتها على رؤية ذلك».

تنهّد بعمق وتمنّى لو أنها تستطيع رؤية نفسها عبر عينيه، لرأت حينها تميّزها وفراستها وجمالها الخلاب، وشخصيتها الصلبة.

وبينما كانت تحدق فيه بنظرات حادة، استطاع رؤية خوفها خلف كل تلك الجدران التي تحيطها، فقال بهدوء:

«ما الذي تهابينه؟»

ارتفعَ حاجباها وارتخت دفاعاتها لبرهة قبل أن تتدارك تعابيرها وتسأله متهكمة:

«أين هي عروسك؟»

قال بعدم فهم: «عروس؟»، ثم اتسعت عيناه بتعجب: «كيف علمتِ..؟»

حينها بدأ باستيعاب سبب غضبها لرحيله، تبدلت تعابيره إلى

أخرى حملت التعاطف والذنب لما سيُخبرها به، بينما عقدت ذراعيها في انتظار إجابته وصبرها على وشك النفاد، لكنه لم يملك القوة لإخراج ما بجعبته.

وعندما لاحظت تردده أمسكت بيده، ناظرة إلى عينيه بألم وعدم تصديق:

«هل تزوجتَ حقّاً؟»

أجابها سريعاً: «لا! كيف لي أن أتزوج بفتاة غيرك؟»، فاسترخَى كتفاها بارتياح لكنه أضاف: «لكن عليّ الرحيل».

شعرَ بقبضتها تشتد حول يده للحظة سريعة قبل أن ترتخي وتتركه، استقامت في وقفتها ورفعت رأسها بكبرياء حاولت إخفاء جرحها خلفه، وقالت ببرود:

«سترحل؟»

شعرَ بذلك الحائط الذي تحتمي خلفه يزداد سمكاً ويدفعه بعيداً، فبدأ بقصّ كل ما حدث له منذ رحيله.

كان يتحدث باستياتة لتفهمهُ، بينما كانت هي تحدق فيه بلا تعابير، لكنها بعد برهة بدأت بتفهُّمه، وبدأت عيناها تلينان، ودفاعاتها ترتخي.

وبعد انتهائه من الحديث، توجهت نظراتها إلى الأرض محاولة ترتيب أفكارها ومشاعرها، بينما أخذ يحاول تهدئة قلبه الهَلِع.

انتظرها لبعض الوقت ثم انحنى ناظراً إلى وجهها، واضعاً يديه داخل جيبي معطفه.

رفعت عينيها والتقت نظراتهما للحظة طويلة بدا خلالها وكأن كلًّا منهما يصرِّح بمشاعره للآخر.

وأخيراً، ابتسمت له بلطف فاعتدل في وقفته كما لو أن الحمل الذي أثقله كان يمنعه من الوقوف سابقاً، أومأت إليه قائلة:

«لا بأس، أتفهّم سبب رحيلك».

هزَّ رأسه: «لن أذهب إن أردتِ مني البقاء».

رقّت عيناها وقالت: «لا تقدّم تضحيات لن تجد لها مقابلاً».

نظرَ إليها باستغراب فوضحت: «أنا لن أضحي من أجلكَ بالطريقة نفسها».

لكنه فهمَ مقصدها منذ البداية، وما لم يفهمه هو عدم رؤيتها لتضحياتها، فلكل شخص تضحيات مختلفة عن الآخر، وبالنسبة إلى آمبر وشخصيتها الباردة التي تأذت من أقرب الناس إليها، كان انتظارها لرو عند غيابه تضحية، وقبولها لحبه تضحية، وإفصاحها عن مشاعرها تضحية كذلك، فهي تضع قلبها الهش رهينةً بين يديه في كل مرة، ولم يكن هذا أمراً يسيراً لها، لذا كان يقدر تلك التضحيات التي تقدمها من أجله بشكل يومي ويعتزّ بها.

وقبل أن يستطيع التعبير عما بداخله اقتربت منه وأدخلت يدها في جيب معطفه لتتسلل أصابعها بين أصابعه، فارتبكَ قليلاً وقال متلعثماً:

«هـ.. هل ننتقل إلى الميتم؟»

كانت تعلم أنه يحب الذهاب مشياً أكثر من الانتقال، فذلك يساعده على التفكير وترتيب مشاعره عندما تتعقد الأمور، لكن المشي اليوم كان رغبتها هي، فقد أرادت البقاء معه لأطول وقت ممكن، وتأجيل

وقت رحيله قدر الإمكان، هزت رأسها مبتسمة بكآبة:

«لنتجوّل قليلاً».

وبدأا بشق طريقهما نحو الميتم بخطوات بطيئة، وبينما كانا يتجولان بين طرقات ريفر ريتش، كان إبهامه يمسح على يدها بشرود، وبعد لحظات قالت:

«ما الذي يشغل ذهنك؟»

التفتَ إليها ورمشت عيناه عدة مرات بهدوء حتى عاد إلى الحاضر وأدركَ أنها تتحدث معه.

حاولَ ترتيب أفكاره حتى يستطيع إخبارها بطريقة مفهومة، ثم أجاب:

«تذكرينَ أنني مكثتُ لدى عشيرة وارويك السابقة لفترة من الوقت ليقوموا بعلاجي، صحيح؟»

أومأت برأسها فأكمل: «خلال تلك الفترة كانت تداهمني مشاعر غريبة لم أستطع تحديدها، كنت أشعر بها تغمرني وتملأ قلبي حتى

تصبح لديَّ رغبة عارمة في البكاء، ولأنني لم أستطع تحديد ماهيّة تلك المشاعر، ظننتُ أنها مشاعر الامتنان، لأنهم يقومون بعلاجي رغم أنني هجين، وهم يرفضون نوعي بشدة».

شدَّت آمبر قبضتها الممسكة بيده وكأنها تخبره بأن كونه هجيناً لا يشكل أي فارق لديها، نظرَ إلى عينيها لبرهة ثم ابتسمَ واقترب منها، حتى أصبحا يمشيان كتفاً لصقَ كتفٍ بينما سألت:

«ما الذي ذكّرك بالأمر الآن؟»

«لقد أحسستُ بالمشاعر ذواتها عندما ذهبت إلى أليسارك، لكنها هناك كانت واضحة السبب، فقد كانت تعني الانتماء، شعرت بأنني وسط عائلتي ولست غريباً أبداً، مما زاد استغرابي وأعاد لي ذكريات وجودي لدى عشيرة أفيتاز».

صمتَ وعاد إلى أفكاره المبعثرة، بينما حاولت هي تحليل الأمر وفهمه أكثر، ثم قالت بعد لحظات:

«ربما نصفكَ الساحر شعرَ بالانتماء لوجوده بين السحرة».

فكّر قليلاً قبل أن يقول غير مقتنع: «لكنني أنتمي إلى عشيرة أخرى، ولم أشعر بالانتماء إليهم أبداً».

كان ردُّها سريعاً حينها: «ألم تكتشفوا في ما بعد أنهم كانوا يستخدمون السحر الأسود؟» أومأ، فتابعت: «وقاموا بمنعك من تعلّم السحر قدر المستطاع، مما جعلَ قواك غير مشوهة بطرقهم الملتوية»، وعندما وجدته حائراً فسّرت: «ما أقصدهُ أنك لطالما شعرت بأنك منبوذٌ بينهم لأن قواك لم تكن مشابهةً لقواهم، وعندما تواجدت بين سحرة يستخدمون القوى السحرية ذواتها شعرتَ بالانتماء».

نظر إليها بدهشة وقد وجدَ تحليلها منطقياً، ثم ابتسمَ وهز رأسه باستسلام، بادلتهُ الابتسامة باستغراب، ودفعت كتفه بكتفها برفق قائلةً:

«ما يضحكك؟»

قال حينها مستنكراً: «تستطيعين تحليل كل التفاصيل التي تتوارى بين السطور، ثم تقولين إن كيارا مميزة أكثر منك».

شعرت بالخجل وأشاحت بوجهها بعيداً عن نظراته، لكنه رأى تعابيرها بالفعل فانفجرَ ضاحكاً.

أعادت عينيها إليه لكنها هذه المرة كانت ممتعضة، فقمعَ بقية ضحكته وزمّ شفتيه لمنع ابتسامته التي تسللت رغماً عنه.

حينها لم تتحمل تعابيره وابتسمت معلنة هزيمتها، فضحكا بخفة وأكملا طريقهما.

عائلة

جلسُوا جميعهم حول مائدة الطعام في منزل أليكس، عدا زي الذي وقفَ خلف كيارا تأهباً لأي حركة مريبة من جانكو الذي جلس على الكرسي المقابل لها.

أما أليكس وواروبك فجلسا على جانبيها، فبدا وكأن الغربو يتعرض إلى محاكمة من نوع ما، وكأنهم يقومون بتقييم ما سيخبرهم به ومدى أهميته.

كان الغربو عاقداً أصابع يديه بعضها ببعض فوق الطاولة، ويحدق فيها غارقاً في أفكاره، ثم بدأ قائلاً بهدوء كمن يروي لطفل قصة قبل النوم:

«لقد قابلتها بالمصادفة في غابات النور».

علمت كيارا أنه يقصد والدتها، فأعدّت نفسها بتوتر للومضة التي ستراها من ماضي عائلتها، ولم تعلم إن كانت مستعدة لسماع الحقيقة التي يحملها جانكو.

وفي الوقت ذاته لم تُرد التراجع، فشدت قبضتيها المستلقيتين فوق ركبتيها، وسرعان ما شعرت يد أليكس تغطي إحداهما، كوعد صامت بأنهما سيخوضان ذلك التحدي معاً.

تابع جانكو حديثه: «كانت تحملكِ بين ذراعيها، بدت يائسة، كما لو أن جميع الأبواب قد أُغلقت في وجهها، حينها عرضت عليّ ماضيها على عجل، ثم هربت».

تخيلت كيارا والدتها خائفة، لا تعلم أين تختبئ من عشيرتها، شعرت بالأسى على تلك المرأة التي لم تقابلها قط، فهي تعلم شعور الخوف الناجم عن الهرب، شعور فريسة تلاحقها مجموعة شرسة غير رحيمة، فقد لاحقتها العشيرة ذاتها، وحاول أفرادها قتلها كما قتلوا والدتها، لكنها نجت بفضل الجالسين بجانبيها، مما دفعها إلى التساؤل: ألم تجد والدتها من يقوم بحمايتها؟

صمتَ الغريو لوقت طويل، حتى كادت أن تفقد أعصابها، لكنه أغمضَ عينيه أخيراً، وبصوت عميق بعثَ الدفء بداخلها قال بكلمات متتابعة كقصة مسجلة مسبقاً تسمعها عن طريق المذياع:

«قبل أعوام مديدة، سقط رجل مستبصر ضحية لمصاص دماء، رغم علمه بعدم مقدرته على شرب دمائه السامة، إلا أنه أراد قتله والتمتع بتعذيبه، لكنَّ ساحراً قويّاً ظهر من العدم وقام بإنقاذه،

ولشعور المستبصر بالامتنان بعد أن ظن أن موته محتومٌ، قام بإخبار الساحر عن مستقبله قائلاً:

(سترزق بابنتين، لكنهما لن تعيشا طويلاً، ستخترق كلتاهما أحد أعتق قوانين السحرة، وستقوم عشيرتك بقتلهما لمنعهما عن ذلك)

لكن الساحر كان يعلم أن الرؤيا البعيدة كثيرة التغير، فهو لم يتزوج بعد، لذلك لم يأبه بالأمر كثيراً، وأكمل حياته من دون أن يفكر بتلك الرؤيا مرة أخرى.

ولكنه بعد عدة سنوات تزوج، ورزق بابنته الأولى، وبعدها ببضع سنوات رزق بالأخرى، وعُرف وسط عشيرته بوالد الأميرتين، حينها بدأت تراوده الكوابيس التي تنتهي بموت ابنتيه، حتى كاد يجن لخوفه على أميرتيه، وأصبح يعزلهما عن الجميع ويفقد أعصابه إذا ما تحدث إليهما شخص غريب لمدة أطول من اللازم، ففي كل كابوس، كان يرى شخصاً جديداً من عشيرته يقوم بقتلهما، ويستيقظ فزعاً لا يرى أمامه سوى جثتيهما الصغيرتين، وعندما بدأ بملاحظة خوف ابنتيه مما وصل إليه من الحال، قرر الهرب، فخرج عن عشيرته ولم يعد بعدها.

توقف جانكو عن الكلام فعمَّ الصمت المكان، فتح عينيه ببطء، ثم ببطء أشد رفعهما ليقابل عينيْ كيارا المنسجمتين مع قصته، وقال:

«هاتان الفتاتان هما ماكسين[1] وآبيغايل[2]، وذلك الساحر هو إيلاكاي آريش».

رددت الاسم الأخير داخل رأسها متذكرة ما أخبرها وارويك عنه، الساحر القوي الذي انشق واختفى مختطفاً ابنتيه معه بدون إذن العشيرة، مما يعني أنه كان على حق، إيلاكاي آريش هو جدها، مما يعني أيضاً أن إستل كانت تسعى خلف القوة التي تجري في دمائهم.

سمعت صوت نفس وارويك العميق بجانبها، لكنه عندما تنهّد بعدها، شعرت بجسده يسترخي، أما أليكس فقد ارتخت قبضته المحيطة بيدها، وبدأ بالمسح عليها بهدوء، وقبل أن تلتفت إلى أي منهما مستفسرة، أكمل جانكو ما لم تتوقع سماعه أبداً:

«وتلك العشيرة هي عشيرة أفيتازه».
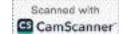
١- والدة كيارا.

٢- والدة رو.

رمشت عيناها عدة مرات قبل أن تستقر كلماته داخل رأسها، التفتت إلى واروبك بعدم فهم، لكنها وجدته مبتسماً بعطف، يومئ بهدوء كما لو أن جميع ظنونه صدقت، قالت في حيرة:

«هل يعني ذلك أن...».

أومأ مرة أخرى قبل أن تكمل، ثم رفع يده إلى رأسها مربتاً مرتين: «ذلك يعني أن عدم مقدرتي على قتلكما كانت لسبب وجيه».

أنزلَ يده إلى كتفها ومسح عليه مضيفاً: «ذلك يعني أن لديكِ قوة كبيرة بداخلك وعلينا السيطرة عليها قبل أن تسيطر عليكِ».

ثم أنزل يده أكثر وأمسك بيدها مقترباً ومشاعره تتدفق إلى صوته: «ذلك يعني أننا عائلة».

قالت بعدم تصديق محاولةً ألا ترفع آمالها كثيراً: «هل من ينتمون إلى العشيرة ذاتها عائلة؟»

ابتسمَ بحنية: «لا، لكن من يحملون الدماء أنفسها عائلة».

أسند ظهره على الكرسي وقال بنبرته المرحة محاولاً الظهور بطبيعته اللعوب، لكن تعابيره كانت تظهر تأثره المماثل لها: «إيلاكاي آريش هو شقيق والدتي، نحن عائلة يا صغيرة».

لم تتحمل السعادة الغامرة التي جرت بداخلها لمعرفة أنهما جزء من عائلة واحدة، لذا دفعت جسدها واحتضنته، فتح ذراعيه واستقبلها بضحكة سرعان ما تحولت إلى شهقة عندما كاد أن يقع إلى الخلف، لكن زي مد يده بسرعة وثبّت الكرسي.

انهمرت دموعها فوق قميصه، فربّت على ظهرها وقال مداعباً ليخفف من حدة مشاعره:

«لا مهرب لكِ مني الآن».

توجهت عيناه إلى أليكس ورفع حاجبيه مرتين وقال ساخراً من صديقه: «يبدو أن الأحضان تخص أفراد العائلة فقط».

تنحنح جانكو منظفاً حنجرته، فعادت إلى كرسيها محرجة، تمسح وجنتيها بظاهر كفيها، وقالت بضحكة رقيقة:

«آسفة، لم أستطع تمالك نفسي».

ابتسمَ لها بلطف: «لا بأس، أنا أتفهم موقفك».

أومأت له ممتنة فعادت تعابيره إلى الجدية واستطرد: «والآن ماذا عن ابنتي؟»

لم تستطع ألا تعجب بنظراته الحادة المناقضة لتاشا، ظنت سابقاً أن نظراتها ودودة، لكنها الآن أدركت أنها خاضعة، نظرات فتاة اعتادت الخوف، أما هو فكانت نظراته تعكس إنهاكه من الحذر والاحتراس بشكل متواصل، لكنها رأت عزيمته كذلك، ولسبب ما كانت واثقة من أن الجالس أمامها لن يمنعه أي شيء من حماية ابنته.

أجابته مشيرة إلى زي خلفها: «سنعيّن حارسَ الملك الشخصي لحمايتها».

تفاجأ جانكو لحصوله على حارس الملك، نظر إلى زي سريعاً فأومأ له الآخر باحترام، مؤكداً له على حماية تاشا، أغلقَ عينيه متأثراً وتنهّد بارتياح حصلَ عليه بعد عناء طويل، وقفَ وصافح يدها بحرارة،

وقال بامتنان بالغ:

«لن أنسى لكِ هذا المعروف أبداً».

اكتفت بالابتسامة بينما أخبره الكس أن زي سيبدأ بحراستها من الصباح التالي، فبدأ جانكو بكتابة عنوان منزله، وبالرغم من أن زي لن يكون بحاجته لقدرته على إيجادهم بسهولة، إلا أنه أخذ منه العنوان بصمت، همّ عندها الغريو بالذهاب، ثم توقف فجأة والتفت إلى كيارا قائلاً:

«سأسدي إليكِ بنصيحة»، تردَّد قليلاً حين أكمل: «الغريو يتشاركون الماضي فيما بينهم».

توقفَ منتظراً أن تدرك مقصده دون أن يصرِّح به بشكل واضح، وأثناء نظره إلى عينيها فهمت أن تاشا قد شاركت ماضيها مع جانكو، فأردف:

«كان السحرة يستخدمون نوعاً نادراً من السلاسل في سجونهم، يستطيعون تقييد قوة المسجون بها، سلاسل أصبحت صناعتها ممنوعة في ما بعد بأمر من العنق، لكونها مصنوعة من عظام المستذئبين».

قالت باستغراب: «لِمَ تخبرني بذلك؟»

لكن أليكس فهم وسأل سريعاً: «هل تعلم مكان السلاسل المتبقية منها؟»

«لا علم لي بهذه الأمور»، قال مدعياً الجهل، ثم عقد يديه خلف ظهره ونظر إلى الأرض وكأنه يفكر بصوت مرتفع: «إن كنتُ أريد أمراً مماثلاً، فأين أجده يا ترى؟»

رفع كتفيه كناية عن عدم معرفته متابعاً: «يا للأسف! لو لم يهجر السحرة مملكتهم تاركين خلفهم تاريخاً عريقاً لنصحتكم بالبحث هناك».

ابتسمَ وارويك ابتسامة جانبية وهز رأسه ساخراً: «تباً، أنت تتحدث بألغاز صعبة الفهم».

فراق موقت
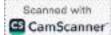
راقب أليكس كيارا في الفناء الخلفي وهي تخبر رو بالمستجدات بحماسة، بينما وقف وارويك بجانبها بابتسامة واسعة، التفت إلى زي الواقف خلفه قائلاً بنبرة صارمة:

«عليك أن تكون حذراً ومترقباً، يجب أخذ أمر حمايتها بجدية».

حنى زي رأسه فوراً لكن أليكس أكمل: «فشلك يعني فشل المملكة في تلبية وعودها، إخفاقك سيعود بالضرر على سمعة كيارا، ابقَ متيقظاً».

حنى رأسه مرة أخرى ثم تبعَ ملكه إلى الفناء حيث كانت كيارا تضحك بينما لفَّ وارويك ذراعه حول عنق رو، وفركَ رأسه بمفاصل أصابعه قائلاً:

«ستتبع أوامري بعد الآن، هل فهمت؟ لن أقبل أية أخطاء».

قال رو بصوت مختنق: «أنا أتبع أوامرك بالفعل، لم أعارضك في السابق أبداً».

توقفَ وارويك عن أذيّته قائلاً بإدراك: «ذلك صحيح»، ثم التفتَ إليها وأشار بسبابته: «أنتِ من مخالفين الأوامر دائماً».

ابتلعت بقية ضحكتها ثم فركت رأسها بحرج، اقترب منها بسرعة ولفَّ ذراعه الأخرى حول عنقها، وأكمل مدعياً الغضب بينما حاولَ كلاهما الهرب من قبضته: «لا عجبَ أنني لم أستطع البقاء مستاءً منكِ».

أرادت أن تضحك، لكن يده اعتصرت حنجرتها فبدأت بالسعال، عندها قال أليكس محذراً أثناء اقترابه منها:

«واروِيك».

تنهَّد واروِيك وتركها متأففاً: «ها قد أتى قاتل المتعة».

اقترحَ ببرود: «لمَ لا تجرب اللعب معي إذاً؟ لنرى بكم من المتعة ستحظى؟»

أبعدَ واروِيك وجهه عن وجه صديقه بتعالٍ: «اللعب معك ليس ممتعاً».

وقفَ أليكس بجانب كيارا ومسَّد شعرها الذي أفسده صديقه وهو يحدثه: «ذلك صحيح، لأنكَ لن تضاهيني في اللعب».

التفتَ إليه منذراً: «توقّف عن أذية من هم أقل منك قوة».

احتجّ فوراً: «أنا لا أقوم بأذيتهم، نحن نلعب، بالإضافة..»، عقدَ ذراعيه أمامه وقال مفتراً: «لا تتدخل في أمورنا العائلية، أنا وكيارا عائلة، أما أنت فمجرد...»

قاطعه بحدة: «رفيقها المقدّر».

واورويك بعناد: «العائلة أهم!»

نقلَ رو نظراته بينهما غير قادر على التدخل، ثم التقت نظراته بعيني كيارا المتسعتين، رفعت كتفيها وحالها يقول:

(لا دخلَ لي بالأمر).

لكنّهما حينها التفتا باتجاهها، وانتظرا أن تقوم بالاختيار، لم يكن عراكهما أمراً جديداً لكنها كانت سببه هذه المرة، وأمام نظراتهما وصمت الجميع، أشاحت بوجهها بتوتر وخجل متمنية أن تختفي من مكانها، ثم تذكرت أنها تستطيع فعل ذلك، فاختفت منتقلةً إلى المنزل.

حملت أحد الصناديق والتفتت إلى الفناء لتجد أنها عادا إلى الشجار مرة أخرى، فتنهدت واختفت عائدةً إلى الخارج.

ظهرت بجانب واروبك الذي كان يقول:

«ستُجيبنا هذه المرة».

اقتربَ زي منها وأخذ الصندوق بصمت، فأمسك أليكس بيدها وسحبها إلى جانبه قائلاً بنبرة مشحونة:

«توقف عن إحراجها».

ردَّ بصوت مرتفع متقززاً منه: «توقف عن لمسها!»

حدَّقَ صديقه فيه بتعابير تراوحت بين عدم التصديق والسخط، وكأنه قال أمراً مهيناً للغاية، قبل أن يجيب بنبرته الباردة:

«يبدو أنَّ لديك متسعاً من الوقت للتدخل في ما لا يعنيك».

واروبك بانفعال: «كيف لا يعنيني ونحن عائلة؟!»، أخذ نفساً غاضباً ورفع إصبعه أمام وجه أليكس قائلاً: «قل الحقيقة، أنت تتصرف بهذه الطريقة لأنها لم تحتضنك كما احتضنت رو».

قال رو بضياع وبصدمة مشيراً إلى نفسه: «أنا؟ ما دخلي أنا؟»

نظرَ أليكس إلى وارويك شزراً فأكملَ الآخر بابتسامة منتصرة: «واليوم احتضنتني كذلك».

رسمَ الحزن بتعابيره، وأكمل بشفقة مصطنعة: «ولم يبقَ سواك».

فتح فمه لقول شيء مندفعاً باتجاه وارويك، لكن رو تدخَّل بينهما سريعاً وقال صارخاً:

«هذا يكفي!»، وعندما جذب انتباههما تابع بغضب: «لا أعلم كم سيطول تدريبي وكم سأغيب عنكم! وأنتما تضيعان وقتي الثمين بهذا العراك السخيف».

تقدَّم وأمسك بيد كيارا وسحبها إلى جانبه قائلاً بصرامة: «سآخذ ابنة خالتي إلى المملكة لقضاء بقية الوقت معاً».

أشار إلى أليكس ووارويك بسبابته: «وبما أنكما تملكان من الطاقة ما يكفي للشجار، قوما بنقل الصناديق وحدكما».

أشار إلى زي بسرعة ثم تردد لوهلة قبل أن يعقد حاجبيه ويكمل مغمغماً: «أنت لا دخل لك، يمكنك القدوم معنا».

حدّق جميعهم فيه بدهشة وصمت، بينما مدّ هو يده إلى زي لينتقل معه، فنظر إلى أليكس نظرة خاطفة من طرف عينيه طالباً تعليماته، كانت إجابة أليكس رمشة بطيئة أعلمته بالموافقة، فأمسك بيد رو واختفوا جميعاً تاركين الصديقين ليكملا العمل.

التفتَ واروِيك للعودة إلى المنزل، لكنه توقف فجأة وقال مؤنباً نفسه:

«تبّاً»، نظرَ إليه أليكس متسائلاً فأردفَ: «لقد نسيتُ أن أسأل ذلك العجوز شيئاً مهماً» عقدَ الآخر حاجبيه باهتمام فتابع: «ما الذي كانت تفعله ماكسين في غابات النور من الأساس؟»

وقفا في حيرة للحظات قبل أن يكمل أليكس طريقه إلى المنزل قائلاً:

«سؤال ليوم آخر».

سبقه واروِيك في الولوج إلى الداخل، فتوقف وتأمّل صديقه من مكانه، كان يحمل الصناديق وينقلها بتعابير تعكس رضاً داخلياً،

اعترى أليكس حينها إحساس عميق بالامتنان لذلك المنعطف من حياتهم، فقد كان يدرك أن واروِيك بحاجة لهذه العائلة أكثر من رو وكيارا، فكلاهما لم يعرفا شعور الانتماء من قبل، لذا كان حصولهما عليها الآن إضافة جميلة إلى حياتهما، لكن بالنسبة إلى واروِيك؛ فقد كان فقدانه لعائلته سلسلة متتالية من الخيبات والألم، لذا علِمَ أن الابتسامة الدافئة في وجه الساحر الآن تعكس ازدهار أمل متجدد في صدره.

أما رو فظهرَ في جناح كيارا في القصر الملكي، استأذن زي بالوقوف في الخارج بجانب الباب، لكن رو استوقفه:

«لقد أردتُ الحديث معك قليلاً».

وجّه المارشال جسده نحوه كناية عن انتباهه فتابع: «أشعر بالقلق لترك آمبر خلفي بعد ما حدث لرايتشل، لسنا متيقنين من سبب الهجوم، ولا نعلم إن كان للبحث عن كيارا أم تاشا، لذلك سأخبرها بملازمة تاشا في الوقت الحالي».

فهمَ زي أنه يريد منه حمايتها، فبدأ بحني رأسه لاتباع تعليماته، لكن رو منعه قائلاً: «لستُ مخولاً بإلقاء الأوامر، أنا أطلب منك ذلك كصديق فحسب».

مرَّ شبح ابتسامة على شفتي زي بشكل خاطف قبل أن يومئ واضعاً يده فوق صدره قائلاً: «بكل سرور».

ابتسم زو ممتناً: «شكراً لك».

حينها توجَّه إلى الخارج وقامت كيارا بطلب كوبين من الشاي، وبعد عدة لحظات جلس كلاهما أمام طاولة دائرية صغيرة بجانب النافذة، وأمام كل منهما كوب ساخن، وبينما كان رو ينظر إلى الخارج، كانت كيارا تحدق في البخار المنبعث من كوبها، ثم كسرت الصمت:

«عشيرة أفيتاز إذاً».

اتكأت على الطاولة محيطة كوب الشاي بذراعيها: «ما هي الخطوة التالية برأيك؟»

نظر إليها متفكراً، فبالنسبة إليه، لم تشكل هذه المعلومة اختلافاً كبيراً، مدركاً حينها أنه قد توقف عن السعي للبحث عن عائلة، مكتفياً بالعائلة التي اختارها لنفسه، لكنه قبل أن يجيبها وضع بعين الاعتبار عائلة الغربان وإن كانت كيارا تريد أمراً مشابهاً، وبعد تفكير طويل سأل:

«هل نحن بحاجتهم؟»، رفعت عينيها إليه فأضاف: «أنا بحاجة أبناء الغراب للتدريب، وبالرغم من أن دمي يميل إليهم إلا أن قلبي لا يشعر بالمثل، إن ذهبتِ إلى عشيرة أفيتاز فقد يشعر دمك بالانتماء إليهم لكنني أكاد أجزم أن قلبك سيكون له رأي مخالف».

تنهَّد ثم أردف بأسىً: «عشيرة أفيتاز عشيرة تعتز بنقائها، لا أظن أنهم سيرحبون بنا، كما أنني لا أثق بهم، فلو كانوا أهلاً للثقة لعادَ واورويك إليهم، أليس كذلك؟»

فكرت في ما قاله لبعض الوقت، كانت تعلم أنها ليست في حاجتهم، لكنها أرادت التخلص من الشعور بالضياع، لذلك ظنت أن تواصلها مع تلك العشيرة قد يضع النقاط على الحروف، ثم قالت أخيراً:

«لديَّ الكثير من الأمور المهمة التي تشغلني الآن، لذا لن أفكر بهم حالياً، سأصب كامل تركيزي على التدريب».

صمتت بعدها، لكن أفكارها تابعت تسلسلها:

(ربما ذلك ما أحتاجه للتخلص من الشعور بالضياع، التدريب)

ربما إن شعرت بالاستقلالية، ربما إن كنت أستطيع حماية نفسي من دون المساعدة، ربما حينها لن أشعر برغبة بالتواصل معهم».

حسمت أمرها مقررة إعطاء التدريب الأهمية، أمسكَ رو بيدها فوق الطاولة وقال:

«مهما كان قرارك، ستجدينني بجانبك».

شعرت بالدفء يتغلغل في وجدانها كما لو أنه احتضنَ روحها، نظرت إليه بابتسامة حزينة:

«سأفتقدك كثيراً».

عقدَ حاجبيه متأثراً، ثم هزَّ رأسه بسرعة ليمنع دموعه من النزول، اتكأ على الطاولة مقترباً منها وأنشأ وعداً جديداً:

«لنعدْ من التدريب أكثر قوة».

أومأت برأسها، وروح التحدي مشتعلة في صوتها: «لنصبح أكثر قوة».

تھُرّب

انتقلَ رو إلى خارج منزل عمه بعد أن قام بتوديع الجميع، وقبل أن يطرق الباب شعر بصفعة من الخلف تصحبها ضحكة عالية علمَ صاحبها فوراً...

رينجر.

لفَّ ابن عمه ذراعه حول كتفيه، قائلاً بصوته الأجش المرتفع: «من الجيد أنك عدت، فقد بدأت أشعر بالملل».

ثم دفع باب المنزل ودخلَ ساحباً رو أسفل ذراعه الضخمة، كان سايفر يتناقش في أمر ما مع ابنه لانس والتفت بلا مبالاة لتحية رينجر بشكل سريع، لكنه انتبه إلى رو فاستدار إليهما بكامل جسده، تهللت ملامحه مستبشراً برؤيته، فشعر رو بالذنب لأن قدومه كان لخدمة مصالحه الخاصة، مما دفعه إلى تبرير موقفه فوراً ليريح ضميره:

«سأقول الحقيقة، أنا لا أشعر بالانتماء إليكم»، أحسَّ بجسد رينجر يتصلب بجانبه قبل أن يبعد ذراعه من فوق كتفه بلطف وأكمل: «وبكل صدق، أنا لا أشعر بذلك في أي مكان آخر كذلك، لذا أرجو ألا تتوقع مني قيادة أبناء الغراب أو استلام أي منصب أنا لست أهلاً

له، لقد أتيت للتدرب فقط، إن كنت تظن أن تدريبك لي سيكون سبباً لبقائي معكم بشكل دائم، فأنت مخطئ، فأنا أنتمي حيث كيارا تكون».

حدَّق فيه عمّه بدهشة لبرهة، ثم أومأ برأسه مبتسماً، لكن رو رأى بعض الخيبة خلف تلك الابتسامة.

أجابه أخيراً: «كما أخبرتك مسبقاً، لن أجبرك على البقاء».

اقترب منه وربَّت على كتفه متابعاً بنبرة متأملة: «لكنني أتمنى أن تتغير مشاعرك تجاهنا في ما بعد».

شد قبضته على كتفه مرحّباً: «أهلاً بك بيننا».

حاول عمّه أن يقنعه بالبقاء وتناول العشاء لكن رو أراد أن يستريح بعد يومه الطويل، وقبل أن يستأذن بالخروج سأل:

«هل سنبدأ التدرب غداً؟»

أجابه سايفر مؤكداً: «سأدربك بنفسي».

أومأ عدة مرات ثم قال: «أريد التدرب بقسوة، لذا آمل أنك ستأخذ الأمر على محمل الجد، أريدك أن تدربني كما لو أن حياتي على المحك».

نظر إليه عمّه باستغراب ثم صمتَ مفكراً لبرهة قبل أن يقرر مشيراً خلفه: «في هذه الحالة، سيدربك لانس».

وقعت عيناه على لانس الذي لم يُخفِ انقباضه منه، لكنه هذه المرة بدا مهتماً للأمر، كما لو أن فكرة تدريبه أعجبته، مما جعل رو يتوجس من نواياه، همّ بالرفض لكن سايفر تابع:

«إن أردت أفضل النتائج، فلانس هو الاختيار الأمثل، لكن البقية يتجنبون التدرب معه لعدم تساهله معهم».

أعادَ نظراته إليه والشك يتنابه، فقد كان انطباعه الأول هو أن رينجر هو الأقوى، بينما لانس هو الأذكى، التفت إلى رينجر متسائلاً إن كانت بنيته الجسدية قد ضللت حكمه، ابتسم له رينجر مقترحاً:

«هل تفضل التدرب معي؟»

تردَّد حينها وأعاد نظراته إلى لانس، لكنه وجده يعاينه باستخفاف استفزّه كثيراً، كما لو أنه يخبره بعينيه بأنه لن يتحمل تدريباته، رفع رو حاجبه بغيظ فبادله الآخر نظرات متحدية دفعته إلى الموافقة وقبول

التدرب لديه، لكنه أثناء عودته إلى منزل والده في ما بعد، تساءل إن كان قراره خاطئًا، وإن كان لانس سيكون عقبة أخرى أمام وصوله إلى هدفه.
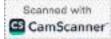
استلقت كيارا في جناحها تتأمل تلك الرسومات التي زخرفت السقف، تفكر بنوع التدريبات التي اختارها لها وارويك، فكما بدا لها كان يحمل خطة محكمة، ابتداءً من منع التواصل مع رو وعودتها إلى جناحها، زاعماً أن أليكس سيكون سبباً لهوانها.

اعترضَ أليكس بشدة لكنه استسلم عندما قالت:

«إنْ كان ذلك ما عليّ فعله لأصبح أقوى، فأنا موافقة، لا أريد أن أصبح عبئاً على هذه المملكة أو سبباً في دمارها».

أغمضت عينيها بانتظار يوم جديد يقودها إلى حياة أفضل، لكن ذكريات ليلة إعدامها عادت وكأنها تثبت لها أن سعيها سيكون محفوفاً بشتى أنواع المصاعب.

استيقظت على صوت طرقات على الباب، نظرت إلى النافذة ووجدت أن الوقت مبكرٌ للغاية، فلم تشرق الشمس بعد، لذا غطت رأسها بالوسادة مغمغمة بامتعاض، لكن وتيرة الطرقات زادت معترضةً أية محاولات لها للعودة إلى النوم، رمت الوسادة على الأرض وتأففت بانزعاج:

«ادخل!»

لكن الطرق توالى بطريقة مستفزة، فنهضت متثاقلة واتجهت إلى الباب تسحب جسدها عالمة مَن خلفه سلفاً، فتحته على مصراعيه لوارويك المبتسم، رفع يده ملوحاً لها بتعابير ساذجة بينما قامت هي بقتله بعينيها مائة مرة، نظرَ إليها من الأعلى إلى الأسفل ثم سأل ببراءة:

«لماذا لم تتجهّزي بعد؟»

ردت صارةً على أسنانها بنبرة مشحونة: «الوقت مبكر للغاية».

مال إلى الجانب ونظر خلفها إلى شرفتها كما لو أنه أراد التحقق، ادّعى تعجبه حين قال: «الشمس لم تشرق بعد!».

ابتهجت متأملةً عودتها إلى النوم: «أجل، أرأيت؟»

لكنه حينها ابتسمَ بمكر: «أنا مدرك للوقت جيداً أيتها الصغيرة، هيا بنا».

ذبلت سعادتها المؤقتة وحاولت إقناعه: «لكن...».

قاطعها واضعاً يديه على كتفيها ثم أدارها باتجاه خزانتها، وبدأ يدفعها لتبدِّل ثيابها: «تدريبنا الأول يبدأ قبل الإفطار».

تأوهت كما يفعل الأطفال وحاولت إقناعه مجدداً لكنه تجاهلها حتى وصلا إلى منتصف خزانتها التي كانت أكبر من غرفة نومها في ريفر ريتش.

نظرَ حول المكان وقال:

«اختاري رداءً ملائماً للتدريب، واثق أن أليكس قد اختار لكِ ثياباً مناسبة، كتلك التي جهزها للحرب في ما سبق».

لديها الكثير من الثياب المناسبة لكنها كانت غاضبة حينها، فدفعت
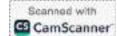
يديه عن كتفيها واستدارت إليه بحنق: «لهذا السبب أردتَ مني العودة إلى جناحي، أليس كذلك؟ أليكس لن يسمح لك بإخراجي من الفراش قبل نيل كفايتي من الراحة».

رمشَ بعينيه مدعياً عدم فهمه لما تقول، وعلى وجهه ابتسامة بليدة أرادت مسحها عن تعابيره بصفعة قوية تُريه مقدار انزعاجها، زفرت مستسلمة قبل أن تقول صارّةً على أسنانها:

«اخرج لأبدّل ثيابي».

صفّق مشجعاً: «هذه هي روح التدريب التي أبحث عنها».

التفتَ متوجهاً إلى الخارج وقبل أن يغلق الباب بشكل كامل قالت متمتمة: «سأريك روح التدريب جيداً عندما أقوم بركلك و.....».

ثم أكملت بكلمات غير لائقة بفتاة، فضلاً عن ملكة، تعالى صوت ضحكته حتى جزمت أن جميع من في القصر سمعوها.

هزت رأسها بعد ما تسللت ابتسامة إلى شفتيها بسبب ضحكاته العالية، ثم بدأت بالبحث عن رداء مناسب، تشاورت مع أفكارها

بأخذ وقت طويل في دورة المياه لإزعاجه فقط، ثم ثنت نفسها عن ذلك لعلمها أن كل ما يفعله يصب في مصلحتها، فتجهزت سريعاً وتوجهت إلى الخارج حيث كان ينتظرها أمام باب الشرفة، التفتَ إليها ثم عقد ذراعيه ونظر إلى ثيابها متفحصاً.

حذاء أسود مخصص للقتال كالذي ينتعله الجنود، بنطال قرمزي قاتم مالَ إلى الأسود كثيراً، ومصنوع من الجلد، تلفّه الأحزمة في أماكنَ مختلفة مخصصة لحمل الأسلحة الصغيرة، قميص بلا أكمام شابهَ البنطال وكأنهما صُنعا من المواد أنفسها، التفّ حول خصرها حزام آخر مشابه لذاكَ الذي حول ساقيها.

كانت تحمل قطعة من الثياب بيدها ثم بدأت بارتدائها وهي تعود أدراجها إلى داخل الخزانة مرة أخرى، ليتضح له أنه قميص قطني أسود ذو أكمام طويلة ورقبة مرتفعة.

لحقَ بها وتتبّعها بنظراته بفضول حتى وقفت أمام قسم كامل من الثياب المماثلة لتلك التي ترتديها، التقطت قطعة أخرى من بينها، علم لاحقاً أنه معطف طويل أسود يصل إلى أعلى ركبتيها.

وبعد أن انتهت التفتت إلى واروبك الذي بدا استغرابه على تعابيره، تساءلت بعينيها عن السبب فقال:

«فسّري لي ثيابك».

نظرت إلى جسدها ثم أعادت عينيها إليه مجيبة بنبرة آلية وكأنها تكرر ما سمعته: «عدة طبقات، لأن التدرب على القوة السحرية لن يقوم بتدفئة جسدي بشكل كافٍ، أما الجلد فهو للتدرب المختص بقواي العنقية، فالمادة التي صُنع منها لن تتأثر إلا بدرجات عالية من الحرارة».

أشارت إلى قسم الثياب خلفها: «لديَّ قسم كامل منها في حال تضررت من التدريب».

ابتسمَ واروبك: «أليكس، أليس كذلك؟»

توجهت إلى إحدى الخزانات المغلقة وفتحت بابها ثم أردفت متنهدة: «والكثير من الأسلحة».

نظرَ مبتسماً بانبهار إلى أنواع الأسلحة الحادة؛ سيوف وخناجر وسكاكين، فؤوس، رماح، سهام بأقواسها، جميعها بأحجام وأشكال

مختلفة، وأسلحة لم يعلم لِمَ ظن أليكس أنها ستقوم باستخدامها، وأخرى وجد أنها مناسبة ولم يعلم لِمَ لم يفكر بها قبله.

فهِمَ من نوع الأسلحة أن أليكس قرر تدريب قواها الجسدية إضافةً إلى قواها السحرية، فنظر إليها متسائلاً:

«ماذا عن قواك العنقيّة؟»

رفعت كتفيها وأمسكت بثياب نومها وبدأت بترتيبها مجيبة: «لا علم لي، ما زال يرفض فكرة تدربي لدى سيارك».

تعجّب من تركها القرار بيده قائلاً: «ألا يعود الأمر لكِ؟»

توقفت يداها عن الحركة وأبقت عينيها على ثيابها صامتةً لوهلة قبل أن تقول: «أهاب اتخاذ قرار خاطئ آخر، سأترك هذا القرار له فهو يحمل الكثير من الحكمة».

أُعجب بالنضج الذي وصلت إليه وظهر ذلك على ملامحه حين قال: «هذا صحيح»، ثم أضاف منبّهاً إلى نقطة أخرى: «لكنه يحمل الكثير من الحب والخوف تجاهك كذلك، لو عادت جميع القرارات

إليه، لفضَّل وضعك داخل زجاجة، ومنعَ لسعات البعوض عنك، فضلاً عن لسعات النار وكدمات التدريب».

ابتسمت برقة وهي تضع ثيابها في مكانها الصحيح موافقة على ما قاله: «أجل».

ذُهل من تقبلها لحماية أليكس المفرطة، ولم يعلم إن كان السبب نضجها أم آلامها السابقة، تساءل إن كانت تساير أليكس للوصول إلى نقطة تفاهم تسعد كلا الطرفين، أم أنها قررت الاختباء خلفه وترك زمام الأمور له.

هل ظنت بالفعل أن أليكس يحمل القرار المناسب لها؟ أم أنها تتهرب من التدرب لدى سبارك لخوفها؟.

وبالرغم من لحاقها به وبدء التدرب بجدية، بالرغم من أنها تدربت حتى دفعت جسدها إلى الإنهاك التام، بالرغم من إصرارها على النجاح في مسعاها، إلا أنه لم يستطع دفع تلك التساؤلات خارج رأسه، وتدافعت الأسئلة داخله طوال اليوم منتهية عند نقطة مهمة مضمونها يقول:

هل تسبَّب احتراقها بصدمة لن تستطيعَ تجاوزها؟

یأس
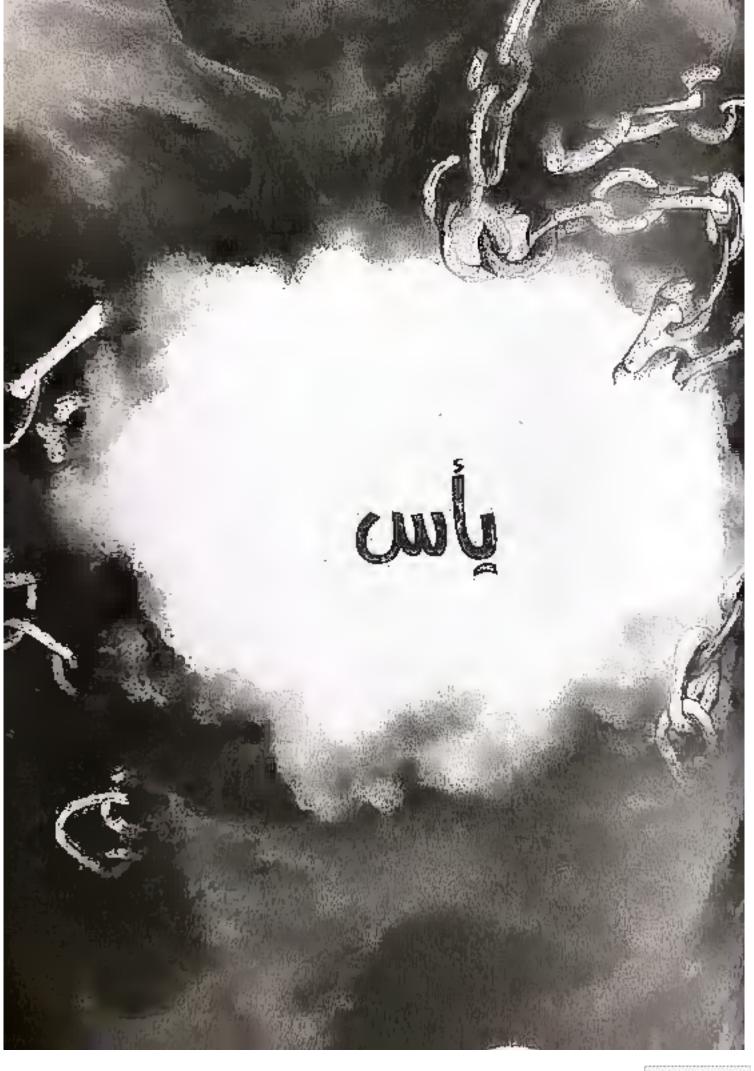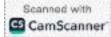
نظرت تاشا عبر نافذة المنزل باحثة عن الحارس المنتظر، التفتت إلى والدها الجالس أمام مائدة الطعام الصغيرة يتناول إفطاره، وقالت:

«لم يأتِ الحارس بعد يا أبي».

توقفَ جانكو عن الأكل، ثم وضع ملعقته فوق الطاولة سارحاً في أفكاره للحظات وقد عكست تعابيره مخاوفه وشكوكه، ثم تنهّد قبل أن يقول بصوت منخفض كما لو أنه يحدث نفسه:

«لقد أتممتُ طرفي من الاتفاق، سينفذون طرفهم بكل تأكيد».

انتظرته ليوضح لها مقصده لكنه نظر إليها وقال مطمْئناً: «اذهبي إلى المدرسة، أنتِ بأمان».

لم تكن نبرته واثقة فعلمتْ عدم تيقنه مما يقول، ولأنها لم تملك خياراً آخرَ، حملت حقيبتها وتوجهت إلى الخارج.

كانت تلك حياتها وقد اعتادتها، فقد أدركت أنها في خطر دائم قبل أن تدرك قواها، تعلمت التشكيك بجميع الغرباء قبل أن تتعلم اسمها، سئمت الاحتراس المتواصل منذ وقت طويل، لكنها مارسته طوال حياتها، فأصبح عادةً مغروسةً في أيامها.

بدأت بالمشي عبر طرقات البلدة تراقب البساطة التي يعيش فيها الناس، قضت سنواتها متنقلةً بين المدن الكبيرة سابقاً ولم تستقر في بلدة حتى وصلت إلى ريفر ريتش، والسبب هذه المرة هو وجود الملك أليكساندر كما قال والدها.

كانت حياتهما بسيطة رغم الهرب المستمر، لا يمضيان أكثر من سنة في مدينة واحدة، ولا يحملان سوى هدف واحد؛ ألا وهو النجاة.

لكن مؤخراً، بدأ الأمر بالتطور، فأصبح تنقلهما الاحترازي من مكان إلى آخر، أمراً اضطرارياً، فلم يعودا يتنقلان لتجنب الخطر، بل هرباً منه، ولم يعلما كيف أو متى كُشف وجودهما، لكنهما واثقان من حدوثه، بسبب المطاردة التي عايشاها خلال السنوات القليلة الماضية.

انقطع حبل أفكارها عندما شعرت بأنها ملاحقة، سرت قشعريرة في عنقها من الخلف أعلمتها أن هناك من يراقبها، فغيرت طريقها لتبقى حيث يحتشد الناس المتوجهون إلى أعمالهم أو مدارسهم، لكنها بعد لحظات أدركت أن عليها العودة إلى الطريق المؤدي إلى المدرسة، ولأنها تأخرت عن الخروج من المنزل في ذلك الصباح منتظرةً الحارس الذي وُعدت بوجوده، كان ذلك الطريق خالياً لا محالة، فقد بدأت الحصص مسبقاً.

أكملت سيرها على أمل أن من تشعر بوجوده هو الحارس الذي سيحميها وليس قاتلها الذي لاحقها من مدينة إلى أخرى، استرقت النظر خلفها عدة مرات ولم تجد أي دليل يخبرها بوجود أحد، عدا ذلك الإحساس الغريب الذي يراودها، لكنها تثق بحدسها، بسبب حياتها التي لم تخلُ من الحذر.

لم يُصدر مراقبها أي صوت، ولم يظهر نفسه، وعندما اقتربت من المدرسة واستطاعت رؤية بواباتها الأمامية، تحققت من أن من يتبعها هو الحارس، فلو كان شخصاً يريد اختطافها لفعلَ ذلك قبل أن تصل إلى بقعة مكشوفة، لكنها لم تفهم لماذا يحرسها من مكان بعيد بدلاً عن مشاركتها الطريق، تساءلت إن كان ذلك جزءاً من الاتفاق كون والدها لم يخبرها بالكثير عما حدث.

التفتت باحثةً عنه وتنقلت عيناها حولها قبل أن تتساءل فجأة إن كان سبب بقائه بعيداً هو خوفه من كشف ماضيه لها، فقالت بصوت مرتفع:

«الغريو يرون الماضي عبر ملامسة مباشرة للبشرة».

أجابها هدوء نسيم الصباح وزقزقة عصفور بعيد، فانتظرت ظهوره لبعض الوقت قبل أن تعيد المحاولة: «وجودك في محيطي لن يكشف ماضيك، يمكنك الاقتراب».

لم تعلم لماذا افترضت أن الحارس رجل وليس امرأة، لكنها كانت تعلم جيداً لم تحاول إخراجه من مخبئه، فقد كانت وحيدة للغاية بسبب تنقلاتها المستمرة، ولم تستطع الحفاظ على صداقة تدوم أكثر من سنة، وعندما أخبرها والدها بقدوم حارس ملازم لها كانت أول أفكارها هي أن تكوّن صداقة بينهما، واختباؤه حطّم أحلامها التي بدأت ببنائها منذ الليلة الماضية.

انتظرت للحظات انتهت بإحباطها، فتنهدت مستديرة لتكمل طريقها، لكن قدمها تعرقلت بالأخرى وسقطت، أغمضت عينيها عندما رأت الأرض تقترب من وجهها بسرعة، لكن الاصطدام لم يحدث، بل شعرت بذراع تلف خصرها من الخلف وترفعها.

احتضنت تلك الذراع متعلقةً بها بطريقة لا إرادية، ثم فتحت عينيها ملتقطةً أنفاسها التي اضطربت فجأة، وبقيت متدلية في الهواء تحدق في حذاءين لهما مقاس كبير.
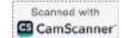
خفضَ زي ذراعه ببطء لتقف على قدميها لكنها شهقت وثنتهما بسرعة لكيلا تلامسا الأرض وكأنها مصدر الخطر، حدقت أسفلها بعينين متسعتين فزعةً قبل أن تبدأ باستيعاب تصرفاتها، فتداركت نفسها منزلةً قدميها، دافعةً الذراع التي تلفّها، ثم استدارت.

اتسعت عيناها بانشداه، فعندما تخيلت حارسها الشخصي، لم تتوقع شخصاً كالذي يقف أمامها، شخصاً ينتمي إلى صور المجلات لا للحراسة.

شعره الذهبي المتناثر حول وجهه حتى منتصف وجنته، عيناه الحادتان الشديدتا الزرقة، ملامحه الوسيمة ممزوجة بتعابيره الجادة، مما أعطاه هالة مهيبة.

لم تكن تاشا بالفتاة الطويلة، بل كانت أقصر قريناتها عادةً، لكنها لم تأبه بالأمر أبداً، حتى وقفت أمام حارس فارع الطول، مما دفعها إلى إرجاع رأسها للخلف حتى تستطيع النظر إليه، عادت إلى الوراء بارتباك، ثم قالت محاولةً إخفاء إحراجها:

«أأنت الحارس؟»

أجاب بطريقة آلية وبصوت عميق: «المارشال زينارد أزموديوس»، رفع يده لمصافحتها: «يدعونني زي».

حدقت في يده الممدودة باستغراب قبل أن ترفع نظراتها إليه مغلمة: «أنا غريو».

رفعَ حاجبه: «أعلم ذلك».

أضافت عندما أبقى يده على حالها: «نحن نرى الماضي»، عقد حاجبيه بخفة كما لو أنه لم يفهم ما تحاول إيصاله فتابعت مثرثرة بارتباك: «الملامسة.. الملامسة المباشرة هي طريقة الرؤية، أقصد.. أنَّ أموراً كالمصافحة أو.. أو.. غيرها من الملامسات المباشرة، ما أحاول قوله هو..»

زمَّ شفتيه بانزعاج طفيف لرفضها مصافحته، تقدم خطوة ونقرَ أنفها بسبابته، ثم أبقى إصبعه مكانه ليوضح لها أمراً ما، تجمدت مكانها مصدومة، واحولَّت عيناها حتى تنظرا إلى مكان الملامسة.

منعَ ابتسامته من الظهور لتعابيرها المتفاجئة إضافةً لتقاطع عينيها بذلك الشكل الظريف.

أما هي فلم تنتبه إلى استمتاعه بوقته، فقد كانت مصعوقة بما تراه، أو بالأصح، بما لا تراه، فبالرغم من التلامس المباشر بين إصبعه وأنفها، إلا أنها لم تر أي شيء.

أزاحَ إصبعه أخيراً فرفعت عينيها إليه، وقالت متلعثمة:

«كيف.. ألا...؟»

أشار إلى رأسه وقال ببساطة: «هناك حاجز».

كررت ببطء وحيرة: «حاجز؟»

أومأ بهدوء: «تعويذة تمنع الرؤية في الداخل».

أومأت ببطء راغبةً بسؤاله عن السبب الذي دفعه لوضع تلك التعويذة، لكنها لم تُرد التطفل، فاستدارت وبدأت بإكمال طريقها بينما زامنَ هو خطواتها، لم تعتد ذلك النوع من الجهل، فكل ما تطلَّبه الأمر عادةً هو ملامسة بسيطة أعلمتها بأسرار دفينة، وكوابيس حالكة، أو ذكريات ملونة زاهية، لذا لم تضطر أبداً إلى السؤال.

كان فضولها يتصاعد، وتود لو تلقي بأسئلتها، لكنها لم تعلم إن كانت غير لائقة، اختلست نظراتها نحوه في كل حين، حتى توقف وتركها لتكمل طريقها إلى الداخل وحدها، متابعاً حراسته عبر النوافذ حتى نهاية يومها الدراسي، لكن فضولها انتصر في طريق العودة، ولم تتمكن من ردعه أكثر، فسألت غير مكترثة لتدخلها في حياته الشخصية:

«لمَ صنعتَ الحاجز؟»

ابتسم وكأنه توقع نفاد صبرها، ثم قصّ عليها حياةً عاشها قبل زمن طويل:

«قتل لوكاس أزموديوس جميع أفراد عائلتي البشرية قبل أن يقوم بتحويلي، وظن أن امتناني سيتغلب على غضبي، لكنه عندما وجدني ساعياً للانتقام بضراوة، طلب تعويذة من السحرة الذين قام بخدمتهم ضد بني جنسه، تعويذة تشكل حاجزاً حول ذكرياتي السوداوية، لا أعلم السبب في فشلها تحديداً، لكن التعويذة صنعت حاجزاً حول عقلي كاملاً بدلاً من ذكرياتي».

همهمت متفهمة بذهول ثم سألت: «هل أخذت بثأرك؟»

أجابها ببرود استشفّت حنقاً خفيّ خلفه: «لا، اختبأ بين السحرة حتى قتله الملك السابق أثناء الحرب».

همهمت مرة أخرى، ولم يدم صمتها لوقت طويل حتى ألقت بسؤال آخر، ثم توالت أسئلتها بعد ذلك، وتفاجأت بعدم امتناعه عن إجابتها، ولم تتنبأ بأن علاقة الصداقة التي تمنّتها ستتطور إلى أخرى أكثر عمقاً.

وجّه وارويك شعلة زرقاء باتجاه كيارا، كان درسها الأول هو تشكيل درع يحميها من الضربات التي لن تستطيع صدّها، لكن الدرس الأول امتد من يوم إلى أسبوع، ثم من أسبوع إلى شهر، من دون أي تقدم.

رفعت يديها فتشكّل أمامها حائط ذو لون أزرق سرعان ما تسرَّب اللون الأحمر عبره، فبدأ توهجه يومض في عراك بين القوتين لأخذ السيطرة، اخترقت الضربة حائطها بسهولة، وبالرغم من أن ضربات صديقها كانت أليفة وغير مؤذية، إلا أن عبورها عبر حائط كيارا واختلاطها بقوتها العنقية غيّرا من عناصرها.

ارتطمت الضربة بمعدتها ونزعت الهواء من صدرها لقوتها، حلّق جسدها إلى الخلف لمسافة بعيدة، حتى بعد وقوعها على الأرض.

ظلت تندفع حتى انتقلَ واريك إلى مكان خلفها واضعاً يديه على كتفيها لإيقافها، لكنه اندفع بدوره إلى الوراء عدة خطوات إلى أن تمكنا من التوقف بشكل كامل.

تركت جسدها يسترخي فوق الثلج محاولةً إعادة الهواء إلى رئتيها

بصعوبة، وقف بجانبها ملاحظاً أن الجزء الأمامي من قميصها العلوي قد احترقَ واختفى إثر الضربة، ولم يبقَ سوى القميص الجلدي المقاوم لنارها العنقية أسفله، جثا واضعاً يده فوق معدتها ثم قال موجهاً:

«بهدوء، لا تحاولي التنفّس بقوة».

استمعت إليه وأخذت أنفاسها ببطء، وبعد لحظات استطاعت تنظيمها بنجاح، وقف عائداً إلى مكانه:

«لنعاود الكرّة».

جلست متوجعة ويدها تفرك مكان الضربة، ثم قالت بضيق: «لا»، استدارَ بعدم فهم فأضافت: «لا فائدة من هذه التمارين، ألا ترى ذلك؟ لقد مارسناها لعدة أشهر بدون فائدة! لا بد من وجود طريقة أخرى».

قال بإصرار: «الطريقة الوحيدة هي المحاولة مجدداً، هكذا يكون التدريب، تكرار المحاولة حتى النجاح».

لم يفهم أن مشكلتها لم تكن تضارب القوى فقط، بل الاضطراب بين هويتها القديمة والجديدة، بين ما كانت تألفه عن نفسها وما

أصبحت عليه الآن، كانت قوتاها مثل عاصفتين تدوران في اتجاهين متعاكسين، كلما حاولت التمسك بواحدة شعرت بالأخرى تفلت من بين يديها وتصبح أكثر شراسة، كما لو أنها تحاول جذب انتباهها إليها باستماتة، بما أدى إلى انقسام كل جزء منها، انقسام أفكارها، قراراتها، بل تشعر أحياناً بانقسام مشاعرها ونبضات قلبها كذلك، إضافةً إلى الصراع المتواصل بين القسمين للتربع على عرش السيطرة.

هزت رأسها رافضةً فتمكّن منه استياؤه.

التفتَ إليها بشكل كامل وبدأ بتوجيه ضربات متتالية باتجاهها، استلقت بسرعة فمرّت الأولى من فوقها، ثم تدحرجت إلى الجانب متفادية الثانية، حاولت الوقوف سريعاً لكن الثالثة أصابتها من الخلف فسقطت إلى الأمام على وجهها، تركت برودة الثلج تتسلل عبر وجنتها، تتمنى لو أنها تطفئ نارها الداخلية.

استمرَّ واروبك بإرسال ضرباته إليها حتى تنهض من مكانها، لكنها بقيت على وضعها مغمضةً عينيها بقوة لتتمالك أعصابها، لم تكن ضرباته مؤذية، لكنها كانت تستفز قوتها السحرية، وقوتها السحرية

تستفز العنقية، وعندما تصل إلى تلك المرحلة تشعر بأنها على وشك الانفجار.

شدّت قبضتيها لكن صبرها نفَدَ عندما أرسل أخرى أقوى من سابقتها قائلاً:

«انهضي إلى التدريب حتى تصبحي نداً لي وتردّي هذه الضربات بأخرى مؤلمة».

انقلبت على ظهرها وجلست ملوّحة بذراعها أمامها صارخة باستياء، فتشكّل حائط ناري أمامها، لكنه لم يكن لحمايتها، بل اتجه إلى وارويك محيطاً به قبل أن يبدأ بالتضييق عليه، تفاجأ لبرهة ثم انتقل بسرعة إلى خارجه والتفتَ إليها مستنكراً ما فعلته، لكنها نظرت إليه بسخط وقالت بنبرة مشحونة بالغضب:

«أنا لن أصبح مثلك أبداً!»

سمعَ الأسى في نبرتها، فعلم أن إحباطَ الفشل المتكرر قد تمكّن منها، تنهّد مستسلماً بدوره وانتقلَ إليها قبل أن يلقي بجسده على الأرض مستلقياً بجانبها.

نظرت إليه بتعجب لوهلة ثم استلقت هي كذلك، وبعد صمت طويل تأمّلا خلاله السماء التي تحولت إلى اللون البرتقالي لاقتراب موعد الغروب، قال مواسياً بهدوء:

«قارني نفسكِ بمن كنتِ بالأمس، وليس بمن هو أفضل منكِ اليوم».

أدارَ وجهه إليها فالتفتت ناظرةً إلى عينيه، ابتسمَ لها بلطف متابعاً:
«فلم أصل لما أنا عليه في يوم وليلة، بل بتدريب دام لعقود طويلة».

أعادت نظراتها إلى السماء كارهةً فكرة التدرب لعقود طويلة، ثم قررت أنها لن تشغل رأسها بذلك اليوم، فغطّت عينيها بساعدها محاولة تشتيت نفسها بأمور أخرى غير متعلقة بفشلها، لكن أفكارها قادتها إلى رو، فتساءلت عن حاله وعن تدريباته.

تساءلت إن كان يواجه الفشل ذاته الذي تواجهه، أم أن تدريباته سلسة ومثمرة على عكسها.

شعرت بحرارة الدموع في عينيها في اشتياقٍ ويأس، ففعلَ رياز أمراً

لم تتوقعه، أراها لمحة من تدريبات قريبها، لمحة سريعة لا تتعدى عدة ثوانٍ، لكنها رأته يتدرب مع رجل ذي شعر طويل في مكان مغلق.

كان رو يرتدي بنطالاً للتدريب فقط، فرأت وشماً أسود امتدَّ من كتفه الأيمن حتى الأيسر، لكنها لم تستطع رؤيته جيداً لتحركاته الكثيرة أثناء قتاله، بدا مختلفاً، كما لو أن جسده كان أكبر حجماً.

وقبل أن تُغلق تلك النافذة الصغيرة، رأت وجهه المبتسم، بالرغم من تصبب العرق منه والإجهاد الظاهر عليه، واختلاف ملامحه بعض الشيء، إلا أنه كان يبتسم باستثارة وباستمتاع، فتنهّدت براحة عندما اختفت صورته، راضيةً وسعيدة بما رأته من تدريبات ناجحة.

ابتسمت ابتسامة صغيرة وقد تجدد أملها، لكن ليس اليوم، اليوم تعود إلى جناحها لتداوي جروحها، ثم تعاود الكرّة غداً.

تجولت بين رفوف الكتب بعد أن شعرت بالملل من انتظار واروبك لوقت طويل، فقد وصلتها رسالته التي أمرها فيها بالتوجه إلى مكتبة القصر، وبعد وصولها إلى قاعة هائلة الحجم بشكل لم تتوقعه، انتظرته بصبر لم يطل أمده، فجلست على أحد الكراسي الكثيرة أمام طاولة مستطيلة امتدت لعدة أمتار وسط المكان، وقدمها تهتز بسبب الفضول الذي كاد أن يقتلها، وعيناها تجولان حولها بشوق لمعرفة ما قد تحتويه تلك الكتب، وعندما لم تجد سبباً يمنعها من تفحصها، نهضت وبدأت بالتجول بين الرفوف وهي تقرأ العناوين التي فهمت بعضها ولم تستطع نطق بعضها الآخر.

سمعت صوت الباب معلناً بدخول واروبك، فعادت أدراجها على مضض لانتهاء جولتها سريعاً، لكن فضولها للكتب استبدلَ به آخر عندما رأته يتوجه إلى الطاولة حاملاً بيده مخطوطة كبيرة، ألقاها فوق الطاولة ثم توجَّه إلى النوافذ الطويلة وبدأ بإسدال الستائر حتى أظلمت المكتبة، توهجت عيناها فوراً مستعينة بقواها لتتمكن من الرؤية، ورأته عائداً إليها مستخدماً قواه كذلك، أمسكَ بالمخطوطة

ويدأ بفك الحبل الذي أبقاها محكمة الإغلاق وهو يقول:

«سنأخذ استراحة مؤقتة من التدريبات القاسية ونبدأ دروس الجغرافيا، لكنني لا أستطيع ترك قوتك من دون تدريب، لذا ستكون دروسنا في الظلام الدامس لتدربي على استخدام قواك بشكل متواصل بطريقة سلسة، ربما ستعتاد القوتان حينها على الوجود معاً بدون نزاع».

فك الحبل عن المخطوطة ثم فردها فوق الطاولة كاشفاً عن خريطة كبيرة لم ترها من قبل، قرأت اسماً كُتب بالخط العريض أعلاها:

«عالم أسكونزول».

ثم قرأت بعض الأسماء الغريبة الموجودة عليها، قبل أن تلتفت إليه باستغراب لعدم سماعها بها سابقاً.

فهمَ نظراتها فأجاب مخرجاً ورقة وقلماً:

«أخبريني بما تعرفينه لعدم تضييع الوقت، سيبدأ الدرس من حيث تنتهي معلوماتك».

أشارت إلى إيماتيروس وستونهنج في الشمال قائلة: «مصاصو الدماء والسحرة»، ثم إلى الجبال المحيطة بإيماتيروس: «أعلم أن هذه هي جبال الميركور»، توجَّه إصبعها إلى الغابة شرق جنوب ستونهنج: «وهذه غابة موردن».

استوقفها متسائلاً: «هل تعلمين من يقطن تلك الغابة؟»

هزت رأسها نفياً: «لم أسمع شيئاً عنها، عدا أنها مليئة بالوحوش».

دوّن على ورقته قائلاً: «أي نوع من الوحوش؟»

قالت بعدم يقين: «حيوانات مفترسة؟»

توقّف عن الكتابة وأعاد نظراته إلى الخريطة قائلاً: «تابعي».

بدأت بسرد الأسماء التي تعرفها من الشمال حتى الجنوب مشيرة إلى كل منها قبل أن تذكر ما تعرفه عنها:

«ألبسازك هي مملكة المتغيرين حيث رو الآن، آركانيا حيث يوجد المستبصرون، وفزيلنيا هي موطن الغريو».

عقدت حاجبيها وتوقف إصبعها فوق بحيرات الجوزيل التي تتوسط فريديا قائلة: «لمَ توجد بوابة عبور الجن في منتصف مملكتهم؟»

أجابها بشكل سريع: «لأن الغريو تحت حمايتهم، وتلك البوابة تستخدم للتدخل السريع في حال حصول هجوم من نوع ما».

ثم عاد إلى تدوين شيء في ورقته متابعاً: «كما أن هذه البحيرات هي إحدى بواباتهم وليست الوحيدة».

وقبل أن تسأله عن بقية البوابات قال: «واصلي».

أشارت إلى الغابة الضخمة بجانب فريديا: «هذه غابات النور حيث السحرة الأنقياء، وهذه آرونتياس حيث المستذئبون».

أشارت إلى جنوب الخريطة حيث ماجيسيا لكن نظراتها المتعجبة بقيت في آرونتياس، فرفعَ رأسه باستغراب:

«ما بالكِ؟»

أعادت إصبعها إلى غابات النور: «الغابات تحيط آرونتياس بشكل شبه كامل، مما يُظهر أنَّ المستذئبين محاصرون بالسحرة».

ارتفع حاجباه لملاحظتها تلك، ثم أومأ لها لتكمل فأشارت إلى آخر مملكة: «هذه مملكة الجن».

أشارت إلى الجزر حول الخريطة بجهل: «لم أسمع بأيٍّ من هذه الجزر».

أومأ متنهياً من تدوين نقاط دروسها القادمة، ثم نهضَ من مكانه وتوجه باحثاً بين رفوف الكتب عن درسها الأول، جلست فوق أحد الكراسي بعد أن اختفى من ناظريها، ثم سمعت صوته من بعيد وهو يسأل:

«أين تقع هذه الممالك في خريطة البشر؟»

قالت مفترضة: «في مكان ما في المحيط الواسع حيث لم يصل بشري قط؟»

ابتسمَ لثبوت توقعاته وتابعَ بحثه حتى وجد الكتاب المراد، عاد إلى الطاولة وألقاه أمامها فقرأت بصوت مرتفع:

«العوالم الثلاثة».
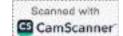
توجهت نظراتها الفضولية إليه فقال: «ألم تلاحظي وجود كلمة عالم قبل اسم أسكونزول؟»، وعندما قطبت حاجبيها بشك أضاف: «لا أظنكِ جاهلة إلى هذه الدرجة، فالبشر يتحدثون عن تعدد العوالم منذ سنوات طويلة».

فتح الكتاب وقال: «هنا درس اليوم، ستعلمين أين نحن بعد انتهائك من قراءة هذا الكتاب».

قضت كيارا قرابة الشهرين في التدريب المخفف أثناء تلقيها الدروس من وارويك، ثم انقسمت أيامها بين تلك الدروس والتدريب القاسي المعتاد، كانت أيام دروسها هي المحببة إليها، فالتعرف على عالم أسكونزول كان شبيهاً بالقصص التي تستمتع بقراءتها.

كانت خفايا ذلك العالم وقواعده باهرة، فقد تعلمت من كتاب العوالم الثلاثة أن أسكونزول لم تكن بالعالم البشري نفسه الذي ترعرعت فيه، بل هو عالم آخر منفصل، كانت تقرأ باستمتاع بالغ كيف وصل عالمهم إلى ما هو عليه الآن، وعندما وصلت إلى العالم الثالث، وجدته مكتوباً باختصار وكأنَّ من قام بتأليف الكتاب لم يحمل الكثير من المعلومات عنه، ألا وهو عالم الجن.

فقرأت بصدمة أن مملكة ماجيسيا جنوب أسكونزول ليست سوى جزء بسيط من عالم الجن الكبير، كما أن تلك البقعة محمية بطريقة مشددة لمنع بقية المخلوقات من العبور إلى عالمهم، فإن توجهتَ حينها إلى تلك الأراضي لوجدتها خالية مهجورة، بينما الحقيقة هي أن دخولها لا يكون عبر التوجه إليها مباشرةً، بل باستخدام بواباتهم التي قرأت

عنها بدهشة، بوابات وجدت في الجزر العديدة المحيطة بأسكونزول، لكن الكتاب لم يذكر شيئاً آخرَ عن تلك البوابات كذلك.

شعرت بالإرهاق بعد قراءتها لوقت طويل، فغيرت مكانها بحجة إعادة النشاط إليها بينما الحقيقة أنها توجهت إلى بقعة تسللت إليها أشعة الشمس بشكل طفيف عبر الستائر، لترتاح من استخدام قوتها لبعض الوقت مستعينة بذلك الضوء الباهت.

لكنّ جفناها سرعان ما تثاقلا وهي تقرأ عن تاريخ انتزاع السحرة لغابات النور من المستذئبين الذين رحّبوا بهم داخلها في بادئ الأمر، فوضعت رأسها فوق كتابها المفتوح لتسترخي لبعض الوقت، لكنّ عيناها غرقتا في غفوة غير متوقعة من النوع الثقيل، لذا لم تنتبه إلى دخول أليكس ولم تسمع نقاشه الجاد مع وارويك.

كان أليكس يسترق النظر إليها أثناء حديثه، فلاحظ انعقاد حاجبيها لانزعاجها من خيط النور الذي اخترق عتمة المكتبة من بين الكريستالات التي زينت النافذة، فزمّ شفتيه ليمنع ابتسامته التي هددت بالظهور، ساخراً من تضايقها من الضوء نفسه الذي كانت تغش دروسها به.

قال واروبك عندما لاحظ شروده:

«هل تسمعني؟»

أعاد أليكس نظراته إليه مجيباً: «أسمعك».

ثم عاد خطوة إلى الخلف بهدوء، ليقف كحاجز بينها وبين الشعاع الخفيف، بينما أكمل صديقه حديثه وعيناه تتصفحان الرسالة التي بيده جاهلاً بما يحدث أمامه.

اختلسَ أليكس نظرة إليها وشاهدَ عقدة حاجبيها ترتخي تدريجياً، فارتفع طرفا شفتيه في ابتسامة خاطفة مسحها بسرعة قبل أن يوجّه انتباهه إلى واروبك من جديد.

قال واروبك مستنبطاً فحوى الرسالة: «إذاً الجثة الأخرى تعود إلى فتىً كان يلازم رايشتل في المدرسة».

أومأ أليكس: «يدعى لوك، فتىً بغيض بشكل عام، لكنه لا يستحق ما حدث له، وبما سمعت من زي والجندي الآخر أن جثته كانت أسوأ حالاً من جثتها».

همهمَ بتفهم ثم قال: «لكنه اختفى منذ أن قُتلت رايتشل؟»

أجاب: «أجل، قال زي إن الفتى لم يعد إلى منزل عائلته منذ وقت طويل، ولأننا أخذنا جثة رايتشل ظن الجميع أنهما هربا معاً».

تنهّد واروِيك بتكدر: «هل تظن أنهم قاموا بتعذيبه طوال ذلك الوقت؟»

رفعَ كتفه: «مما فهمت من كلمات الجندي المتسارعة أن المكان يعج بالشرطة والمحققين الجنائيين الذي بدوا شاحبين طوال مدة عملهم، لذا أعتقد أن ما رأوه في جثته مهيبٌ للغاية».

واروِيك متجهماً: «ما الذي سنفعله الآن؟»

التقط أليكس الرسالة من يد صاحبه مجيباً: «لقد تصعّد الأمر بالفعل، لا تستطيع تدارك ما حدث مسبقاً، لكنني حذرت زي من حضور الصيادين إلى ريفر ريتش، وأرسلتُ جنديين آخرين للبقاء ولمراقبة الأوضاع من بعيد، فهناك الصيادون من جهة والمتسببون بكل هذه الفوضى من جهة أخرى».

أوما واورويك موافقاً ثم التفت إلى كيارا النائمة: «علينا إخبارها».

زفرّ أليكس بضيق ثم توجّه إلى الخارج بصمت، تاركاً صديقه يقرر ما سيفعله.
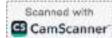
ألقت كيارا جسدها فوق فراشها بتعب بالغ، بعد أشهر طويلة قضتها في التدريب الذي باء بالفشل، لكن إدراكها أن التدريب مهمة طويلة متواصلة خفف من إحباطها بعض الشيء، تساءلت عمّا فعله أليكس طوال تلك الفترة، فلم تستطع التحدث معه أبداً بناء على تعليمات مدربها، ولولا اللقاءات الخاطفة بين الممرات لفقدت عقلها.

اعتدلت في جلستها فوق سريرها تشاور نفسها بمعارضة التعليمات لمرة واحدة، ثم بعد برهة حسمت أمرها وتوجهت إلى المكتبة الصغيرة التي تملكها داخل جناحها وأخذت تكتب رسالة قصيرة إلى أليكس، وبعد أن انتهت حدقت في رسالتها مترددة، وبدأت تتحاور مع نفسها بصوت منخفض:

«لا يعدُّ هذا خرقاً للقوانين، فأنا أخبره عن تحديثات تدريبي لا غير، أليس كذلك؟ لكن..»، تنهدت محبطة: «إخباره عما حدث معي يشعرني بالطمأنينة ويخفف عني كثيراً، ربما هذا ما أراد وارويك تجنبه».

التفتت متأملة السماء عبر نافذتها للحظات قبل أن تهز كتفها متهكمة: «أنا لم أطع القوانين من قبل، لمَ سأفعل ذلك الآن؟»

أمسكت بالورقة وأحرقتها بشعلة زرقاء لتذهب إلى ألبكس قبل أن تتمكن من التراجع عن قرارها، أخذت نفساً عميقاً وزفرته بارتياح وكأن حمل الفشل انزاح عنها، لكن ارتياحها لم يدم عندما ظهرت أمامها شعلة أخرى زرقاء.

أجفلتْ واختنقت بالهواء وبدأت بالسعال، ثم حدقت بعينين متسعتين بالشعلة منتظرةً أن تقوم باستلام ما بداخلها، مدت يدها أسفلها مغمضة عينيها بحسرة، فسقطت الرسالة في كفّها.

فتحت عينيها قليلاً بخوف، وكأن الكلمات ستقوم بصفعها، ثم قرأتها من بين جفونها شبه المغلقة.

كُتبت كلمة واحدة بخط ألبكس في بداية الرسالة تقول:

«آسف...»، ثم تبعها خط وارويك الغاضب معاتباً:

«إن خالفتِ أوامري مرةً أخرى أيتها الفتاة المشاكسة فسأنقل تدريباتنا إلى كوخ في غابة موردن لتتعلمي نوع الوحوش القاطنة هناك!! اذهبي للنوم؛ فتمرين الغد سيبدأ عند منتصف الليل عقاباً لك».

شهقت بصدمة: «منتصف الليل؟!»

التفتت إلى ساعة الحائط فوق مكتبها لتجد عقربها مشيراً إلى اقتراب ذلك الموعد، تأوهت نادمة ثم ركضت باتجاه فراشها وقفزت فوقه لتستغل كل لحظة تستطيع الحصول عليها للنوم.
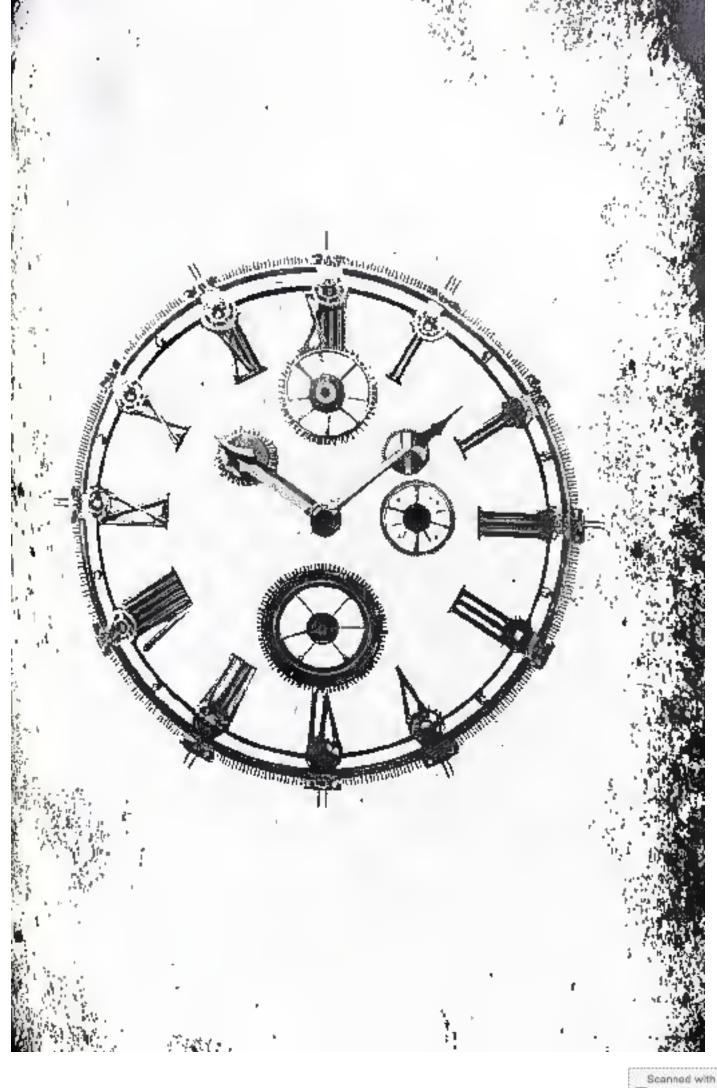
جلسَ أليكس وواروِيك حول طاولة الاجتماعات، تفصل بينهما عدة كراسيَّ.

وقفَ خلفَ أليكس، بارون -الحارس الجديد الخاص به- الذي تم تعيينه بناء على ترشيح من زي، لذلك لم يتعجب أليكس عندما وجده مشابهاً له في الطباع، كان حضوره صامتاً في أغلب الأوقات، تكاد لا تدرك وجوده لولا قامته الطويلة، كان ذا شعر قرمزي قاتم، مشدّه جيداً إلى الخلف بعيداً عن عينيه البُنيّتين.

قال أليكس بعد أن أرسلَ واروِيك رسالته إلى كيارا: «هل هناك هدف لكل هذه القوانين التي تفرضها عليها؟»

أجاب باستنكار: «هل تظن أنني أريد تعذيبها هكذا؟»

وعندما وجد الحيرة في تعابير صديقه فسَّر له: «لقد ذبلت تماماً عندما ظننت أنك تركتها خلفك، أنا أتفهم طبيعة علاقتكما، لكنها لا تستمد قوتها منك، بل تعتمد على قوتك بشكل كامل».

رفع كتفه: «أنا لا أمانع ذلك».

ابتسمَ واروبك متهكماً: «أعلم ذلك، لكن...» تنهّد مهموماً ثم أكمل:
«ماذا عن الأوقات التي لن تكون أنت موجوداً فيها؟ عليك التفكير بما سيحدث لها إن لم تكن بجوارها، عليها أن تتعلم الاستقلالية، وإلا فإن نهايتك تعني نهايتها كذلك».

زفرَ أليكس كارهاً التفكير بتلك الاحتمالية، يعلم أن صديقه على حق، لذا تركه لتولّي أمر لم يكن ليستطيع فعله بنفسه، استطردَ أخيراً:

«ستبحث عن الأغلال إذاً؟»

أومأ واروبك: «هناك قوتان تتلاطمان بداخلها، لن تستطيع تعلّم السيطرة على أي منهما بينما هناك صراع داخلي متواصل».

مالَ إلى الأمام متكئاً على الطاولة بذراعيه: «سنذهب إلى المملكة فجراً للبحث عنها، أظن أنني أعرف مكانها».

صمت كلاهما، لوهلة رأى أليكس خلالها تردّد صديقه في طرح ما لديه فحثّه قائلاً:

«قل ما بجعبتكَ وانتهِ من الأمر».

بتـ...»
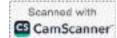
لكن أليكس لم يدعه ليكمل معترضاً بشدة: «قطعاً لا!»

زفرَ بعصبية: «كان سؤالي واضحاً، لم لا؟»

أجابه باستهجان: «سيتحتم عليها إحراق جسدها مئات المرات، وهي ما زالت متأذية مما حدث لها في الماضي، تراودها الكوابيس المتعلقة بليلة إعدامها كل ليلة».

«هذا سبب أكبر لتركه يقوم بتدريبها»، قاطعه ثم برَّر أكثر: «كيف ستنتهي كوابيسها إن لم تتجاوز الأمر؟»

هز رأسه غير مقتنع: «لن أتحدث عن هذا الأمر أكثر».

حينها نفدَ صبره وقال منفعلاً: «توقف عن التحدث كما لو أنها إحدى رعاياك!»

تفاجأ أليكس من كلماته وأجاب متعجباً: «أنا لا أفرض حكمي عليها، كيارا ليست ممن يخضعون إلى أوامر لا تناسبهم على أية حال».

قال صارّاً على أسنانه: «أنا أعي ذلك جيداً، ألا ترى أنها تتهرب من مواجهة ماضيها؟ تركتُ لك اتخاذ القرار لأن قرارَك يتناسب مع مخاوفها».

ثم تنهد منهكاً وقال مساوماً: «لم لا تطلب من سبارك تجاوز ذلك الجزء من تدريباته؟»

بدأ أليكس بهز رأسه لكن وارويك أصرّ عليه: «لن تخسر شيئاً بالمحاولة، لا بأس إن قام بالرفض، ستحاول متابعة التدريب كما هو مخطط، لكنه إن وافقَ فستكون تلك الفرصة مثالية لها».

عمّ الصمت المكان للحظات، فألقى وارويك برأسه على ظهر الكرسي ليريح رأسه من الصداع الذي غشيه، وحدّق في الثريا الضخمة المعلقة فوقه على بعد أمتار، ثم سمع صوتَ صديقه الخامس:

«حسناً».

مملكة الكوابيس
والضباب

استيقظت كيارا بفعل طرقات غير متناهية، فتحت عينيها ووجدت أن الشمس توشك أن تشرق وقد بدأت تنير السماء بضوء باهت، نهضت وفتحت الباب لواروبك الذي حمل بيده شطيرة معدّة لها، حدقت فيه تائهة، كما لو أن حجاب النوم لم ينقشع عن رأسها بعد.

فقال مجيباً تعابيرها: «تجهّزي فخطة اليوم مختلفة».

مطّت شفتيها متضجرة ثم انتبهت إلى بروتوس -حارسها الشخصي الجديد- فابتسمت له بلطف قائلة:

«صباح الخير».

حتى الحارس الضخم رأسه الحليق، ليس احتراماً لها فقد أمرته بترك تلك الرسميات، بل لشعوره بالخجل مجيباً على استحياء:

«صباح الخير لكِ أيضاً، آمل أن نومكِ كان هنيئاً».

اتسعت ابتسامتها تلقائياً، كان ذلك تأثير بروتوس عليها دائماً، فرغم هيئته المهيبة، إلا أنه حمل قلباً مرهفاً خجولاً، وقد اعتادت وجوده حولها خلال الفترة السابقة، بل إنه خفف عنها غياب رو
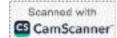
وأليكس، لاهتمامه بها بعيداً عن واجباته تجاهها، يمطرها بسيل من الأسئلة بعد التمرين كل يوم:

هل تأذيتِ؟

هل تشعرين بالجوع؟

هل أستدعي الطبيب من أجلك؟

والأهم من ذلك، هو عندما يسألها هامساً: هل تريدين التسلل إلى جناح أليكس بعد نوم وارويك؟

مما جعلها تألفه كثيراً، لإدراكه تقلباتها المزاجية وكيفية التعامل معها في وقت قياسي، فعندما يلاحظ يأسها من فشل التدريب تختلف أسئلته وتصبح أخرى مثل:

هل تشتهين طبقاً معيناً؟

هل تريدين الذهاب إلى المحمية؟

ومرة أخرى: هل تريدين التسلل إلى جناح أليكس؟

وبعد فترة قصيرة من وجوده معها، تحوّل من حارس إلى صديق.

ضاقت عينا واروبك بامتعاض لتعابيرها التي رقت لرؤية الحارس، لكنها تجاهلته وبدأت تتوجه إلى خزانتها.

التفتت ناظرةً إليه من فوق كتفها متسائلة:

«ماذا عن عقاب منتصف الليل؟»

بدا شارد الذهن قليلاً حين أجابها: «تأجّل ليوم آخر».

فضلت عدم سؤاله عن الأمر أكثر لعلّه ينساه تماماً، وعند انتهائها ناولها شطيرتها ثم مدَّ يده لها مصرحاً عن وجهتهما:

«إلى ستونهنج».

أمسكت بيده بشيء من التجهم: «هل سنـ...»

انقطعت كلمتها بصرخة عندما انتقلا، ثم بدأا بالسقوط حتى ارتطم جسدها بالأرض، غمغمت متوجعة، وسمعت واروبك يقول متألماً كذلك:
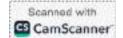
«ما الذي حدثَ لهذا المكان؟»

نظرت حولها إلى مكان لا تستطيع وصفه إلا ببقايا مملكة، تضاريس لم تبقَ على حالها، بيوت متهالكة، وضباب يدور حولهما لتكتمل الصورة التي توحي بأن المملكة مهجورة.

نهضَ واروِيك ومد يده وساعدها على الوقوف، نفضت الأتربة عن ثيابها بينما كان يبرر لها:

«لقد انتقلتُ إلى هذه البقعة عشرات المرات، لم تكن هذه الحفرة هنا من قبل، أنا...»

قاطعته موضحة: «لقد اختبأ مصاصو الدماء أسفل الأرض تجهزاً للحرب، لا بد أن هذه البقعة كانت إحدى نقاطهم».

«آه، صحيح، لقد نسيت ذلك».

تلفَّت حوله وبدا الضيق على ملامحه قبل أن يقول بعدم ارتياح: «لا تحمل هذه الأرض سوى الأشباح فوقها، لننهِ مهمتنا ونعُد أدراجنا».

تلفتت باحثة عن شطيرتها حتى وجدتها قد دُعست أسفلها ولم تعد صالحة للأكل، فتنهدت واستدارت إليه متسائلة:
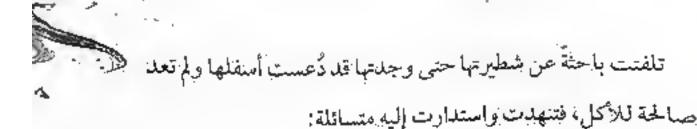
«وما هي مهمتنا بالضبط؟»

أجابها وعيناه تنظران إلى مكان بعيد: «البحث عن قيود عظام المستذئبين».

تتبّعت نظراته وصولاً إلى القصر الذي علت أبراجه وشقت طريقها عبر الضباب، وكأنها دلالة على الماضي المجيد الذي حملته، بدأ واروبك بالتحرك بخطوات سريعة ومن خلفه كيارا محاولةً مجاراة خطواته الواسعة، راحا يشقان طريقهما عبر الشوارع المتعرجة الضيقة، ممرات كانت يوماً تعج بسكانها لكنها الآن صامتة وخالية.

وصلا إلى البوابة الخارجية للقصر، بوابة امتدت لعدة أمتار فوقهما، معدة من أسياخ رفيعة من الذهب الخالص تداخلت بعضها ببعض بأشكال لولبية متلاصقة بالكاد يمر الهواء من خلالها، غطتها الأتربة وشباك العنكبوت حتى فقد الذهب بريقه.
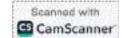
عاينت البوابة والحائط على جانبيها يمتدُّ حول القصر، ثم التفتت متفحصةً المكان خلفها باستغراب، كانت المملكة مدمرة في الغالب، لكن الدمار لم يصل إلى الجدار المحيط بالقصر، بل كان سليماً تماماً عدا تشققات في طلائه تسللت عبرها الحشائش.

قاطعَ وارويك شرودها:

«لا تتبعيني حتى أخبركِ بذلك».

ثم اختفى قبل أن تجيبه، رأت هيئته عبر البوابة، مستكشفاً لأي أمر خارج عن المألوف.

وبعد برهة سمعته يقول:

«يمكنكِ القدوم الآن».

انتقلت إلى الجانب الآخر من البوابة، فأكمل طريقه بعد أن أمرها: «لا تبتعدي عني».

اقتربت منه محاذيةً خطواته الحذرة قدر استطاعتها، ثم سألت بعدم فهم: «أليست المملكة مهجورة؟ لماذا كل هذا الحذر؟»

أجابها من دون النظر إليها متابعاً تفحصه لكل ما حوله: «عندما سقطت هذه المملكة، هجرها السحرة تاركين كل شيء خلفهم، فقد تربَّص مصاصو الدماء بهم لسنوات عديدة، وانتشرت الأخبار بين العشائر أن من يعود لأخذ مقتنياته يصبح ضحية لهم، لذا هجروا المكان وما يحمله، ليصبح وجهة للباحثين عن الكنوز وأدوات السلطة».

قالت لاهثة لمجاراتها خطواته: «أدوات السلطة؟»

نظرَ إليها مدركاً أنها تعبت قبل أن يبدأا بالمهمة التي أتيا من أجلها، فأبطأ من سيره ثم أجاب: «كالأغلال التي نحنُ بصدد البحث عنها، هذا المكان يعج بأدوات مماثلة».

سألت باستغراب: «لماذا لم يعد السحرة لاستعادتها بعد موت ملك مصاصي الدماء؟»

التفتَ إليها بحاجبين معقودين: «أتقصدين الملك رينالد؟»

لوهلة نسيت أن وارويك كان صديقَ الملك الراحل كذلك، ثم أومأت حين تذكرت فأكمل: «حينها أصبحت تلك الأدوات في
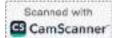
عهدة الأساطير، وانتشرت الكثير من الشائعات عنها، ولا أحد يعرف الحقيقة، فالبعض يقولون إنها اختفت والبعض الآخر يقولون إن من يذهب للبحث عنها لا يعود».

توقف فجأة ورفع يده لإيقافها وعيناه المتوجستان تلفّان المكان، ثم سألها بهمس: «هل سمعتِ ذلك؟»

أجابت: «لم أسمع شيئاً».

قامت بإمعان النظر باحثةً عما يثير الريبة، حينها انتبهت إلى كل شيء دفعة واحدة: الحشائش التي طالت لعدم الاهتمام بها، الضباب الذي تراقص فوقها، سرب الغربان الذي حلّق فوق أبراج القصر بشكل دائري، وأشعة الشمس التي لم تصل إليهما بعد، رغم وصولهما هي ووارويك منذ وقت طويل.

أدركت برهبة أن المكان بالفعل يبث الرعب في نفوس الدخلاء، مكان شهد الموت وسفك الدماء حتى فقد روحه وتحول إلى مقبرة مملكة، فلا عجب أن الذهب لا يلمع والشمس لا تسطع، لا مكان هنا للحياة!

بعد عدة لحظات من الاحتراس، غيّر واروك اتجاهه، أمسكَ بيدها، وعوضاً عن المشي بدأ بقطع طريقه بالانتقال من بقعة إلى أخرى، وصولاً إلى أحد مداخل القصر الجانبية.

على خلاف البوابة الأمامية المذهبة التي لمحتها قبل تغيير طريقهما، كانت البوابة الجانبية خشبية وصغيرة مقارنة بالمدخل الرئيس.

حاولَ فتح الباب بحذر في بادئ الأمر، لكنه لم يتزحزح قيد أنملة بفضل عامل الزمن الذي أرداه، فبدأ بدفعهِ بكتفه برويَّة عدة دفعات، محاذراً من إصدار صوت مرتفع، وبعد عدة محاولات فقد الأمل ووضع يده فوق الشرخ الفاصل بين الباب ومفاصله، واستخدم قواه السحرية لتهشيم الخشب بشكل بسيط وبطيء.

رأت كيارا النشارة وهي تتساقط على الأرض بصمت حتى تحرك الباب من مكانه، أزاحه قليلاً، والتفت إليها قائلاً قبل أن ينزلق من خلال الشق الصغير:

«راقبي المكان حتى أعود».
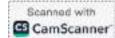
أرادت الاعتراض على تركها وحيدة، لكنها آثرت البقاء في المكان المفتوح على الدخول معه إلى المجهول.

استدارت وبدأت حراستها، وقفت واثقة في البداية، لكن شجاعتها بدأت بالتلاشي مع كل دقيقة أطال وارويك غيابه فيها، كلما حفّزت نفسها بأنه لن يُطيل الغياب أكثر، تفاجأت بالصمت الذي اشتد إطباقه على المكان، حتى بدأت بالتفكير بمخالفة أوامره واللحاق به.

هزت رأسها متراجعة عن قرارها، ثم شعرت وكأن المكان بدأ يتحدى ثباتها، بدأ الهواء بإصدار هسيس مخيف، فتساءلت إن كانت مخيلتها تتأثر بخوفها، ثم سمعت صوت تهشم الأعشاب الجافة وكأن هناك من يخطو فوقها، التفتت بسرعة باتجاه الصوت بعينين متسعتين مرعوبتين، وقلبها ينبض بهلع اضطربت على إثره أنفاسُها.

شبثت على قبضتها واتزانها يختل، عادت خطوة إلى الوراء باتجاه الباب ولا يفصلها عن اللحاق بصديقها سوى نفخة هواء عابرة.

حينها شعرت بيد فوق كتفها، فالتفتت بصرخة مكتومة لتقابل تعابير واريك المحترزة.

انتبهَ إلى الخوف في عينيها، فجالَ بنظراته حولها متسائلاً:

«ما الأمر؟»

نظرت حولها وتفسيرها معلقٌ بطرف لسانها، لكن كلماتها تلاشت قبل أن تستطيع النطق بها، وجدت أن كل شيء عاد إلى ما كان عليه، صمت، لا صوتَ للهواء فضلاً عن الأعشاب، فرددت كلماته السابقة بوجل:

«لا شيء، لنُنهِ مهمتنا ونعدْ أدراجنا بسرعة»

صمتَ لبرهة وتفرّس في ملامحها الشاحبة، ثم فسحَ لها المجال للدخول قبل أن يلحق بها.

قابلتها عتمة المكان أولاً، ثم الرائحة الغريبة كرائحة طحالب رطبة، فإن كانت الأشعة لا تصل إلى حديقة القصر بسبب الضباب، فلا مجال لتسلل أي خيط للضوء هنا.

توهجت عيناها مستخدمةً قوتها للرؤية، فوجدت أنها أمام أطلال مطبخ فاخرٍ، باتَ الآن متهالكاً ولا يحمل من ماضيه سوى الذكريات.
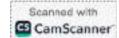
كل ما رأته في القصر حتى الآن أظهرَ لها قوة المملكة سابقاً وترفها، ومما كان واضحاً، أرادوا أن يرى الجميع ذلك باستخدام الذهب في كل شيء، فلم يقتصر الأمر على العروق الذهبية التي تمايلت داخل الرخام أسفل قدميها، بل امتد إلى الثريات المعلقة بالمطبخ كما لو أن الملكة هي من كانت تستخدم المكان لا الخدم.

وُجدت عدة جزر رخامية كذلك في منتصف المساحة الواسعة، تفرقت بعضها عن بعض بما يكفي ليعبر الخدم ويعملوا بارتياح، مما جعلها تتساءل عن أقسام بقية القصر وإن كان المطبخ وحده بهذا الشكل.

توزعت حولها أبواب كانت من قبل بديعة التصميم، لكنها الآن إما مخلوعة أو مكسورة وتغطيها الأتربة والخدوش، كذلك الأدراج والخزائن متحطمة وسط الفوضى المنتشرة.

أغلق واروبك الباب قدر استطاعته جاذباً انتباهها إليه، ثم توجَّه إلى الداخل وبدأ بالبحث عن شيء ما أمام نظراتها الجاهلة لغايته، فتحَ عدة أدراج وأغلقها على عجل، حتى فتحَ واحداً وجدَ بداخله ما يريد، تناولَ من داخله ملعقة طهي كبيرة حديدية صدئة، قلّبها بين يديه

متمعناً فيها قبل أن يتمتم:

«تفي بالغرض».

ثم عاد إلى الباب المردود وقام بوضعها واقفةً أمامه.

وازنها بدقة على الباب حيث إن أقل حركة قد تسقطها.

عاينَ عمله بعد انتهائه ثم وقفَ والتفت إليها مفسراً:

«إن كان هناك من يختبئ في الخارج فدخولنا إلى القصر سيعرضنا للخطر ويجعلنا محاصرين في الداخل».

أشار إلى ملعقة الطهي متابعاً: «سيعلمنا صوت سقوط الملعقة ما إذا كنا ملاحقين».

نقّلت نظراتها إلى الباب، ثم إلى الملعقة، ثم أعادتها إليه قائلة: «ماذا إن انتقلَ إلى الداخل ولم يستخدم الباب؟».

تنهّد ممسكاً بيدها ويدأ بسحبها خلفه مجيباً: «لندعُ أن تصب جميع الظروف في مصلحتنا وحسب».

توجَّه إلى باب في ركن المطبخ وقام بدفعها للدخول قبله متحققاً للمرة الأخيرة أن لا أحد قادم خلفهما، ثم لحقَ بها إلى المساحة الصغيرة التي تقودهما إلى عدة اتجاهات، كل منها مغلق بباب.

أشار إلى أحدها ففتحته لتجد سلماً ضيقاً يقودها إلى الأسفل.

اختلفَ تشييد المكان خلف الباب عن الذي وقفت فيه، فقد كانت قدماها فوق رخام عتيق لا يستخدم إلا في القصور، ورغم أن الأتربة غطّته إلا أنَّ حُسنه كان بادياً، أما ما رأته أمامها فقد كان أشبه بالنفق، بل بالكهوف، بدايةً بالأرض الطينية الجافة وانتهاءً بالجدران الحجرية المتآكلة.

استدارت إلى وارويك وسألت بعدم يقين: «زنازين؟»

تقدَّم واقفاً بجانبها وقال: «إن كانت القيود موجودة فهي بالتأكيد حيث كانت تُستخدم».

لم تستطع رؤية نهاية الممر رغم استخدامها لقوتها، فأشعلت شعلة صغيرة بيدها وأرسلتها إلى الداخل، أنارت لهما سلّماً ليس بالقصير، انتهى عند بوابة من القضبان الحديدية المغلقة، فأعلمها حينها:

«لم أستطع كسر القفل، عليكِ إذابته».

أومأت وهمّت بالتوجه إلى الداخل لكنها تصلبت فجأة قبل أن تلتفت وتتبادل النظرات المصدومة معه، والرعب يدب بداخلها، فقد سمع كلاهما صوت وقوع الملعقة.

الزنزانة

تبادلا نظرات مدركة أنهما محاصران الآن، وبالرغم من مقدرته على صد أقوى السحرة، إلا أنه لم يُرد التشتت والابتعاد عن مهمتهما أو العودة من دون نجاحها، دفع كيارا إلى الداخل برفق هامساً:

«باشري في الإذابة».

ولجت إلى الممر البارد، وبدأت بالهبوط إلى أسفل السلالم، بينما التفتَ هو وبدأ بمسح هالتهما عن المكان.

استنتج أن الدخيل قد رأى اتجاه هالتهما إلى هذا المكان بالفعل، لكنه لن يعلم من أي باب ولجا، ثم لحق بها مغلقاً الباب، وهبط عدة درجات قبل أن يستدير متفرّساً في المدخل على استعداد للهجوم.

أمّا كيارا فأمسكت القفل بيدها وبدأت بتسخينه، تلفتت وراءها عدة مرات بهلع، شعرت بقطرات لزجة تنزلق على جلدها ولم تعلم إن كانت بسبب الرطوبة أم أنها بدأت بالتعرق، رغم مقدرتها على إذابة القفل سريعاً إلا أنها امتنعت عن ذلك بسبب الضوء الذي سيسطع تبعاً لذلك، فاضطرت إلى إذابته ببطء عوضاً عن ذلك.

هبطَ وارويك بقية السلالم متراجعاً إلى الوراء بدون أن يزيح عينيه عن الباب، حتى التصقَ ظهره بها، فشعرت بالقوة التي تتأجج بداخله على استعداد للخروج.

أصيبت بالقلق والتوتر لاقتراب قتال لم يرد كلاهما حدوثه، مما دفعها إلى وضع يدها الأخرى فوق الأولى وأغمضت عينيها بتركيز، مستدعيةً كامل قوتها بهدوء، من دون أن تتركها لتشتعل.

تطلّب ذلك منها كمّاً هائلاً من السيطرة لم تعد تجيدها، فقوتها السحرية أصبحت أكبر عائق لها، كلما أرادت استخدام نارها ثارَ السحر بداخلها، وكأنه يكره تجاهله، وكأنه يغار من استخدام قوة أخرى عداه.

نظّمت أنفاسها عازلةً كل ما يدور حولها، شهيق عميق، ثم زفير هادئ، آمرةً جميع حواسها بالدوران حول قوتها العنقية لتتدفق بسلاسة بدون أن تتفجر، تخيلت نارها وهي تتمايل متراقصة باتجاه يديها كنهر من الحمم البركانية، شاعرةً باحتدامها كلما استدعتها أكثر، مراعيةً توازنها حتى لا تذيبها من الداخل.

ثم شعرت بالقفل يتهاوى بين يديها، ففتحت عينيها بابتسامة منتصرة فخور، دفعت البوابة الصدئة برفق حذرةً من صوت أنينها، ثم أعلمت واروبك متجهةً إلى الداخل:

«لقد نجحت!»

هوى قلبها إلى الأرض خاطفاً أنفاسها من رئتيها، فتجمدت شاعرة برعشة تمر في جسدها بسرعة، ثم اختفت بالسرعة ذاتها التي أتت بها، ولولا غرائزها العنقية لتجاهلتها وفسرت الأمر بالوضع المحتدم الذي يمرّان به، والبرد والظلام اللذين يحيطانها، لكنّ أمراً غريباً يضايقها، استدارت إلى واروبك الذي محا هالتهما مرة أخرى وتبعها بسرعة مغلقاً البوابة خلفهما ليبدو المكان مهجوراً كما كان، ثم أخذ يدها وبدأ بالتوجه إلى الداخل للتواري عن الأنظار.

تابعَ سيره غير متأثرٍ بأي شيء، فبدأت باستدعاء رياز الذي لم تشعر بوجوده طوال اليوم وسألته:

«هل الخوف هو السبب..»
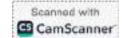
أتت إجابته فوراً لتعلمها أن عدم شعورها بوجوده لا يعني غيابه بالفعل، لكنها لم تأبه بذلك حينها، بل بما أعلمها به قائلاً:

«تعويذة حبس».

ثبتت أقدامها بالأرض فوراً وشدَّت على يد وارويك ليتوقف أيضاً.

التفتَ إليها بنظرات متسائلة فقالت بتوتر:

«هناك تعويذة حبس، ألم تشعر بها؟»

حدَّق فيها بصدمة لبرهة قبل أن يهز رأسه مبهوتاً: «لا، أنا لم أنتبه...»

قاطعته بسخط وعدم فهم: «ما بالك اليوم؟ شارد الذهن منذ الصباح! هل تظن أنني أهل لقيادة هذه المهمة؟»

توقفت فجأة كما لو أنها أدركت الأمر متأخرة، وأكملت بعدم تصديق: «هل هذا اختبار آخر؟»

رفع يده ملوحاً بسرعة: «لا، لا»، وضعَ أصابعه فوق جسر أنفه، وضغط محاولاً استجماع أفكاره، ثم فتح عينيهِ اللتين عكستا الحزن الذي شعر به: «أنا آسف للغاية، هناك ما يشغل تفكيري بالفعل، لكنني حاضر الذهن الآن».

صمتت أمام اعتذاره، ثم تنهدت وأعربت عن قلة حيلتها: «ما الذي سنفعله الآن؟»

وضع يديه فوق خصره مفكراً وعيناه تنظران حولها، فبدأت هي بالاستكشاف كذلك، مما جعلها تنكمش في مكانها لا شعورياً، التصقت ساقاها بعضهما ببعض، والتفَّتْ ذراعاها حول جسدها.

رأت ما وجدَ هناك متسائلةً كيف لم تنتبه إلى كل تلك الزنازين؟ إلى البقع السوداء التي لوثت جدرانها وأرضياتها؟ بقع كانت حمراء في السابق، دماء كانت تجري في عروق تلك الهياكل العظمية الملقاة بداخلها؟ هياكل عظمية ما زالت مقيدة بالأغلال.
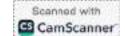
نمَت الطحالب على الجدران، وصدرت من المكان رائحة عفنة رطبة ذكَّرتها بجثة رايتشل.

الأرضية مبللة بعض الشيء وبرك صغيرة من الماء انتشرت في عدة أماكن، ولم يكسر الصمت المطبق سوى صوت قطرات تساقطت ببطء فوق تلك البرك من السقف.

أجابها وارويك أخيراً: «لنبحث عن غايتنا أولاً».

سألت قلقة: «وبعد ذلك؟»

حاولَ طمأنتها قائلاً: «هذه التعاويذ تعود إلى زمن قديم، على الأغلب أنَّ ما شعرتِ به هو مجرد بقايا لما كانت عليه»، لكنها سمعت نبرة توتره وعدم يقينه كذلك، توتُّر ليس خوفاً على سلامته، بل على سلامتها هي.

وعندما بدا عدمُ تصديقها من خلال تعابير وجهها أضاف: «سنحاول الانتقال إلى الخارج أولاً، إن لم نستطع، نرسل زاجلاً إلى أليكس».

أشارت إلى الاتجاه الذي أتيا منه: «والدخيل؟»

سرحَ لبعض الوقت ثم أجابها مشتتاً: «الدخيل؟ صحيح... لا عليكِ، اتركي أمره لي».

نظرت إليه بصدمة، فبالرغم من المأزق الذي وقعا فيه، ما زالت أفكاره مبعثرة، وكأنه شخص آخر، ليس وارويك الذي يدرس خطواته بعناية، وإن كان أسلوبه المرح في التحدث دائماً يوحي بعكس ذلك، إلا أنها تعلم أنه دائم الحذر، أمّا مَن أمامها الآن فبدا حاضرَ الجسد فقط، وتفكيره في مكان آخر، كما لو أن مهمتها غير خطيرة.

أغمضتْ عينيها عالمةً أن عليها أخذ دوره هذه المرة، فقالت بحزم: «كيف تبدو تلك القيود؟»

انتبهَ إلى نبرتها فتنهَّد محبطاً من نفسه، ثم رفعَ كتفيه: «لم أرَها من قبل، ولكنها بالتأكيد ستبرز عن البقية».

شدت قبضتيها متمسكةً برباطة جأشها، كانت تكره الفوضى، تكره الجهل، تكره أن تكون في مكان لا يتناسب مع قدراتها، زفرت متجنبة النظر إليه:

«سأبدأ من الزنازين التي على اليمين».

أومأ موافقاً: «وأنا بالتي على اليسار».

ابتعدت عنه لتبدأ بحثها، مدركةً أنها لن تثق بعمله نظراً لشروده، وستُعيد البحث في جهته من بعده، لكن الآن عليها التركيز في مهمتها.

بدأت بأول زنزانة، كانت كبيرة بما يكفي لحبس ثلاثة أشخاص، وحصلتْ على تلك المعلومة بناءً على الهياكل العظمية الثلاثة التي عُلقت بعضها بجانب بعض على الجدار.

رفعت عينيها نحو الأغلال التي لفَّت أيديهم محاولةً ألا تطيل النظر إليهم لخوفها غير المنطقي من عودتهم إلى الحياة.

لكنها لم ترَ سوى قيود حديدية عادية الشكل، تجهّمت غير عالمة كيف تتثبت من أنها ليست القيود المقصودة، ثم راودتها فكرة لمسها، بذلك تستنبط إن كانت مختلفة.

وعندما ترددت وبدأت بالتراجع عنها قال رباز مؤيداً:

«يبدو أفضل الحلول».

اطمأنت إلى وجود كيان آخر معها عدا واورويك، فبدأت بالنظر حولها باحثة عما يساعدها في الوصول إلى الأعلى، كانت تستطيع الطيران لكن ذلك يسبب تطاير الشرر حولها، ولم تُرد المجازفة بكشف موقعها، حينها انتبهت إلى أن الزنزانة تحوي مقعدين طويلين من الحجر على كلا الجانبين، لم يكونا مقعديْن على وجه الدقة لالتصاقهما بالحائط وبروزهما منه، لكنهما يفيان بالغرض.

توجهت إلى أحدهما وصعدته، ثم ترددت قليلاً محدقة في الهيكل العظمي المعلق أمامها، كشّرت بخوف واشمئزاز، ثم مدّت يدها ببطء ولمست القيد، أبقت يدها فوقه لبرهة منتظرة الشعور بأي شيء، تلاشي قواها، استفزازها، تأجُّجها، أي شيء يُعلمها بحقيقتها...

لكنها لم تجد أياً من ذلك، فتحققت من أنها أغلال عادية.
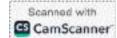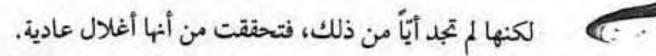
توجهت إلى الجهة المقابلة وكررت خطواتها لتجد النتيجة ذاتها، ثم نقلت نظراتها إلى الهيكل الذي علّق بينهما.

حدَّقت فيه بوجه باكٍ، عالمةً أن عليها مدّ جسدها أكثر، وبذلك ستقترب من الهيكل القريب منها أكثر.

غمغمت ممتعضة، ثم أغمضت عينيها ومدت يدها بسرعة لكيلا تتراجع.

شعرت بالجمجمة وهي تلتصق بوجنتها، فصرخت صرخة مكتومة، وحاولت إبقاء يدها لوقت أطول كما فعلت مع التي سبقتها، لكنها لم تتحمل، فقررت أنها ليست أغلالاً سحرية، واستعجلت في إبعاد يدها.

قفزت من مكانها إلى الأرض وخرجت من الزنزانة بدون أن تلتفت وكأن الهياكل ستقوم باللحاق بها إن استرقت نظرة أخيرة إليها، ودخلت إلى الزنزانة المجاورة كارهةً أنَّ عليها تكرار ذلك مرة

أخرى وأخرى حتى النهاية، لكنها تنهدت بارتياح عندما وجدت أن تلك الزنزانة لم تعلق ضحاياها، بل أنَّ اثنين منهم كانا مقيدين بالأرض، فبدأت تحققها سريعاً وتوجهت إلى التي تليها.

وبعد أن أنجزت تحققها من زنزانتين بعد ذلك، اكتشفت أن التي بعدها أصغر، ولم يكن بداخلها سوى اثنين، وهكذا تقلّص حجمها تدريجيًا.

سرحت بأفكارها أثناء عملها، متسائلة: لمَ عدد المقيدين كثير؟ محاولة عدم التفكير بأنهم كانوا أحياءً في الماضي، وأن بعضهم قد يكونون أبرياء، لكن ما أدركته بعد تفكيرها المطول هو أن هؤلاء المساجين لم يتم قتلهم، بل ماتوا لهجرهم بعد الحرب، ولم تستطع دفع الحزن الذي اعتراها، فلم تتخيل ميتةً أسوأ من ذلك، موت بطيء أسوأ من ألف طريقة تعذيب.

وعندما تساءلت عن سبب ترك مصاصي الدماء لهم، أجابها رياز ساخراً:

«لأنهم أذكى منكما، ولم يريدوا أن يُحبسوا في الداخل معهم».
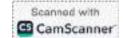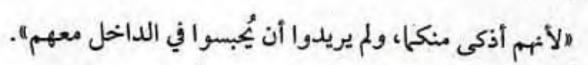
تجمدت مكانها مدركةً مرة أخرى أنهما عالقان، شاعرة بأنواع مختلفة من الخوف تراودها، ثم هزت رأسها بأمل وجود طريقة للخروج، وواست نفسها بأن أليكس سيأتي بحثاً عنها بالتأكيد إن تأخّرا كثيراً، فقال رياز متهكماً:

«إن لم يسبقهُ الدخيل إليكما».

أنّبته داخل رأسها وأمرتهُ بالتوقف عن إخافتها لأن ذلك لن يفيدهما في محنتهما، وعندما قابلها صمته المعتذر، أكملت بحثها من دون أن تترك المجال لأفكارها بالهروب والابتعاد عن الحاضر.

حتى وجدت نفسها قد انتهت من جهتها تماماً، ووقفت أمام باب حديدي مغلق بإحكام، باب واحد يفصل بين الجهة اليمنى واليسرى من الزنازين، مُصمت بالكامل، ولا يحمل نافذة صغيرة تدلها على ما يوجد خلفه، ولسبب ما أيقنت أن القيود إن وُجدت، فستكون هناك.

شعرت بما خلف الباب يجذبها باتجاهه وكأنه ينادي باسمها، التفتت باحثة عن وارويك لكنه لم يكن بالقرب منها، فعلمت أنه ما زال في مقدمة القبو، تنهدت بحنق من حالته الغريبة، ثم أعادت نظراتها إلى الباب.

وضعت يدها عليه ودفعت برفق، لكنه لم يتحرك، فبدأت بالدفع بقوة أكبر، وقابلت النتيجة ذاتها.

حينها بحثت بعينيها عن المكان الذي يُفتح منه متسائلة إن كان مفتاحه تعويذة خاصة، لكنَّ عينيها وقعتا على مكان القفل شبه المخفي، فجثت أمامه وأدخلت إصبعها مكان المفتاح الفارغ، ثم أرسلت أمواجاً هادئة من نارها لتذيبه من الداخل.

تطلّب الأمر تركيزاً مماثلاً للذي استخدمته لإذابة القفل الأول، لكنها تفاجأت بسرعة نجاحها هذه المرة، كما لو أن قواها تضاعفت بطريقة ما، سحبت إصبعها ووقفت قبل أن تفتح الباب ببطء وتوجس، لكن ذلك لم يخفف من وقع ما رأته، لم يخفف من صدمتها.
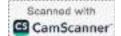
فخلفَ الباب كانت زنزانة صغيرة للغاية، مصنوعة من الفولاذ بالكامل، في وسطها كرسي حجري، قُيد فوقه رجل ما زال على قيد الحياة، تدلى رأسه ذو الشعر الأشعث الطويل أمامه بدون حراك، لكنها رأت تنفسه البطيء، قُيِّدت يداه وقدماه بقيود حجرية امتدت من الحجر ذاته الذي جلسَ فوقه، لكن ما أصابها بالذهول والرهبة وأفقدها القدرة على التحدث والتفكير لم يكن أن مَن أمامها عاشَ مقيداً لعقود كثيرة، بل أنَّ مَن تقيّد فوق الكرسي في عجز تام، لم يكن مخلوقاً عاديّاً، بل عُنقيّاً.

توقفت أنفاسه فجأة وتجمد جسده، فأدركت أنه شعر بوجودها، وبالرغم من قيوده، إلا أنها عادت إلى الخلف بوجل بينما رفعَ رأسه بتثاقل، حتى رأت وجهه الخالي من الحياة، لا يختلف عن الهياكل العظمية التي مرت بها سوى أنه ما زال محتفظاً بالجلد فوق العظام.

غارت عيناه وجحظتا إلى الداخل، وتدلت لحيته الطويلة حتى حجره.

تمايلَ رأسه لعدم قدرته على حمله لوقت طويل، رأت عينيه تسعان لرؤيتها وكأنه تعرَّف عليها، وتحرك شعر شاربه الذي غطى شفتيه، كما لو أنه فتحَ فمه لطلب النجدة، لكنه لم يفعل ذلك، بل قال مذهولاً بنبرة هامسة متقطعة عكست جفاف حنجرته:

«المخـ..تارة!»

الجزء التالي

العرش الأسود